د. عبد السلام التونجي

الايمان باليوم الآخر

الإيمان

باليوم الآخر

الطبعة الثانية

1426 ميلادية

الإيداع بدار الكتب الوطنية
بنغازي رقم: 1990/808 افرنجي
الجماهيرية العظمى

مَنشورَات

هاتف رقم 4800730 - 4800294 - بريد مصور 4800293 - ص.ب. 2662
طرابلس - الجماهيرية العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

«صدق الله العظيم»

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر، وهو دليل استيلاء النقص على جملة البشر.

«العماد الأصفهاني»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد:

إن الإيمان بالقرآن كتاب الله المنزل على رسوله محمد ﷺ، يقتضينا تبعاً لمقتضيات العقل أن نؤمن بكل ما جاء فيه فنؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره. فالقرآن الكريم على هذا الأساس هو مصدر العقيدة كما أن العقل هو الرائد والمرشد، به نميز بين الهداية والضلال، وعن طريقه يعقل المرء بوازع من دينه وإيمانه كل ما لا يرضاه الشرع أو يأباه له التكليف، كل ذلك نتيجة للتدبر والتفكر فيما أمر به الله وينهى عنه سواء كان الأمر يتعلق بأمور حسية أو أمور غيبية، إذ المرء لوحده دون إرشاد أو تعليم ودعوة إلى الهدى أو الخير لا يملك لنفسه العلم كما لا يملك لنفسه نفعاً أو ضراً إلا بمشيئة الله، ولو كان الإنسان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، والله سبحانه وتعالى قد أرشدنا إلى ذلك، فقال على لسان نبيه ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

وإذا كان الإنسان لا يعلم الغيب ولا يمكنه أن يطلع عليه، فمن البديهي أن يؤمن بما أمر الله به من تكاليف، وأن يتعلم بما يحقق واجب التكليف فلا يهمله أو يعطله، أو يلغيه، لا سيما وقد تفضل الله على عباده

(1) سورة الأعراف، الآية: 188.

بأن أنزل لهم القرآن وجعله هدى للناس يلتمسون فيه أمورهم في دنياهم وآخرتهم وقد حوى كل شيء قال تعالى:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

هذا وإذا كان الإنسان في عقيدة القرآن هو خليفة الله سبحانه وتعالى، فإن من مقتضيات هذه العقيدة العمل بموجبها، باعتبار أن الإنسان لم يخلق عبثاً بل خلق للعلم والعمل والابتلاء والعبادة، كل هذا في سبيل ما يحقق الخير في الحياة، ويضمن السعادة في الدنيا والآخرة، فالحياة الدنيا إذن دار امتحان يقيم فيها المرء تبعاً لأعماله من خير أو شر، كما يحاسب عليها في الآخرة.

قال تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[3].

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4].

قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[5].

فالإنسان والإنسانية جمعاً، بمقتضى الإيمان بالعقل المسؤول، هي

(1) سورة الأنعام، الآية: 38.

(2) سورة الإسراء، الآية: 9.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 35.

(4) سورة الملك، الآية: 2.

(5) سورة الكهف، الآية: 7.

أسرة واحدة منسوبة لأدم وحواء، خلقهم الله ورفع بعضهم على بعض درجات تبعاً لأعمالهم فأفضل الناس عند الله من عمل حسناً وأتقى سيئاً، وصدق النية فيما عاهد الله عليه، وعلم أنه مسؤول عن عمله يحاسب عليه ويؤاخذ بوزره، فلا يسأل الإنسان عن عمل غيره.

قال تعالى:

﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾(2).

وعلى هذا فلا تؤاخذ نفس بوزر أحد كما لا تؤاخذ أمة بوزر غيرها.

قال تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(3).

فعقيدة القرآن إذن كما أنها عقيدة الإيمان بشموله، تبعاً لما أمر به الله سبحانه وتعالى، فهي في الوقت ذاته عقيدة رشد وهداية ومساءلة، فكل مخلوق بلغته الرسالة مسؤول، قال تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(4).

وقال تعالى:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(5).

على أن هذه المساءلة لا تتحقق إلا بأركان وجب توافرها، وهذه

---

(1) سورة الطور، الآية: 21.

(2) سورة الأنعام، الآية: 164.

(3) سورة البقرة، الآية: 134.

(4) سورة الحجر، الآية: 92 ـ 93.

(5) سورة الأعراف، الآية: 6.

الأركان تبعاً للتشريع الإلهي المنزل: تبليغ، وعلم، وعمل.

أما عن التبليغ فالمراد به وصول الدعوة إلى الناس وعلمهم بها، والدعوة المقصودة هنا هي الدعوة إلى دين الله الحنيف بما يقتضيه من الإيمان، من عقيدة ومعاملات وعبادات تبعاً لما أمر به الله سبحانه وتعالى، أو نهى عنه.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(1).

كل هذا لتستقيم حياة الناس ويتحقق لهم الخير في دنياهم وآخرتهم.

قال تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(2).

وقوله تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(3).

وعلى هذا فلا تحق التبعة على أي إنسان ما لم تبلغه الدعوة في قضايا الإيمان الشامل بالمحسوسات، وبقضايا الغيب التي يعجز العقل لوحده عن إدراكها.

أما العلم فقد خص الله به آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾(4).

وإذا كان العلم أساس المعرفة فقد أعلن الله مبدأ أساسياً لتعليم الناس والتزود به باعتبار أن الإنسان مميز عن سائر المخلوقات بقابليته للعلم تعلماً

(1) سورة النساء، الآية: 165.
(2) سورة الإسراء، الآية: 15.
(3) سورة يونس، الآية: 47.
(4) سورة البقرة، الآية: 31 ـ 32.

وتعليماً، وهذا ما أشار الله سبحانه وتعالى إليه واعتبره طريق الدعوة التي تقتضي العلم والإيمان بالعقيدة، وبأحكام الشريعة الإسلامية، ولهذا كان العلم من أشرف المراتب التي حث الله سبحانه وتعالى رسوله عليها، فقال تعالى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وهذه إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه بالقراءة أولاً لنفسه وثانياً للتبليغ، أو الأول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم[2] والمراد بالقراءة هنا قراءة القرآن.

أما العمل فهو فعالية الطاقة للإنسان بالجد والثبات والاستدامة فيما يحقق الخير على الوجه الذي رشد به الدين بمعنى أن يكون صالحاً، ويبتغى به وجه الله ويكون موافقاً للوضع الذي اعتد به الشارع في العبادات والمعاملات والحكم والقضاء[3]. فالعمل الصالح له أهميته ومرتبته العظمى وهو من نتائج الإيمان بالله واليوم الآخر ومقتضياته.

قال تعالى:

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[5].

---

(1) سورة العلق، الآية: 1 ـ 5.

(2) الإمام فخري الرازي ـ التفسير الكبير ج 3، ص 16.

(3) محمد الخضر حسين ـ أسرار التنزيل ص 108 ط 1976.

(4) سورة البقرة، الآية: 62.

(5) سورة البقرة، الآية: 25.

على أن هذا العمل مشروط بالتكليف في حدود طاقة الإنسان وقدرته قال تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

فالعمل المطلوب إذن إنما هو في حدود وسع الإنسان وقدرته، وهو العمل الصالح بما فيه خير الإنسان والإنسانية، لهذا فقد حدد الله الجزاء من جنس العمل بغية حض الناس على العمل الصالح فقال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

فعمل الإنسان إذن مراقب وبالتالي فهو محاسب عليه من قبل الله سبحانه وتعالى حيث ينبىء الناس بما كانوا يعملون.

قال تعالى:

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

هذا وعلم الله أزلي، يعلم غيب السموات والأرض، وهو خلق كل شيء وأحسن خلقه وبدأ الإنسان من طين ونفخ فيه الروح، فعلمه محيط بكل شيء، يعلم بما لم يكن بعد، كما يعلم ما وجد، فهو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم، خص ذاته بهذا العلم ولم يظهره عليه أحد.

قال تعالى:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[4].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 286.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 7 ـ 8

(3) سورة التوبة، الآية: 105.

(4) سورة الجن، الآية: 26.

(5) سورة آل عمران، الآية: 179.

فعلم الغيب إذن من خواص الذات الآلهية والإيمان به مرتبط بالعقيدة إذ من مقتضى هذه العقيدة أن يؤمن الإنسان بالغيب وهو تكليف عقائدي تترتب على مخالفته المساءلة، هذه المسائل الغيبية وردتنا بالإخبار اليقيني، وهي وإن كان وجودها وحقيقتها يدخل في شمول علم الله، على أن الإيمان بها من أسس العقيدة التي أخبرنا بها القرآن الكريم. وهي إن كانت مما لا يستطيع العقل أن يتلمس لها وجوداً حسياً لأن من مقتضى الغيبيات وطبيعتها أنها لاتقع تحت الحس، كما أنها ليست من الموجودات المادية فالإيمان بها يكون عن طريق التسليم بما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى سواء قام عليه دليل عقلي أم لا كالروح والملائكة، والجن والساعة، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، إلى غير ذلك من الأمور الغيبية.

هذه الأمور وإن كان لا يتصورها العقل باعتبار أن الإنسان لم يمر عليها في الحياة الدنيا كما أنها لم تجرب على أي إنسان ومع ذلك يجب تصديقها بمقتضى العقيدة وفقاً لما أخبرنا الله بها في القرآن، وهذا الإخبار يقوم مقام الدليل العقلي اليقيني، لأن الإيمان والتصديق بالشيء لا يقتضي دائماً رؤيته والحس به، إذ الكثير من الأشياء في هذا الكون على الرغم من أننا لا نحس بها سمعاً أو بصراً مع ذلك موجودة، ولا ينفي وجودها عدم رؤيتها أو عدم سماع حركتها، ومع ذلك فالإنسان يؤمن بوجودها إذا كان واثقاً من صدق المخبر أو الناقل، وإن كان فاقداً لوسيلة المعرفة أو الرؤية. مثال ذلك الأعمى الذي لا يرى القمر ومع ذلك لا يمكنه أن ينكر وجوده طالما أنه أخبر بوجوده ممن يثق به، وكذلك بالنسبة للعوالم المجهرية كالجراثيم مثلاً، لا يمكن للإنسان إنكارها ولو لم يبصرها، طالما أن عالم الطبيعة أو الحياة يقر بوجودها من خلال رؤيته لها تحت المجهر، فما على الإنسان إذاً إلا أن يصدقه وإن لم يملك الوسيلة لرؤيتها، كما أن رواد الفضاء الذين ينقلون إلينا مشاهداتهم عن الفضاء والكواكب والأقمار لا نملك إلا أن نصدقهم، لأن أخبارهم يقينية. قائمة على المشاهدة الحسية. وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن الأخبار النقلية الواردة في القرآن أو عن الرسل والأنبياء ليس لنا إلا أن نؤمن بصحتها ولو لم نشاهد الوقائع حسياً. طالما أننا نؤمن بوجود الله وخلقه لهذا الكون. فإذا آمنا به وبكتبه المنزلة من عنده، وبرسله

وأنبيائه، فإنه بمقتضى هذا الإيمان يقتضينا العقل أن نؤمن حكماً بالغيبيات التي أخبرنا بها عن طريق القرآن، أو عن طريق الرسل.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[1].

هذا والغيب بمفهومه هو ما يغيب عن الحاسة فمنه ما عليه دليل وهو ما يدخل فيه العلم بالله تعالى وبصفاته والعلم بالآخرة والعلم بالنبوة والعلم بالأحكام وبالشرائع[2] ومنه ما ليس عليه دليل ما، وتفرد بعلمه اللطيف الخبير سبحانه وتعالى كعلم القدر قال تعالى:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾[4].

وإذا كان الغيب قد تفرد الله سبحانه وتعالى بعلمه له، فإنه سواء قام عليه دليل أم لم يقم يقتضينا أن نؤمن به، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى مرتبة المؤمنين بالغيب، فقال: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ

(1) سورة النساء، الآية: 136.

(2) الرازي ـ التفسير الكبير ج 2، ص 27.

(3) سورة الأنعام، الآية: 59.

(4) سورة النمل، الآية: 65.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

قال تعالى في وصفهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

فالمؤمنون بالغيب إذن يستوي عندهم الإيمان به سواء ما كان منه مشاهداً أم غير مشاهد ذلك أن الإيمان به ركن من أركان العقيدة وقد أثاب الله المؤمنين بالغيب فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[3].

وإذا كان الإيمان بالغيب هو التصديق بقلب الإنسان ولسانه فإنه إذن إقرار باللسان ومعرفة بالقلب فالإيمان به يقتضي الاعتقاد بمضمونه على وجه الجزم واليقين، سواء كان هذا الاعتقاد تقليدياً أم كان علماً صادراً عن الدليل.

هذا الإيمان بالغيب إذن ما هو مضمونه ومحتوياته؟ وهذا ما سنحاول أن نميط اللثام عنه. مخصصين هذا المؤلف لبحث اليوم الآخر وما فيه من أحداث تدخل في شمول عالم الغيب.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 1 - 3.

(2) سورة البقرة، الآية: 5.

(3) سورة الملك، الآية: 12.

(4) قول أبي حنيفة - الرازي المرجع السابق ج 2، ص 24.

الغيبيات

الباب الأول

الفصل الأول

موقف الإنسان من الأمور الغيبية[1]

مما لا شك فيه أن إدراك الإنسان للأشياء أو المفاهيم قائم على قوى ذاتية متعه الله بها، وهي الحواس الخمس من بصر، وسمع، وشم، ولمس، وذوق؛ هذه القوى التي تطل على الساحة النفسية للإنسان وهي في الوقت ذاته صمامات الأمان لحياة الإنسان الذاتية في سلوكه بل هي من وسائل حمايته في فعالياته على اختلاف أنواعها من خير أو شر.

(1) غيب: الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين يقال: غاب عني كذا قال تعالى: ﴿أم كان من الغائبين﴾. واستعمل في كل غائب عن الحاسة وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب، قال: ﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾، ويقال الشيء غيب وغائب باعتباره من الناس لا بالله تعالى فإنه لا يغيب عنه شيء كما ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض﴾، وقوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه، والغيب في قوله: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام ويدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد، ومن قال الغيب هو القرآن، ومن قال هو القدر فإشارة منهم إلى بعض ما يقتضيه لفظه. وقال بعضهم معناه يؤمنون إذا غابوا عنكم ولبسوا كالمنافقين الذين قيل فيهم ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ وعلى هذا قوله: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ - ﴿ومن خشي الرحمٰن بالغيب﴾، ﴿ولله غيب السمٰوات والأرض﴾، ﴿أطلع الغيب﴾، ﴿فلا يظهر على غيبه أحد﴾، ﴿لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله﴾، ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾، ﴿إنك علام الغيوب﴾، ﴿إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾ واغابت المرأة غاب زوجها، وقوله في صفة النساء: ﴿حافظات للغيب بما حفظه الله﴾ أي لا يفعلن في غيبة الزوج ما يكرهه الزوج. والغيبة أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيب من غير أن أحوج إلى ذكره قال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ والغيابة مُنْهَبَطٌ من الأرض ومنه الغابة للأجمة، قال: ﴿في غيابة الجب﴾، ويقال: هم يشهدون أحياناً ويتغايبون أحياناً وقوله: ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ أي حيث لا يدركونه ببصرهم وبصيرتهم. الراغب الأصفهاني - «المفردات في غريب القرآن» ص 366 - 367 دار المعرفة بيروت.

كما أنها هي التي تتحكم في فعالياته وانفعالاته على الساحة النفسية والمادية من رضى، وغضب، أو حب وكراهية، ولذة، وألم، وسير، وحركة، وسكون. كما أن هذه الحواس بطاقاتها هي التي تحقق للعقل إدراكاته إذا كان سليماً إذ به عن طريق إعماله بالتفكير يميز المرء بين الخبيث والطيب، وبين الحلال والحرام وبين الوجود والعدم، كما يميز بين الأمور الحسية والأمور الغيبية.

وإذا كانت الحواس على ما ذكرناه هي مبعث إدراكات العقل للأشياء المرئية أو الموجودات الحسية، فإن إدراك الأمور الغيبية لا يقوم على أساس الحواس المادية، باعتبار أنها غير مرئية.

لهذا كان لا بد لإدراكها من أن تكون قائمة على أساس من الإيمان، إذ الإيمان هو مبعث الإدراك في الغيبيات والتي تصلنا عن طريق الأخبار اليقينية، بمعنى أن تصديقها يقوم على الدليل النقلي ولو لم يستطع العقل أن يصل إلى حقيقة ماهيتها، فوجود الله سبحانه وتعالى قائم بالدليل النقلي بما أوحى به إلى نبيه عن طريق القرآن الكريم، وكذلك قائم بالدليل العقلي من ناحية التفكر في الآثار الدالة على وجوده - والتي خلقها الله - كخلق السموات، والأرض، والملائكة والجن، والجنة، والنار، كلها أمور غيبية، وإن كان العقل لا يدرك كنه حقيقتها فهو يسلم بها تبعاً للإخبار اليقيني الذي ورد في القرآن الكريم، بمعنى أن وجودها قطعي الدلالة ولو لم نلمسها أو نحس بها، فالألوان مثلاً لا يمكن للإنسان الأعمى الفاقد لبصره أن يدرك أو يميز بينها، وكذلك الروائح لا يمكن معرفتها أو التمييز بينها من قبل الفاقد لحاسة الشم. وهكذا بالنسبة لسائر الأمور التي يعتمد في إدراكها على الحواس من مسموعات أو مذوقات أو غيرها، كل هذه لا بد لها من وسائل للإحساس بها أو تصورها وإدراكها.

هذه الأشياء المادية بالنسبة لمن فقد وسائل الحس بها تعتبر بالنسبة إليه من عالم الغيبيات لأنه فاقد لمقومات إدراكها، ومع ذلك فإن هذا لا يمنعه من أن يؤمن بها ويصدقها بالدليل النقلي حتى ولو لم يستطع تصورها طالما أنه مؤمن، والإيمان هو معرفة القلب وإقرار اللسان وعمل بالأركان فالمؤمن بكتاب الله يؤمن بالغيبيات بل ويزداد إيماناً كلما تليت آياته.

قال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[2].

فالذين لا يؤمنون بالقرآن لا يمكن أن يؤمنوا بالغيب لأن الله سبحانه وتعالى جعل على قلوبهم أكنة وجعل في آذانهم وقراً[3].

قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[4].

وعلى هذا فإن الإيمان يكشف معاني القرآن للإنسان، فمن يدرك حقائقه تتضح أمامه الحقيقة عن طريقه، فكما أن المعقولات كالحياة التي بها الأسماع والأبصار، فالقرآن كالمدرك بالبصر والسمع، وكما أن من المحال أن يسمع الميت قبل أن يجعل الله فيه الروح والسمع والبصر كذلك من المحال أن يدرك من لم يحصل المعقولات حقائق الشرع ولهذا قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[5].

يعني آيات السموات والأرض[6].

---

(1) سورة التوبة، الآية: 124.
(2) سورة الأنفال، الآية: 2.
(3) الأكنة: جمع كنان وهو ما وقى شيئاً وستره مثل عنان وأعنة. والوقر: الثقل في الأذن.
(4) سورة الإسراء، الآية: 45 ـ 46.
(5) سورة الروم، الآية: 52 ـ 53.
(6) الراغب الأصفهاني ـ «الذريعة إلى مكارم الشريعة ص 125 ط 1 ـ 1980 بيروت.

فالإيمان بالغيبيات إذن مقتضاه الإيمان بالقرآن فمن يؤمن بالقرآن كان قلبه متفتحاً لفهمه، أما ما ليس كذلك فهو منكر للغيبيات.

قال تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

وهكذا نجد أن الأمور الحسية المادية بالنسبة لفاقدي الحواس إنما هي أمور بمثابة الغيبيات، ومع ذلك فإن الغيبيات الحقيقية البعيدة عن مجال الحواس وقدرتها والبعيدة عن تصورات العقل مسلم بها بالنسبة للمؤمن، أما الكافر بها، فينكرها على الرغم من قيام الأدلة النقلية أو العقلية بها، فإنهم يعطلون قدراتهم الفكرية والعقلية ويغلقون قلوبهم، ويعرضون عن التفكر في خلق السموات والأرض. فهؤلاء جعلوا على قلوبهم أكنة فأضحوا لا يفقهون ولا يعقلون، فهم كالصم البكم والعمي.

وقد قال تعالى في شأنهم:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

هذا الصنف من البشر عمي على الرغم من وجود بصرهم السليم، فهم قد قفلوا على أنفسهم باب الهداية بل استحبوا العمي على الهدي وقد قال تعالى فيهم:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[3].

وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ:

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾[4].

---

(1) سورة النحل، الآية: 22.

(2) سورة البقرة، الآية: 171.

(3) سورة فصلت، الآية: 17.

(4) سورة الروم، الآية: 53.

وقال تعالى:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وهكذا تجد أن إدراك العالم الخارجي إنما يتم عن طريق قوى الحواس التي هي المدخل لإدراكات الإنسان، ذلك أن القوى المدركة هي الحواس الخمس والخيال والفكر والعقل، والحفظ، وقد خص الله سبحانه وتعالى لكل واحدة خاصية معينة لأدراك الأشياء، فبالحس مثلاً يدرك الإنسان الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واللين والخشونة، والصلاة، والرخاوة، والثقل والخفة، كما أنه بحاسة الذوق يدرك الإنسان الحلاوة والمرارة، والملوحة والحموضة، وكذلك بالبصر مثلاً يدرك الإنسان النور والظلمة، واللون، والجسم وسطحه، وشكله، ووضعه، ورفعه، وإبعاده وحركاته، وسكناته، وإعداده.

هذا وإن أرفع هذه الإدراكات العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس، إلا أن العقل والفكر يدركان الأشياء الروحية. ولما كان إدراك أكثر الحقائق بهذه القوى المدركة، وكانت الفكرة خادمة للعقل، والتخيل خادماً والفكر تارة، وللسمع والبصر تارة، خص الله تعالى بالذكر القلب وهو أحد الطرفين والسمع والبصر هما الطرف الآخر ولذلك عظم الله تعالى المنة على الإنسان بإعطائه إياه هذه الثلاثة وحمد من استعملها وذم من أهملها فقال عز من قائل:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

وقال تعالى في ذم من لا ينتفع بهذه الحواس:

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 40.

(2) سورة النحل، الآية: 78.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾(1).

وقد وصف الله تعالى هؤلاء فقال:

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(2).

[فهؤلاء لا يفهمون المعنى ولا يورودونه مستنبطاً بالفكر ومدركاً بالفعل].

فبتضامن هذه الحواس يتدرج الإدراك إلى أن يستقر في الحكم على الشيء نتيجة لها ولإعمال الفكر والعقل. وبهذا يخلص الإنسان إلى القرار الذي يصدره على الشيء نتيجة لإيمانه به هذا في الأمور الحسية؛ أما في الأمور الغيبية فإن الحواس ليس لها طاقة لكشفها لا سيما وأنها محدودة القدرات، وأن عملها محدود في مجال معين، فإذا ما خرج الأمر عن هذا المجال عجزت الحواس عن إدراكه، وبالتالي يضحى الأمر المحجوب عن الحواس غيبياً بالنسبة للإنسان، بمعنى أن كل ما لا يسمعه أو يراه أو يحس به يعتبر من عالم الغيبيات، ولا قبل له بكشفه أو الإحساس به، كالكواكب، والأفلاك البعيدة عن المجال المحدد للرؤية الطبيعية، والتي تعتبر غائبة عن مجال حسنا البصري. ومع ذلك فإن الوسائل العلمية المستحدثة استطاعت أن تكشف لنا ما كان غائباً عنا أو مجهولاً في مداركنا كما هو الشأن في عوالم الذرة والالكترون والطاقة الكهربائية والمغناطيسية. كلها طاقات وقدرات لا يمكن رؤيتها على الرغم من كشف آثارها وهي قبل كشفها تعتبر بالنسبة للإنسان من عالم الغيبيات.

وعلى هذا نستطيع القول إن قدرات حواسنا المحدودة كماً وكيفاً عاجزة عن التقاط الأصوات البعيدة، كما أنها عاجزة أيضاً عن رؤية المرئيات الواقعة وراء مجال الرؤية الطبيعية.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 179.

(2) سورة البقرة، الآية: 171.

على أنه بتقدم الوسائل العلمية الكهربائية والألكترونية السمعية والبصرية استطعنا أن نسمع على بعد ألوف الكيلومترات، أو مئات الألوف الأصوات المرسلة عن طريق الأجهزة الناقلة والمرسلة، والتي بدونها يعتبر السمع والبصر بطاقاته الطبيعية، عاجزاً عن إدراكها، ولكن هذا العجز لا يعني أننا نستطيع إنكارها لمجرد أننا لا نستطيع سماعها أو رؤيتها. إذ هذا ما يتنافى مع مبادىء العقل وسلامة التفكير طالما أن هناك من أخبرنا بوجودها على وجه الصدق واليقين، فعلماء الفضاء مثلاً الذين ابتعدوا آلاف الكيلومترات عن القشرة الأرضية قد أعلمونا بأشياء غير مرئية بالنسبة لنا فآمنا بها وصدقناهم إذ لا يسعنا إنكارها، لأن الفكر والعقل لا تقوم قناعته دائماً على الأدلة الحسية المستمدة من طاقاتنا الحسية. بل يمكن أن يتكون الإيمان بالشيء عن طريق الأدلة النقلية التي يميز الإنسان بينها، من حيث صحتها أو عدمها، تبعاً للمقومات والأسس المطلوب توافرها في الدليل النقلي، وذلك ليصل إلى قناعة حولها، لا عن تصورها، بل عن وجودها، طالما أن المصدر في الإخبار صادق وبهذا يضحى الدليل النقلي في حكم الدليل الحسي، ويضحى الخبر على وجود الشيء المخبر عنه، قطعي الدلالة.

يخلص لنا مما تقدم أن الإيمان بالشيء لا يعتمد دائماً على إيجابيات حواسنا فقط، إذ قد تعجز الحواس عن تحقيق إدراكه الحسي، أو نقل حقيقته أو صورته إلينا، ومع ذلك نقبله اعتماداً على الدليل العقلي أو النقلي كما هو الشأن بوجود الله سبحانه وتعالى، والملائكة والجن واليوم الآخر كلها من الأمور الغيبية وإن كنا لا نستطيع إدراكها حسياً بحواسنا لأن حواسنا بطبيعتها محدودة الطاقات فضلاً أن هذه الغيبيات بطبيعتها غير قابلة للرؤية وهي محجوبة عن الإنسان وهذا لا يعني أنها غير موجودة إذ إن هذا النوع من الغيبيات، تقتضينا عقيدتنا أن نسلم بوجودها انطلاقاً من إيماننا بالله سبحانه وتعالى وبأنبيائه وبما أنزل عليهم من كتب، وبإيماننا بمحمد رسول الله ﷺ، وبالقرآن الكريم المنزل من عند الله وبما ورد فيه من أخبار. هذا الإيمان بطبيعته ينتهي بالإنسان إلى الإيمان بالغيبيات وفقاً لما أخبرنا الله عنها فهي إذن أخبار يقينية بكل ما يتحدث الله عنه، عن قيام الساعة وحشر الأجساد مع أرواحها وعن الميزان والصراط، والحساب، والجنة، والنار.

هذه الأمور الغيبية لو لم يخبرنا الله عنها لما استطعنا تصورها أو الإيمان بها لأن عقلنا بحدوده وطاقاته عاجز عن إدراكها، لأنه كما للبصر وللسمع حدود ينتهيان إليها كذلك فإن للعقل في تفكيره وإدراكاته حدوداً ينتهي إليها أيضاً، وإلى هذا أشار الإمام الغزالي في كتابه (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) في ختام الفصل الأول منه فقال ما خلاصته: «إن ما وراء العقل قد يكون بعيداً عن تصور العقل وتوهمه بعداً بالغ النهاية. لأن العقل محجوب عنه في حدوده التي لا يستطيع أن يتعداها، لكنه لا يمكن أن تكون وراء العقل أشياء يحكم العقل حكماً قاطعاً باستحالتها، فهناك فرق كبير بين ما يدركه العقل فهو لا يتناوله بنفي ولا إثبات، لأنه ليس من الأمور التي يتناولها بأحكامه، وبين ما يحكم العقل قطعاً بنفيه أو إثباته»[1] وعلى هذا نستطيع القول: إن كل ما أخبرنا الله عنه ولو لم ندركه بعقلنا وحواسنا يقتضي تصديقه، لأنه يستحيل على العقل بطاقاته إدراكه، لا سيما وأنه لم يمر على الإنسان نموذج من أمثاله في هذه الدنيا حتى نستطيع تصوره عن طريق القياس أو المشابهة، إذ القاعدة «أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره» فتصور الأشياء المرئية تابع لسبق إدراكها عن طريق الحواس، فما ليس بمرئي ولا مسموع ولا ملموس لا يستطيع العقل أن يصدر حكمه فيه لا سيما وأن الأحداث والوقائع لا بد وأن تقترن بزمان ومكان، ولما كانت معطيات الغيبيات لا تكون مقترنة بزمان ومكان كما هو الشأن بالنسبة لعالم الغيب والشهادة ـ الله سبحانه وتعالى ـ فوجوده غير محدود بزمان أو مكان، لأنه عز شأنه خالق الزمان والمكان وهو متفرد في ذاته، وكل ما يخطر ببالك فالله بخلاف ذلك. هذا كما أن الزمان والمكان في الدنيا أمران نسبيان على وجه الأرض تبعاً للتقسيمات الفلكية للدورة الشمسية، كما أن القيم الحسية من جاذبية أووزن أو زمان قائمة على الكوكب الأرضي أما إذا ابتعدنا عنها فالأمر يختلف تماماً، كذلك بالنسبة للمكان، فهو محدود بحدود الكرة الأرضية فإذا ابتعدنا عن الغلاف الأرضي يضحى الأمر غير محدود، فهناك سموات لا يمكن تصورها على وجه ما ـ لأنها من عالم الغيبيات ـ إلى في

(1) الراغب الأصفهاني ـ المرجع السابق، ص 23.

حدود ما أخبرنا الله عنها قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1][2].

وقال تعالى:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[5].

وهكذا فإن عقل الإنسان لا يستطيع بقدراته المحدودة الحكم على الأشياء غير المحدودة، مما يتعين تبعاً لإيماننا بالله عز شأنه أن نؤمن بالغيبيات على أنها من المسلمات التي لا تقبل النقاش والجدل. وقد أشار الإمام الغزالي إلى اختلاف مدركات البصائر وتفاوتها فقال:

«فافهم أن مدركات البصائر أيضاً متفاوتة، فمنها ما تحيط العقول بكنه حقيقته، ومنها ما تقصر العقول عنه، وما تقصر العقول عنه ينقسم إلى ما لا يتصور أن يحيط به بعض العقول وإن قصر عنه أكثرها، وإلى ما لا يتصور أن يحيط العقل أصلاً بكنه حقيقته، وذلك هو العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقل حتى لا يتصور الإحاطة بكنهه، وذلك هو الله تعالى»[6].

وإذا كان الأمر بالنسبة للأمور الغيبية المادية أو الروحية البعيدة عن

(1) نقلاً عن عبد الرحمٰن حنبكة ـ «العقيدة الإسلامية ص 20 الهامش» ط 1966.

(2) سورة النحل، الآية: 77.

(3) سورة البقرة، الآية: 29.

(4) سورة الطلاق، الآية: 12.

(5) سورة الزمر، الآية: 46.

(6) الإمام الغزالي ـ «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» ص 113، دار المشرق ـ بيروت ـ لبنان 1982.

متناول حسنا وإدراكنا والقائمة منها في عالم الدنيا هذا شأنها بالنسبة لموقف الإنسان منها، فمن باب أولى أن الأمور الغيبية الأخروية، والتي لا تقع تحت طائلة حواسنا وعقلنا يصعب الوصول إلى برهان عقلي مادي على وجودها إن لنؤمن بها تسليماً ويقيناً وما على الإنسان إلا أن يقف منها موقفاً إيجابياً طالما أننا سلمنا بوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته غير المحدودة في خلقه ومشيئته في عالم الدنيا والآخرة، فهو المبدي والمعيد فالتسليم بهذا يقتضي حكماً التسليم بالغيبيات جميعها من حشر أو بعث أو جنة أو نار دون أن نتلمس البرهان الحسي بأنفسنا لا سيما وأن هناك من أطلع على بعضها أو أخبر بوجودها على وجه اليقين وبلغنا إياها. ذلك هو الرسول الأمين محمد ﷺ الذي حدثنا عنها. وهو المخبر الصادق حيث اطلع في اسرائه الذي أسرى به الله ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث عرج به إلى السموات، ثم إلى سدرة المنتهى فأطلعه الله على ما هنالك من عوالم ثم أعاد فأخبرنا بما رآه تطميناً للنفوس وتنويراً وتبصيراً لما غاب عنا من تلك العوالم لنكون على يقين من عقيدتنا طالما أننا مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر. فكل ما تحدث عنه الرسول ﷺ أو ما وصفه لنا أو ما أخبرنا به عن اليوم الآخر يقتضي التسليم به قال تعالى في معرض وجوب تصديقه:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾[2].

هذا الإخبار من قبل الله إنما هو الحجة على تمام اليقين بقطعية الدلالة

---

(1) سورة النجم، الآية: 1 ـ 2 ـ 3.

(2) سورة النجم، الآية: 13 ـ 14 ـ 15.

على صدق ما رآه الرسول ﷺ وأخبر به إذ أن قضايا الغيب ثابتة بالقرآن وبالبرهان من أصدق إنسان على وجه الإطلاق فهو لا يضل ولا يغوى ولا ينطق عن هوى لهذا اقتضى أن يكون موقف الإنسان من هذه الأمور موقف التصديق والإيمان بها على وجه اليقين.

الفصل الثاني
عالم الغيب

علمنا فيما سبق أن الإنسان مخلوق، وأن الله سبحانه وتعالى خلقه في هذا الكون من جملة ما خلق فيه من عوالم حسية مرئية، أو غير مرئية تدخل في شمول الغيبيات الدنيوية، كما وخلق الله الغيبيات الأخروية كل هذه المخلوقات لا تعد ولا تحصى ولا يحيط بعلمها إلا هو سبحانه وتعالى العالم بكل شيء «وعلماً ظاهره وباطنه دقيقه وجليله، أوله وآخره عاقبته وفاتحته، وهو الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه، فالله سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء هو المبدىء والمعيد الموجد الذي بدأ خلق الناس وهو الذي يعيدهم، فيحشرهم يوم البعث. أو القيامة التي تدخل في شمول الغيبيات، والقادر على إقامتها لو شاء الآن وإن لم يشأها ولا يشاؤها لما جرى في سابق علمه من تقدير أجلها ووقتها. وهكذا فإن الأشياء من حسيات وغيبيات كلها منه بدت وإليه تعود، وبه بدت وبه تعود»[1].

هذا أما بالنسبة للإنسان فإن علمه تعلمي، يدرك الأشياء بالقدرات والحواس التي أودعها الله فيه، بمعنى أن علمه بالمحسوسات المادية مستفاد من وجود الأشياء المخلوقة باعتبارها من العوالم المادية المشاهدة والقائمة والظاهرة للعيان، وكل ذلك ضمن نطاق القدرات المخولة له رؤيتها أو كشفها، فإن لم يكتشفها تبقى بالنسبة له من عالم الغيبيات كما هو الشأن في بعض عوالم الغيب التي كانت مجهولة بالنسبة للإنسان، ثم أضحت بعد اكتشافها وإجراء التجارب عليها معروفة. كالذرة مثلاً، والخلية الحيوانية وما تحتوي من (كروموزمات) التي هي وحدة المادة العضوية والعامل في نقل

(1) الإمام الغزالي ـ المرجع السابق، ص 142 ـ 145.

الصفات الوراثية؛ فهذه كانت من عالم الغيب قبل كشفها، وينطبق هذا على كل ما هو قابل للاكتشاف من عالم المادة. أما بالنسبة لما عجز الإنسان عن كشفه ومعرفته فقد بقي في عالم الغيب كالروح السارية في كل إنسان، هذه الروح لا نسمعها، ولا نراها، ولا نلمسها، كما أنها غير قابلة للتذوق أو الشم، ومع ذلك فهي موجودة وقائمة. ومن المكابر أن ننكرها أو لا نؤمن بوجودها، وإن كنا لا نراها بيد أننا نحس بها، إذ أننا نتألم أو نسر بها، كما أننا أحياء بوجودها في الجسم وهي فيصل التمييز بين الحياة والموت تبعاً لبقائها أو انتقالها إلى برائها[1] «هذه الروح إذن من عالم الغيبيات ومع ذلك فقد استدللنا على وجودها بآثارها من جهة، وبالدليل النقلي الوارد في كتاب الله من جهة أخرى، على الرغم من أننا لا نستطيع إدراك كنهها وحقيقتها؛ وهذه الروح هي أقرب القوى إلى الحياة الباقية والمخفية عن مداركنا الحسية، فهي إذن من عالم الغيب التي استأثر الله سبحانه بعلمه بها، واحتجبت عن أنبيائه، لأنه سر الوجود المطلق لا قدرة للعقل الإنساني المحدود عن الإحاطة بها ووعيها، إلا بما يناسبه من الإشارة والتقريب»[2].

قال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

---

(1) لقد توصل علماء الحياة بدراسة أسباب الموت، أن الموت لا يحصل نتيجة لتوقف القلب أو بموت خلايا المخ، إذ أنه أعلن في مستشفى جامعة طوكيو أنه قد تم بنجاح إعادة مخ رجل للحياة بعد أن توقف نشاطه عدة شهور وعلى هذا فليس من تفسير للموت سوى أنه مغادرة الروح للجسم إذ في حالات كثيرة، والجسم في أتم صحة والأعضاء في أكمل حالاتها، تغادر الروح الجسد بلا سبب غير ما سبق تقديره من الله سبحانه وتعالى من أجل قاطع لموت صاحبها، فيموت الإنسان بلا سبب معروف وبلا علة واضحة وبما لا علاقة له إطلاقاً بالجسم. وفي حالات أخرى تتوقف الأجهزة كالقلب، والرئتين، والكلي والمخ ويموت الإنسان فما من تفسير علمي وتعريف للموت إلا ما جاء به القرآن: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الزمر: 42].

(2) عباس محمود العقاد ـ «الإنسان في القرآن» ص 63، الطبعة الثانية 1969 بيروت.

(3) سورة الإسراء، الآية: 85.

وهناك من عالم الغيب ما لا يمكننا بحال من الأحوال رؤيته أو معرفة ذاته وهو الله أو قبول أي تصور عنه، أو تخيل حقيقته، إنما أدركناه بالإيمان به واستدلالاً بما خلقه الله وقدره وقضاه في هذا الكون من عوالم حسية أو غيبية «كخلقه الأرض والسموات السبع والكواكب والأفلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التي لا تتغير ولا تنعدم إلى أن يبلغ الكتاب أجله. قضاؤه كما قال تعالى:

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[1].

«وتوجيه هذه الأسباب بحركاتها المتناسبة المحدودة المقدرة المحسوبة إلى المسببات الحادثة منها لحظة بعد لحظة قدره، فالحكم هو التدبير الأول الكلي، والأمر الأولى الذي هو كلمح البصر، والقضاء هو الموضع الكلي للأسباب الكلية الدائمة، والقدر هو توجيه الأسباب الكلية بحركاتها المقدرة المحسوسة إلى مسبباتها المعدودة، بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص، ولذلك لا يخرج عن قضائه وقدره شيء»[2] «سواء من العالم المحسوس أم عالم الغيب فالله سبحانه وتعالى إذ هو من عالم الغيب لا يمكن تكييفه أو تشبيهه أو رؤيته. إذ تاهت الألباب عن تكييفه وتحيرت العقول عن إدراكه، تفرد بعلم الغيوب فعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون»[3] فنحن إذن عاجزون عن الإحاطة بذات الله بل لا يجوز لنا البحث عن سر ذات الله. وإلى هذا يشير الإمام الأصفهاني حيث يقول:

«وغاية معرفة الإنسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات، جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة، ويعرف أثر الصنعة فيها وأنها محدثة، وأن محدثها ليس إياها ولا مثالها، بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع بقائه تعالى، ولا يصح بقاؤها وارتفاعه، وبهذا النظر قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام: «تفكروا في لا إله إلا الله ولا

---

(1) سورة فصلت، الآية: 12.

(2) الإمام الغزالي ـ المرجع السابق ص 98 ـ 99.

(3) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ـ «مفاهيم من كتاب العقل وفهم القرآن» ص 263.

تتفكروا في ذات الله». ولما كانت معرفة كنهه تصعب على الإنسان الواحد لقصور أفهام بعضهم واشتغال بعضهم بالضرورات التي يعرفها منهم جعل تعالى لكل إنسان من نفسه وبدنه عالماً صغيراً أوجد فيه مثال ما هو موجود في العالم الكبير، يجري ذلك من العالم مجرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر إلى السفر والليل والنهار، فإن نشط وتفرغ للتوسط في العلم، نظر في العالم الكبير الكتاب الكبير الذي هو الملكوت، ليغرز علمه ويتسع فهمه، وإلا فله مقنع بالمختصر الذي معه، ولهذا قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1] ولشرف متأملي ذلك قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[2]

وقال تعالى:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[3] فنبه بمدحهم حيث قالوا:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[4] إنهم عرفوا المقصود بخلقه[5].

وهكذا نجد أن معرفة ذات الله سبحانه وتعالى لا يمكن الإحاطة بها وما من أحد يستطيع أن يحيط بالله علماً إذ ليس كمثله شيء وهو من عالم الغيب قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[6].

وقال تعالى:

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 21.

(2) سورة الأعراف، الآية: 185.

(3) سورة آل عمران، الآية: 190 ـ 191.

(4) سورة آل عمران، الآية: 191.

(5) الراغب الأصفهاني ـ «الذريعة إلى مكارم الشريعة» ص 119 ـ 120.

(6) سورة طه، الآية: 110.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2].

وقال تعالى واصفاً نفسه بوحدة الإلوهية والربوبية وبتفرده بعلم الغيب وإحاطته به.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

هذه الصفات الخاصة بالله سبحانه وتعالى هي بالنسبة لنا من عالم الغيب ولا يمكن إدراك كنهها وحقيقتها. كما أن هناك مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى ولا كسب لأحد فيها مطلقاً وهي تقع في هذا الكون على وجه القسر والحتم كحركة الأفلاك والفصول، والنمو في النبات والحيوان والإنسان وحركة وظائف الأعضاء الذاتية التلقائية، وكذا حركة الروح والحياة والموت، كلها تتم بعلم الله وهي مخلوقة بقضائه وقدره ليس لأي إنسان عليها من سبيل. كذلك فإن ما خلقه وقضاه وقدره من عالم الآخرة من بعث، وصراط، وجنة ونار ومساءلة وعقاب أو ثواب، كلها تتم بأمره وقدرته وحكمته.

هذه العوالم والأشياء المخلوقة الحسية أو الغيبية أي سواء ما كان ماثلاً أمامنا أو ما كان غائباً عنا كلها خلقت بقدرته وقضائه وقدره ولا قبل لنا

(1) سورة الأنعام، الآية: 91.

(2) سورة الزمر، الآية: 67.

(3) سورة البقرة، الآية: 255

لإدراك كنهها، أو التحكم في حركاتها، إيقافها أو تسييرها، تغييرها أو تبديلها، أو إنشائها أو إعدامها. فهي جميعها من خلقه ومعرفته وعلمه وإحاطته عالم الغيب مخصص به ليس لأحد أن يطلع على غيبه لأن الأدلة السمعية والبصرية المخلوقة للإنسان مهيأة بطاقات محدودة بما يناسبها من الإحساس بالمعلومات أو المعارف أو المرئيات الدنيوية التي تدخل في مجالها مجال قدرتها وطاقاتها المزودة بها، أما ما يخرج عن هذه القدرات فلا قبل لها لرؤيتها أو سمعها، إذ إن السمع والبصر إذ يتم وقوعها في الدنيا إنما يتم باعتبارها انطباعاً بصورة المرئي في الحدقة إذا توافرت في المرئي الشروط التي تتناسب وقدرات الحدقة، أما رؤية الله سبحانه وتعالى مثلاً، فهي من الأمور الغيبية والتي لا تتم إلا بقدره وقضائه على الوجه الذي يشاؤه أو لا يشاؤه أو لمن يشاؤه سواء كانت الرؤية نفسية أو بصرية باعتبار أن الله عز وجل ليس جسماً ولا يحد بحد، كما لا تحده جهة فليس بوسع البصر البشري رؤيته لقوله تعالى:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(1)

فنفى الله سبحانه وتعالى أن يدركه أحد بالبصر، والإدراك بالبصر هو الرؤية ويستشهد المعتزلة على نفي رؤية الله سبحانه وتعالى، لأنه ليس في الأدلة السمعية ما يثبت أن العباد يرون الله سبحانه بل إن الإله يفيد نفي إمكانية رؤيته بقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾(2).

هذا ويلاحظ أن البحث في جواز رؤية الله تعالى أو عدم جوازها، وإن

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 103.

(2) سورة الأعراف، الآية: 143.

كان من الأمور الغيبية بيد أن إقرار الرؤية أو إنكارها لا يدخل في شمول العقيدة، لأن المساءلة خلافية، فبعضهم أنكر على العقول قبول جواز رؤية العباد ربهم، وهو رأى المعتزلة، بينما أجمع جمهور المسلمين وهم أهل السنة على أن ذلك مما يدخل في الممكنات، وأن الرؤية أعم من أن تكون انطباعاً لصورة المرئي في الحدقة، وإنما هي قوة يجعلها الله في الإنسان متى شاء وكيف شاء فيتم بها مشاهدة صورة المرئي على حقيقته. وأما الكيفية التي تحصل الرؤية بها اليوم فهي ليست إلا كيفية من كيفيات كثيرة كان الله عز وجل ولا يزال قادراً على ربط حقيقة الرؤية بما شاء منها، وبناءً على ذلك نقول: على الرغم من أن الله تعالى ليس جسماً، ولا هو متحيز في جهة ما من الجهات، فإن من الممكن أن ينكشف لعباده انكشاف القمر ليلة البدر كما ورد في الأحاديث الصحيحة وأن يروا ذاته رؤية حقيقية لا شبه فيها، وستحصل هذه الرؤية إن شاء الله بدون الشرائط التي لا بد منها للرؤية اليوم، وكما يقول الجلال الدواني؛ لا يلزم من كون تلك الشرائط شرطاً في إدراكنا في هذه النشأة كونها شرطاً في النشأة الآخرة فأهل السنة والجماعة يقولون بجواز رؤية الله بل إن الرؤية واجبة وثابتة بالسمع وقد وردت أدلة تثبت ذلك كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[2].

وهذه عقوبة لغير الصالحين. أما الصالحون فيرون ربهم تكريماً لهم. وعلى هذا أجمع عامة الصحابة على وقوع الرؤية في الآخرة[3] ومع ذلك فقد اختلف أهل السنة والجماعة على أنه هل دل السمع على وقوع الرؤية أم إمكان وقوعها لأحد الناس في الدنيا؟ فمنهم من قال إنه لم يرد السمع إلا بما يفيد على الرؤية في الآخرة فقط، وأن الذي جاء به السمع هو امتناع رؤية أحد الناس ربه قبل الموت. وذلك سنداً للحديث، فقد روى البخاري

---

(1) سورة القيامة، الآية: 22 ـ 23.

(2) سورة المطففين، الآية: 51.

(3) سعيد البوطي ـ «كبرى اليقينيات الكونية ـ ص 170 وما بعدها.

وغيره عن مسروق قال قلت لعائشة رضي الله عنها، يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾[2].

ومن حدثك أنه يعلم ما في غدٍ فقد كذب. ثم قرأت:

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[3].

ومن حدثك أنه كتم فقد كذب وقرأت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[4].

ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين.

هذا وذهب الأكثرون إلى أنه قد دل السمع على جواز رؤية الله تعالى في دار الدنيا. ومن هذا الرأي عبد الله بن عباس رضي الله عنه ومعه جمهور الصحابة، ومن أهم أدلتهم حديث الإسراء والمعراج وقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[5].

وهكذا نجد أن هذه المسألة تدخل في شمول الغيبيات، ويروي الربيع رحمه الله أنه كان عند الشافعي وجاءه كتاب من الصعيد يسأل فيه كاتبه عن

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 103.

(2) سورة الشورى، الآية: 51.

(3) سورة لقمان، الآية: 34.

(4) سورة المائدة، الآية: 67.

(5) سورة الإسراء، الآية: 60.

قوله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1] فكتب لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضى، فقال له الربيع، أو تدين بهذا يا سيدي؟ فقال والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا[2].

وخلاصة القول أنه كيفما كان أمر رؤية الله سبحانه وتعالى سواء كانت محققة في الدنيا أو في الآخرة ممكنة أو غير ممكنة، فهي من الأمور الغيبية التي لا يخرج الإيمان بها عن عقيدة المسلم باعتبار أن المسألة خلافية عند الصحابة[3]. كما أن الرؤية هل هي رؤية نفسية أو بصرية، وهل هي في الدنيا أم في الآخرة أمور تعتبر من الغيبيات التي لم يكن لدينا عليها دليل حسي، ذلك أن عالم الغيب منفرد به الله سبحانه وتعالى، حتى إن الرسول محمد ﷺ قد تبرأ من علم الغيب وقد أعلن عدم علمه به إلا بما يعلمه الله جل شأنه به، إذ لا يملك الرسول ﷺ لنفسه جلب المنفعة أو النجاة من الضر إلا بما شاء الله رب العالمين، وعلى هذا فقد كان متقيداً باتباع الوحي وقد قال تعالى على لسان محمد ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[4]

وقال تعالى:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[5].

---

(1) سورة المطففين، الآية: 15.

(2) السبكي ـ «الطبقات الكبرى» ج 1، ص 81.

(3) البوطي ـ المرجع السابق ص 172 وما بعدها.

(4) سورة الأنعام، الآية: 50.

(5) سورة الأعراف، الآية: 188.

وعلى هذا فإن علم الغيب ومعرفته أو الإحاطة به أمر مقصور على ذات الله سبحانه وتعالى وفيه يدخل كل ما لا طاقة لنا به لإدراكه كحقيقة الموت، وعذاب القبر، واليوم الآخر، والبعث ومفهومه وهل هو إيجاد ثان أم أنه إيجاد كالأول. كل هذه الأمور، ما علينا إلا أن نسلم بما أعلمنا الله عنها كما قد أعلمنا أنه سبحانه وتعالى بعلمه الغيب وقدرته أنه الباعث هو، والبعث أثر من أمور الغيب الهامة وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحيي الخلق يوم النشور ويبعث من في القبور ويحصل ما في الصدور، والبعث هو النشأة الآخر. ومعرفة هذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث وذلك من أغمض المعارف وأكثر الخلق منه على توهمات مجملة وتخيلات مبهمة وغايتهم فيه تخيلهم أن الموت عدم والبعث إيجاد مبتدأ بعد عدم مثل إيجاد الأول، فظنهم أن الموت عدم غلط، وظنهم أن الإيجاد مثل الإيجاد الأول غلط، فأما ظنهم أن الموت عدم فهو باطل، بل القبر إما حفرة من حفر النيران، أو روضة من رياض الجنة، والميت إما من السعداء وأولئك ليسوا: ﴿أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(1).

وأما من الأشقياء وهم أيضاً أحياء ولذلك ناداهم رسول الله ﷺ في وقعة بدر وقال: «إني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» ثم لما قيل له: «كيف تنادي قوماً قد جيفوا» قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا». والمشاهدة الباطنة دلت أرباب البصائر على أن الإنسان خلق للأبد وأنه لا سبيل عليه للعدم، تارة يقطع تصرفه عن الجسد فيقال: مات، وتارة يعاد إليه فيقال: أحيي وأبعث، أي أحيي جسده. ويستمر الإمام الغزالي رحمه الله في شرح مفهوم الباعث والبعث فيقول: وأما ظنهم أن البعث ليس إيجاداً ثانياً وهو مثل الإيجاد الأول فغير صحيح، بل أن البعث إنشاء آخر، لا يناسب الأول أصلاً. وللإنسان نشآت كثيرة، وليست هي نشأتين فقط، ولذلك قال تعالى:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 169 ـ 170.

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد بين الله سبحانه خلق المضغة والعلقة في نشآت عديدة متسلسلة، فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2].

وهكذا نجد أن النطفة نشأة من التراب والعلقة نشأة من النطفة، والمضغة نشأة من العلقة، والروح نشأة من المضغة ولشرف نشأة الروح وجلالته وكونه أمراً ربانياً قال عند ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[3].

ثم خلق الإدراكات الحسية بعد خلق أصل الروح نشأة أخرى، ثم خلق التمييز الذي يظهر بعد سبع سنين نشأة أخرى، ثم خلق العقل بعد خمس عشرة سنة وما يقاربها نشأة أخرى. وكل نشأة طور. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[4] ثم ظهور خاصية النبوة بعد ذلك نشأة أخرى، وهي نوع من البعث والله سبحانه وتعالى باعث الرسل، كما أنه الباعث يوم القيامة[5].

وهكذا نجد أن هذه النشآت العديدة تنتهي بالموت.

فقال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾[6] هذا الموت ليس أبدياً وأنه لا سبيل

---

(1) سورة الواقعة، الآية: 61.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 14.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 14.

(4) سورة نوح، الآية: 14.

(5) الإمام الغزالي ـ «القصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص 133 ـ 135.

(6) سورة المؤمنون، الآية: 15.

للإنسان عليه للعدم بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[1].

هذه الأمور من عالم الغيب فما هي القيامة حقيقتها وماهيتها؟ زمانها ومكانها؟ كلها أمور تقع في شمول عالم الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى، لأن الإنسان يعسر عليه فهم هذه الأمور بإدراكاته الدنيوية. وما عليه إلا التسليم والإيمان بها. وأن إدراكها ليس بشرط للإيمان بها لأن عدم بلوغ الإنسان لشيء ما لا يعني أنه غير موجود. ولهذا دعا الإمام الغزالي إلى وجوب الإيمان بالأمور الغيبية معتمداً في البرهان على وجودها أسلوب التحليل المنطقي والتدرج في الإدراكات فما لم يدرك يعتبر من عالم الغيب، ولا يعني أنه عدم، لأن كل المعلومات والإدراكات المتدرجة التي كانت عدماً أو غائبة عن الإنسان قد تضحى ظاهرة وثابتة عنده إذا تقدمت إدراكاته ثم يخلص إلى أن غياب الشيء عن إدراك الإنسان لا يمكن أن يكون مبرراً لإنكاره للشيء لأن إدراكات البشر إنما تتم تبعاً لطاقات متدرجة في الرقي والقدرة، فما كان بالأمس غائباً عن الإدراك يضحى معلوماً بعده فيقول:

«وكما أنه يعسر على ابن المهد فهم حقيقة التمييز قبل حصول التمييز، ويعسر على المميز فهم حقيقة العقل وما ينكشف في طوره من العجائب قبل حصول العقل، فكذلك يعسر فهم طور الولاية والنبوة في طور العقل، فإن الولاية طور كمال وراء نشأة العقل، كما أن العقل طور كمال وراء نشأة التمييز، والتمييز طور وراء نشأة الحواس، وكما أن من طباع الناس إنكار ما لم يبلغوه ولم ينالوه، حتى إن كل واحد ينكر ما لم يشاهد ولم يحصل له، ولا يؤمن بما غاب عنه. فمن طباعهم إنكار الولاية وعجائبها، والنبوة وغرائبها، بل من طباعهم إنكار النشأة الثانية والحياة الآخرة لأنهم لم يبلوغها بعد. ولو عرض طور العقل وعالمه وما يظهر فيه من العجائب على المميز لأنكره وجحده وأحال وجوده فمن آمن بشيء لم يبلغه، فقد آمن بالغيب،

(1) سورة المؤمنون، الآية: 16.

وذلك مفتاح السعادات.

وكما أن طور العقل وإدراكاته ونشأته بعيد المناسبة عن الإدراكات التي قبله فكذلك النشأة الآخرة. بل أبعد، فلا ينبغي أن تقاس النشأة الآخرة بالأولى، وهذه النشآت هي أطوار ذات واحدة ومراقيها التي تصعد فيها إلى درجات الكمال، حتى تقرب من الحضرة التي هي منتهى كل كمال، وتكون عند الله عز وجل بين رد وقبول وحجاب ووصول فإن قبل رقى إلى أعلى العليين، وإلا رد إلى أسفل السافلين.

والمقصود الآن أن لا مناسبة بين النشأتين إلا من حيث الاسم ومن لم يعرف النشأة والبعث لم يعرف الباعث. ثم يقول منبهاً إلى أن حقيقة البعث ترجع إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأة أخرى[1].

وعلى هذا فإن الله سبحانه وتعالى العالم بقضائه وقدره، والخالق لعالم الغيب والشهادة والمالك ليوم الدين يعلم ما خفي وما بطن، ولا تخفى عليه خافية، فهو يرى ويعلم كل غيب مجهول فيجسد منه حقائق بارزة ونماذج ظاهر أثرها للعيان، كتخلق المولود في رحم الأنثى بدءاً من أول مرحلة إلى آخرها.

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾[2]. هذا العلم الدقيق لما ينقصه الرحم أو يزيده في الجنين المخلوق أو في مدة حمله له، يدل دلالة واضحة على قدرة الله ودقته في نطاق خلقه فكل شيء عنده بمقدار فليس ما قد يتخلق في الرحم من شتى المخلوقات وما يعتريه من تطور في الجثة تبعاً للزمن إنما يتم مصادفة أو نتيجة اضطراب تلقائي أو تحول ذاتي بل كل شيء يسير بنظام شامل دقيق تبعاً لمشيئته سبحانه وتعالى، فالله عز وجل عالم الغيب يعلم ما خفي وما بطن وما لا يقع تحت إدراك شتى الحواس، كما يعلم ما يظهر وما

(1) الإمام الغزالي - المرجع السابق ص 135 - 136.

(2) سورة الرعد، الآية: 8.

يقع ويخضع لحاسة ما، وما يشاهد إطلاقاً، فهو العليم إذن ببواطن الأمر وخفاياها وهو الخبير بها كما هو العليم بالأمور الظاهرة، والشهيد على الخلق يوم القيامة بما علم وشاهد منهم فالله العالم بكل شيء ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[2] فعالم الغيب والشهادة رب العالمين رفيع الدرجات ذو العرش العظيم خلق الناس وخلق عالم الغيب وأمر بالإيمان به فلم يترك الناس سدى فهم محاسبون على أعمالهم يوم التلاق فقال تعالى في وصفه لصفات الربوبية:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[3].

وقال تعالى مؤكداً يوم القيامة يوم يتلاقى الناس مع ما قدموه من أعمال ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[4].

هذا اليوم هو من عالم الغيب، وهو اليوم الذي تجزى كل نفس بما كسبت بحيث تحاسب تبعاً لأعمالها قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[5].

هذا اليوم هو من عالم الغيب يتجلى الله فيه على عباده ويحاسب

---

(1) سورة الرعد، الآية: 10.

(2) سورة طه، الآية: 7.

(3) سورة غافر، الآية: 15.

(4) سورة غافر، الآية: 16.

(5) سورة غافر، الآية: 17.

الناس بما كسبوا فتشهد عليهم أعمالهم بقدرة العليم بالظاهر والباطن الذي يعلم ما خفي وما بطن من الأمور فهو الظاهر الذي يمكن معرفته عن طريق آثاره بالإضافة إلى إدراك العقل بطريق الاستدلال فيكون ظاهراً من وجه بالإضافة إلى الإدراك، كما ويكون الله هو الباطن من وجه آخر. فالظهور والبطون يكونان بالإضافة إلى الإدراكات فإذا كان الله ظاهراً بالنسبة لآثاره المخلوقة فهو الباطن بالإضافة إلى الحواس التي لا يمكن إدراكه عن طريقها أو عن طريق الخيال أو التصور، أما كونه ظاهراً للعقل فهذا أيضاً غامض لأن الظاهر لا يختلف الناس في إدراكه علماً أن هذا قد وقع فيه عند الناس كثير من الريب لهذا فقد تساءل الإمام الغزالي، كيف يكون ظاهراً؟ فأجاب على تساؤله بقوله: **«فاعلم أنه إنما خفي مع ظهوره لشدة ظهوره، فظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره، وكل ما جاوز حده انعكس على ضده**[1] ويوضح الإمام الغزالي قوله هذا بمثال فيقول لو نظرت إلى كلمة واحدة كتبها كاتب لاستدللت بها على كون الكاتب عالماً قادراً سميعاً بصيراً واستفدت منه اليقين بوجود هذه الصفات، ولحصل لك يقين قاطع بوجود كاتب لها عالم، قادر، سميع، بصير، حي ولم يدل عليه إلا صورة كلمة واحدة، وكما تشهد هذه الكلمة شهادة قاطعة بصفات الكاتب، فمن البديهي إذن أن ندرك أن عالم الغيب والشهادة مستدل على وجوده بما خلقه ودبره وقضاه وقدره بدقة محكمة مرتبة، فما من ذرة في السموات والأرض من فلك وكواكب ونجوم وشمس وقمر وحيوان ونبات وصفة وموصوف إلا وشاهدة على نفسها بأنها ليست ذاتية الخلق إنما قامت بمدبر دبرها وقدرها وخصها بصفات وقدرات تتناسب وطبيعتها من حركة أو سكون، كذلك الشأن بالنسبة للأعضاء الحية فلو نظر الإنسان إلى أي عضو من أعضائه أو إلى أي جزء من أجزائه ظاهراً باطناً، بل لو نظر إلى أي صفة من صفاته أو أي حالة من حالاته التي تجري عليه قهراً كل هذه تشهد بما لا يقبل الشك أن هناك خالقاً لها محركها ومدبرها. وهذا ينطبق أيضاً على كل ما يدركه الإنسان من موجودات سواء عن طريق حواسه أوعن طريق إيمانه وعقيدته،

---

(1) الإمام الغزالي ـ المرجع السابق ص 147.

وعلى هذا يتقرر أن الله سبحانه وتعالى لا يتصور فيها العدم أو الغيبة عن أي ذرة أو جزئية في هذا الكون سواء في الدنيا أو في الآخرة فلا يغيب شيء عنه، وإلا لانهدمت السموات والأرض كلما انقطع نوره عنها. وهذا دليل على الجزم بوجوده قطعاً ظاهراً وباطناً فهو الظاهر الذي لا أظهر منه وهو الباطن الذي لا أبطن منه فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره وخفي عليهم بشدة ظهوره. فهو المستدل على وجوده من سلسلة الموجودات وترتيبها سواء ما كانت في الدنيا أو هي قائمة في الآخرة كلها من صنعه وأنه سبحانه وتعالى بالنسبة إلى كل موجود هو الأول وأن الموجودات استفادت منه وأنه لم يستفد منها وأنه موجود بذاته عالم وعارف بمخلوقاته، محاسبهم في الآخرة بما عملوا فيما علموا به إذ إن كل معرفة تحصل للإنسان مضافة ومرقاة إلى معرفة الله إذ الغاية القصوى معرفة الله خالق الكون وعالم الغيب بقضائه وقدره بنظام شامل دقيق قدره وأحسن تقديره، فهو الأول والآخر منه المبدأ وإليه المرجع والمصير. ينفذ مشيئته كيف شاء وكما شاء إيجاداً وعدماً وإبقاءً وإفناءً. إنه على كل شيء قدير.

اليـوم الآخـر

الباب الثاني

الفصل الأول

اليوم الآخر في القرآن

اليوم الآخر[1] يدخل هذا المفهوم في شمول عالم الغيب والإيمان به ركن من أركان الإيمان عامة وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالغيب بأنهم هم على هدى من ربهم وأنهم مفلحون إذ قال:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[2] أي يعترفون به ويثقون أنه الحق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3].

كما وصف الله تعالى، المؤمنين بالآخرة بأنهم أيضاً على هدى من ربهم فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4].

فالآخرة الواردة في هذه الآية صفة للدار الآخرة وهي الدار المتأخرة

---

(1) آخر: يقابل به الأول، وآخر يقابل به الواحد، ويعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية كما يعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى نحو: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ وربما ترك ذكر الدار نحو قوله: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ وقد توصف الدار بالآخرة تارة وتضاف إليها تارة أخرى: ﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون ولأجرُ الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ وتقدير الإضافة دار الحياة الآخرة. الراغب الأصفهاني ـ «المفردات في غريب القرآن» ص 3، دار المعرفة.

(2) سورة البقرة، الآية: 3.

(3) سورة البقرة، الآية: 5.

(4) سورة البقرة، الآية: 4 ـ 5.

عن الدنيا، فالمؤمنون بالآخرة هم المتيقنون من وجودها وما فيها من الحساب وما يقتضيه هذا الحساب من ثواب أو عقاب. كما أن الإيمان بالآخرة يتحقق بمجرد الإيمان بالله بأنه هو خالق كل شيء وأنه خالق النشأة الأولى فمن آمن بخلق هذه النشأة لا يسوغ له أن ينكر النشأة الآخرة. التي يتم فيها البعث والنشور. بهذا الإيمان باليوم الآخر يقتضي معرفة مصدر هذا العالم ومصيره، هذه المعرفة هي التي تهيىء للإنسان إدراك حقيقته وحقيقة الدنيا وأنها ليست بدار قرار، وأن الإنسان فيها مرتحل إلى دار الآخرة، فمن علم هذا يستطيع أن يحدد أهدافه، ويسوي سلوكه ويعمل في الدنيا من أجل الآخرة، فيعمل لخيره وصلاحه وصلاح المجتمع، مراقباً أعمال نفسه سالكاً بها طريق الخير، عالماً أن الحياة دون غاية خيرة إنما هي حياة حيوانية، لهذا يتخذ الأسباب والذرائع التي تحقق له الهدف الأسمى، فيعمل بما يؤمر في شرع الله ويتجنب ما ينهى عنه، فيعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً.

كل هذا ليحقق إنسانية الإنسان، التي حددت الشريعة الإسلامية معالمها. ولا شك أن هذا السلوك يقتضي الاستمرار في اتباع ما أمر الله به ونهى عنه. وهذا ما يجعله مؤمناً بأنه لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً ولم يترك سدى. ومن البديهي أن من يؤمن بالله يؤمن باليوم الآخر، بمعنى أنه يؤمن بالبعث وبوعد الله ووعيده، بثوابه وعقابه. وهذا هو الاستدلال الواضح على وجوب اتباع الأمر والنهي، إذ ليس من المعقول أن من يؤمن بأوامر الله ونواهيه أن لا يؤمن بوعده ووعيده «فحكم صريح العقل بأن ذلك غير جائز، لأنه إن لم يقرن الأمر بالوعد والثواب، ولم يقرن النهي بالوعيد بالعقاب لم يتأكد الأمر والنهي، ولم يحصل المقصود، فثبت أنه لا بد من وعد ووعيد فعلمنا أن لا بد من تحقيق الثواب والعقاب، ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالحشر والبعث، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[1].

ولا شك أن هذا متحصل بالعقل، لأن الله سبحانه وتعالى إذ خلق الإنسان، إنما خلقه لهدف عال، وغاية مثلى سامية، وهذا ما يتفق مع

(1) الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره ـ من الأدلة العقلية على الميعاد.

حكمة الله سبحانه وتعالى من خلقه لهذا الكون وما فيه من حياة وما سخره الله للإنسان إذ جعله خليفة في الأرض لتحقيق الرسالة البشرية السامية رسالة الخير رسالة الدين الحنيف. هذه الرسالة التي تهدف إلى أحقاق الحق والسعادة والتي بموجبها يتم التكليف وتترتب المساءلة التي يترتب عليها الحساب ويتحقق تبعاً له الثواب والعقاب يوم الآخرة.

قال تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾(1).

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى خلق الإنسان وبعثه يوم القيامة، فقال:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾(2).

هذه الآيات وغيرها مما ورد في القرآن الكريم تؤكد أن الله سبحانه وتعالى خالق الكون وما فيه وأنه إذ خلق الإنسان أوجب عليه الإيمان بالعقيدة الإسلامية وما تقتضيه من اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وهذا بالطبع يقتضي مساءلته عن تصرفاته وسلوكه من معاملات وعبادات وهذه المساءلة تقتضي وجود البعث الذي به يتحقق الحساب، فيتحقق الجزاء، سواء على اتباع الأمر أو مخالفة النهي.

هذه المقدمات متسلسلة ومتعلق بعضها ببعض فمتى صح بعضها صح كلها، فوجود لهذا الكون ومشاهداتنا لتغييراته يدل على أن الكون حادث، وحدوث العالم يدل على وجود محدث له، وهو الصانع، وهذا يدل على

(1) سورة المؤمنون، الآية: 115 ـ 116.

(2) سورة القيامة، الآية: 36 ـ 40.

وجود الأمر والنهي الذي يقتضي حتماً وجود الثواب والعقاب، يوم الآخرة.

هذا وقد ذكر الله اليوم الآخر في القرآن في آيات عديدة مشيراً إلى أهمية هذا اليوم وإلى أهمية الإيمان به وقد ربط اليوم الآخر بالإيمان بالله عز وجل وقرنه بما يفيد حصول المحاسبة عن الأعمال مما يتعين إدراك معرفة حقيقة هذا اليوم وتهيئة النفس في هذه الدنيا بما يخول لها ملاقاة هذا اليوم بكل طمأنينة وراحة مما تدعو هذه المعرفة ليوم الآخر لعمل البر والتزود بالتقوى، فمن تزود فلا خوف عليه قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(1).

فالإيمان باليوم الآخر أمر إلزامي بل هو ركن من أركان العقيدة يقتضي حض الناس عليه بل ومقاتلة من لا يؤمن به لأن إنكاره لوجود الله بل كفر به قال تعالى:

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾(2).

هذا والإيمان بالله يقتضي عبادته والعمل بأوامره ونواهيه. هذه العبادة هي الطريق بل هي أثر من آثار الإيمان باليوم الآخر فمن يؤمن باليوم الآخر يدرك أنه مساءل وبالتالي يدرك أنه مكلف، ومحاسب، على هذا التكليف لا سيما وأن اتباع التكليف يحقق السلوك الطيب والاستقرار والطمأنينة في هذه الحياة الدنيا التي تقتضي بطبيعتها وغايتها إقامة البر والعدل والإحسان. لهذا نجد أن الإيمان باليوم الآخر هو صمام الأمان لتحقيق السلوك الخير في الدنيا، فلولا الإيمان بالآخرة لعم الفساد في الدنيا وانتشر البغي ولأضحى

---

(1) سورة البقرة، الآية: 62.

(2) سورة التوبة، الآية: 26.

الناس في صراع وحشي بعيدين عن مكارم الأخلاق لا يردعهم رادع ولا يخيفهم سلطان. ولهذا حض القرآن على وجوب الإيمان بهذا اليوم وقد أكثر من ذكره وأعطى عنه صوراً عديدة تدل على هول هذا اليوم وما سيحدث فيه من أحداث مذهلة. كل هذا بأسلوب ترغيبي تارة وترهيبي تارة أخرى ليدرك الإنسان أعماله في هذه الدنيا ويراقب نفسه فيها ويخشى الله في تصرفاته طالما أنه محاسب يوم التلاقي. لهذا يكثر من عمل البر، قال تعالى مخاطباً عباده وواعظاً إياهم:

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(1).

وقال تعالى في تحديد مفهوم البر:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾(2).

وقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾(3).

هذا الاهتمام باليوم الآخر من قبل الله سبحانه وتعالى ووعظ الناس به يقتضينا معرفة حقيقة هذا اليوم ومفهومه مستدلين على ذلك بالقرآن الكريم لهذا يحسن بنا أن نستعرض بعض الآيات في مفاهيم اليوم الآخر وتسمياته المختلفة.

مفهوم اليوم الآخر:

المراد باليوم الآخر هو اليوم الذي تتبدل فيه الأرض غير الأرض فتشقق السماء وتتناثر النجوم وتتصادم الكواكب ويفنى العالم وتنتهي الحياة فيه وتبرز الناس للواحد القهار.

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 36.

(2) سورة البقرة، الآية: 177.

(3) سورة البقرة، الآية: 232.

قال تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1].

وإذا كان فناء العالم إشارة إلى قيام اليوم الآخر وبعث الناس ومحاسبتهم على ما عملوا من خير أو شر، فمن غلب عليهم الخير أدخلهم الله الجنة ومن غلب شرهم على خيرهم أدخلهم النار، فإن هذا المفهوم لليوم الآخر سماه القرآن بأسماء مختلفة ومتعددة كل واحد منها يدل على هول هذا اليوم فقد ورد من أسماء اليوم الآخر يوم القيامة.

يوم القيامة:

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[2].

والقيامة عبارة عن قيام الساعة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 48.

(2) سورة الزمر، الآية: 60. وردت القيامة في القرآن سبعين مرة والقيامة مصدر من قام يقوم والقيام في اللغة هو الوقوف والثبات وقد جاءت من هذا المعنى الإقامة بالمكان بمعنى لزومه والدوام فيه ومن معنى الثبات توسع في استعمال «قام» فاستعمل بمعنى طفق وقد جاء معنى «قام» في مواضع عدة من القرآن بمعنى حسّي محض، كما استعمل قام مقامه بمعنى ناب عنه ومع ذلك وردت آيات تفيد في استعمال لفظ قام المعنى المعنوي فقد ورد قوله تعالى: ﴿إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا الله مثنى وفرادى﴾ [سورة سبأ، الآية: 46]. ويقول الإمام الزمخشري في تفسير القيام هنا أنه «القيام الذي لا يرد به المثول على القدمين ولكنه الانتصاب في الأمر والنهوض له بالهمة». وجاء القيام بمعنى الرعاية والمحافظة في موضعين من القرآن قال تعالى: ﴿وإن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ [سورة النساء، الآية: 127].

وجاء القيام بمعنى العزم على الشيء وللتهيؤ له قال تعالى: ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السمٰوات والأرض لن ندعو من دونه إلٰهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾ [سورة الكهف، الآية: 14]. ومع ذلك فإن أكثر استعمال القيام بالمعنى الحسيّ استعمل في الصلاة والعبادة، وإذا تتبعنا الفعل ومزيده في القرآن نلاحظ أيضاً أنه استعمل في المعنويات. الراغب الأصفهاني - «المفردات في غريب القرآن» ص 417، دار المعرفة، بيروت.

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾[1]. ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2] ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾[3] والقيامة أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دفعة واحدة أدخل فيها الهاء تنبيهاً على وقوعها دفعة.

وإذا تتبعنا المعاني الواردة في القرآن لمدلول يوم القيامة نجد أنها جميعها تشير إلى أنها من الغيب أن جميع الأديان متفقة على وجوب الإيمان بها وأنها واقعة لا ريب فيها.

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[4].

هذا ولا بد للإنسان من الاستعداد لها باعتبارها محققة بعدت أو قربت، وأن جميع أحداثها ووقائعها تدخل في نطاق ما وراء الطبيعة سواء ما يتعلق بالموت أو ما يخص الحساب أو العذاب أو الروح أو الجنة ولأهميتها فقد خص الله سبحانه وتعالى سورة خاصة باسمها وأطلق صفاتها على سور أخرى كسورة الواقعة. وسورة التغابن، وسورة الزلزلة، وسورة القارعة، بل أجرى القسم المؤكد باسمها بقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[5].

هذا ويوم القيامة يسمى تسميات أخرى. فقد جاء مسنداً إلى الساعة مجازاً:

قال تعالى:

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[6].

---

(1) سورة الروم، الآية: 12.
(2) سورة المطففين، الآية: 6.
(3) سورة الكهف، الآية: 36.
(4) سورة النساء، الآية: 87.
(5) سورة القيامة، الآية: 1.
(6) سورة الروم، الآية: 12.

كما جاء مسنداً هذا اليوم إلى الحساب قال تعالى:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[1].

وقال تعالى في إسناد هذا اليوم إلى الأشهاد:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[2].

وقال تعالى في إسناد هذا اليوم إلى الروح والملائكة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[3]. وقال تعالى في إسناد هذا اليوم إلى الناس:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]. أي يوم التوجه إلى رب العالمين كل هذه الصور والمعاني تعني اليوم الآخر.

ولأخذ صورة واضحة عن يوم القيامة يحسن تتبع اشتقاق الكلمة ومعناها في القرآن الكريم. فقد جاءت تفيد أحداثاً عديدة منها:

1 ـ الغاية:

قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[5].

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 41.

(2) سورة غافر، الآية: 51.

(3) سورة النبأ، الآية: 38.

(4) سورة المطففين، الآية: 6.

(5) سورة المائدة، الآية: 14.

وقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

وقد تكون يوم القيامة ظرفاً للحشر أو ما في معناه:

قال تعالى:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[2].

قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[3].

قال تعالى:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[4].

3 ـ القيامة ظرف تفيد قدرة الله سبحانه:

قال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 55.

(2) سورة الإسراء، الآية: 97.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 16.

(4) سورة الإنعام، الآية: 12.

(5) سورة الزمر، الآية: 67.

4 ـ القيامة تفيد إقامة الميزان وإخراج الكتب والحساب ووفاء الأجور عن الأعمال:

قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[3].

5 ـ القيامة تكون للأنباء عن الأعمال من قبل الله سبحانه العليم بكل شيء:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 185.

(2) سورة الإسراء، الآية: 13 ـ 14.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 47.

(4) سورة المجادلة، الآية: 7.

6 ـ القيامة تكون لبيان فيما اختلف فيه الناس

قال تعالى:

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

7 ـ القيامة يوم حمل الأوزار وما يدل على الذنب:

قال تعالى:

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[2].

قال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ﴾[4].

8 ـ القيامة يوم الحكم بين الناس:

وقال تعالى:

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[5].

وقال تعالى:

---

(1) سورة النحل، الآية: 92.

(2) سورة طه، الآية: 100 ـ 101.

(3) سورة آل عمران، الآية: 180.

(4) سورة آل عمران، الآية: 161.

(5) سورة البقرة، الآية: 113.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾(1).

9 ـ القيامة يوم لا يفيد الاعتذار أو التذرع بالغفلة أو المجادلة عنهم في الدنيا:

قال تعالى:

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(2).

وقال تعالى:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا﴾(3).

10 ـ يوم القيامة يوم تخاصم الكفار وتكفيرهم بعضهم بعضاً:

قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا﴾(4).

وقال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾(5).

11 ـ يوم القيامة يوم شهيد على أهل الكتاب:

(1) سورة النساء، الآية: 141.
(2) سورة الأعراف، الآية: 172.
(3) سورة النساء، الآية: 109.
(4) سورة العنكبوت، الآية: 25.
(5) سورة الزمر، الآية: 31.

قال تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

12 - يوم القيامة يطلب فيه افتداء العذاب فلا يقبل:

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

13 - يوم القيامة يوم المكافأة والإثابة والطيبات لمن آمن في الحياة الدنيا:

قال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾[3].

14 - يوم القيامة يوم يرفع المؤمنون مقامهم فوق الذين كفروا:

قال تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾[4].

---

(1) سورة النساء، الآية: 159.

(2) سورة المائدة، الآية: 36.

(3) سورة الأعراف، الآية: 32.

(4) سورة البقرة، الآية: 212.

15 ـ يوم القيامة يوم الأمن للذين آمنوا ويوم خزي وعذاب للذين كفروا:

قال تعالى:

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[3].

16 ـ يوم القيامة يوم العذاب لمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، أو لمن يكتم ما أنزل الله من الكتاب:

قال تعالى:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾[4].

وقال تعالى:

(1) سورة فصلت، الآية: 40.

(2) سورة القصص، الآية: 41 ـ 42.

(3) سورة الحج، الآية: 9.

(4) سورة البقرة، الآية: 85.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

17 ـ يوم القيامة يوم السوء والخزي على الكافرين وعلى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وجهنم مثوى لهم:

قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[3].

18 ـ يوم القيامة يعتبر الخسران فيه خسراناً للنفس والأهل:

قال تعالى:

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾[4].

19 ـ يوم القيامة يسمى بيوم الدين:

وقد جاءت هذه التسمية في القرآن في اثني عشر موضعاً وقد تشعبت كلمة الدين في معناها، فالدين يعتبر القهر والغلبة، والدين الإسلام، وقد دنت به، والدين العبادة، والدبن الملة والورع، والدين العادة، والدين

---

(1) سورة البقرة، الآية: 174.

(2) سورة النحل، الآية: 27.

(3) سورة الزمر، الآية: 60.

(4) سورة الزمر، الآية: 15.

الحال، والدين القضاء، والدين السلطان والملك والحكم، والسيرة والتدبير، والدّيْن ما له أجل، والدين الموت. واشتقت منها الديان القهار، والقاضي، والحاكم والسائس، والحاسب، والمجازي الذي لا يضيع عملاً بل يجزي بالخير والشر ودنته أدينه ملكته. وتورد دائرة المعارف الإسلامية تحت لفظ دين أنها:

1 ـ دين تفيد معنى الحكم.

2 ـ دين تفيد معنى العادة والطريقة.

3 ـ دين تفيد معنى Religion بمعنى الديانة.

ويبدو لنا أن من الدينار يأتي معنى العادة وهي مجموعة من الطقوس والعادات وهذه في الأصل تفيد معنى الخضوع التي منها انتقل إلى معنى العبادة في الديانة.

قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(2).

فكلمة دين إذن أدت إلى معانٍ كثيرة في القرآن لاحظنا أن معانيها متعددة فهي إلى جانب أنها تفيد معنى الحكم والجزاء في سبعة مواضع كقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾(3).

وقوله تعالى:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 29.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 65.

(3) سورة الذرايات، الآية: 6.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾[2]. وكذا في سورة النور الآية 25. وكذا في سورة التين الآية: 7. فقد جاءت كلمة الدين أيضاً تفيد المحاسبة والجزاء في موضعين من القرآن.

قال تعالى:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾[4]. أما فيما تفيد كلمة يوم الدين القيامة فقد وردت في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[5].

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[6].

وقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾[7].

وكذا قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[8].

وكذا في سورة الانفطار الآية 17 و18 وكذا في سورة المطففين الآية

---

(1) سورة الانفطار، الآية: 9.
(2) سورة الماعون، الآية: 1.
(3) سورة الصافات، الآية: 53.
(4) سورة الواقعة، الآية: 86.
(5) سورة الصافات، الآية: 20.
(6) سورة المعارج، الآية: 26.
(7) سورة الانفطار، الآية: 14 ـ 15.
(8) سورة الذاريات، الآية: 5 ـ 6.

11، وكذا في سورة المدثر الآية: 46، وكذا في سورة الواقعة الآية 56، وكذا في سورة الحجر الآية 35 إلخ..

20 - يوم القيامة يوم الحساب والمساءلة ويوم طلب الغفران حيث ينشر كتاب الإنسان له شاهداً على أعماله فيحاسب بها:

قال تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[2].

21 - يوم القيامة يوم لا يشفع فيه للإنسان نسب ولا حسب ولا مال ولا بنون وإنما تجزى كل نفس بما كسبت.

قال تعالى:

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ﴾[5].

وقال تعالى:

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 13.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 41.

(3) سورة الممتحنة، الآية: 3.

(4) سورة الشعراء، الآية: 88.

(5) سورة لقمان، الآية: 33.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1].

22 ـ يوم القيامة يرد بالنسبة للكافرين مورد الاستفهام الإنكاري وظرفاً لاستفهام تعجبي عن حال الكفار.

قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3].

هذه بعض الصور والوقائع أو الأحداث أو الحالات عن يوم القيامة، ولا يسعنا في هذا البحث أن نستتبع جميع الصور التي وردت في القرآن إذ تكاد لا تخلو سورة من التصوير لهذا اليوم، أو الإشارة إليه، أو الحديث عنه. فقد تكرر لفظ يوم القيامة في القرآن كما قلنا سبعين مرة وفي جميع استعمالات هذا اليوم إنما استعمل للدلالة على أهميته وامتداد زمانه، فهو ممتد إلى أن يحق الحق فيدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. فيوم القيامة وما أوتي به من معانٍ حسية أو معانٍ نفسية أو معنوية كلها تدخل تحت هذا المدلول وهو يوم القيامة سواء سمي بيوم الحشر أم يوم البعث أم يوم الحساب أم يوم الدين والحكم أم مجازاة الناس بما عملوا أم في رفعتهم وإخزائهم، كلها ترمي إلى غرض واحد، وهو إعلام الناس أن ما يعملونه في حياتهم الدنيا محصىً عليهم يعلمه الله وهو الشهيد على كل شيء وأنه يستتم لقاء الخلق بربهم جل شأنه في هذا اليوم قال تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

فالقيامة إذن لا بد من قيامها بأمر الله وتقديره جل شأنه حيث يقول الله

---

(1) سورة غافر، الآية: 17.

(2) سورة القيامة، الآية: 6.

(3) سورة يونس، الآية: 60.

(4) سورة البقرة، الآية: 223.

كن فيكون قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

كل هذا من أجل أن يدرك الإنسان أن دار الدنيا ليست بدار البقاء إنما هي دار ارتحال فيعمل فيها دون تهاون أو إهمال أو انصراف عن أوامر الله أو نواهيه فيعبد الله ويحسن للناس ويعدل في تعامله معهم ويعلم أن المرء مجازى بما كسبت يداه فيسأل عن أعماله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) كما ويعلم أنه ميت، فيدخر من دنياه لآخرته عملاً يرضى به ربه ويدرك أن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه، حيث يرفع الله فيه أقواماً بأعمالهم الصالحة ويخفض أقواماً بأعمالهم السيئة فما على الإنسان إذن إلا أن يستجيب لربه إذ لا مرد لأمر الله قال تعالى:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[2].

هذا بالنسبة لاستعمال لفظ يوم القيامة ومع ذلك نجد أن القرآن الكريم سمى هذا اليوم أي يوم القيامة بأسماء أخرى تدل عليه منها الساعة. فسميت القيامة بالساعة.

الساعة:

سميت القيامة الساعة في أربعين موضعاً في القرآن في آيات عديدة من السور، حيث استعملت الساعة في القرآن في ثمانية مواضع بمعنى الجزء من النهار والليل.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

(1) سورة الأنعام، الآية: 73.

(2) سورة الشورى، الآية: 47.

يَسْتَقْدِمُونَ﴾(1). وقد وردت الساعة في مكان واحد من القرآن بمعنى الجزء اليسير من الزمن أو الزمن على وجه الإطلاق قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾(2).

هذا أما عن استعمال القيامة بمعنى الساعة(3) غير الزمن فقد وردت في آيات عدة بمدلولات ومعانٍ مختلفة وهي في جميع الأحوال مقدمة من

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 34.

(2) سورة التوبة، الآية: 117.

(3) جاء في «اللسان» أن الساعة بالمعنى الزمني تطلق في الأصل بمعنيين:
أحدهما: أن تكون عبارة عن أربعة وعشرين جزءاً هي مجموع اليوم والليلة.
الثاني: أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار والليل.
ويقول الراغب الأصفهاني: الساعة جزء من أجزاء الزمان ويعبر به عن القيامة قال: ﴿اقتربت الساعة﴾ [سورة القمر، الآية: 1]، ﴿ويسألونك عن الساعة﴾ [سورة النازعات، الآية: 42] ﴿وعنده علم الساعة﴾ [سورة الزخرف، الآية: 85] تشبيهاً بذلك بشرعة حسابه كما قال ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ [سورة الأنعام، الآية: 62] أو لما نبه عليه بقوله: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحاها﴾ [سورة النازعات، الآية: 46] ﴿ولم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار﴾.
والثانية: الوقت القليل من الزمان، وقيل: الساعات التي هي القيامة ثلاث:
الساعة الكبرى: وهي بعث الناس للمحاسبة.
الساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد وذلك ما روي أنه رأى عبد الله بن أنيس فقال: «إن يطل عمر هذا الغلام لم يمت حتى تقوم الساعة» فقيل: إنه آخر من مات من الصحابة.
والساعة الصغرى: وهي موت الإنسان فساعة كل إنسان موته وهي المشار إليها بقوله: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ [سورة الأنعام، الآية: 31]، ومعلوم أن هذه الحسرة تنال الإنسان عند موته لقوله: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجر قريب فأصدق﴾ [سورة المنافقون، الآية: 10] وعلى هذا قوله: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة﴾ [سورة الأنعام، الآية: 40].
وروى أنه كان إذا هبت ريح شديدة تغير لونه عليه السلام فقال: «تخوفت الساعة» وقال: «ما أمدُّ طرفي ولا أغضها إلا وظن أن الساعة قد قامت» يعني موته. ويقال: عاملته مساوعة نحو معاومة ومُشاهرةً، وجاءنا بعد سوع من الليل وسُوَاع أي بعد هدءٍ، وتصوّر من الساعة الإهمال فقيل: أسعت الإبل أسيعُها وهو ضائع سائع، وسُوَاع اسم صنم. قال: ﴿ودّاً ولا سُواعاً﴾ [سورة نوح، الآية: 23]. «المفردات في غريب القرآن» ص 248.

مقدمات اليوم الآخر. وهي تتصف بصفات وهي:

1 ـ الساعة بما يفيد قرب وقوعها:

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾(1).

2 ـ الساعة بما يفيد مجيئها فجأة:

قال تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾(2).

وقال تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾(3).

3 ـ الساعة والسؤال عنها علمها وميعادها:

الساعة من عالم الغيب لا يعلم حدوثها إلا الله سبحانه وتعالى فهي من العلوم التي خص الله بها قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾(4).

وقال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا

---

(1) سورة النحل، الآية: 77.

(2) سورة الأنعام، الآية: 31.

(3) سورة الحج، الآية: 55.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 63.

لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فالسؤال عن الساعة من قبل الكفار إنما هو في معرض الشك في حدوثها أو تحديد وقتها وتكذيبهم بها فقد جاء الجواب في الرد عليهم وثبوت مجيئها وإنذارهم وتخويفهم بها لما سيحدث فيها من أهوال. قال تعالى مجيباً ومثبتاً مجيئها:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

4 ـ الساعة واقترانها بالزلزلة:

وردت الساعة مضافاً إليها الزلزلة كدليل على هولها وما سيحدث فيها من أحداث عظيمة مخيفة للترهيب بهذا اليوم وللحض على التزود في الدنيا بالأعمال الصالحة لملاقاة هذا اليوم العظيم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[3].

5 ـ الساعة ظرف مع تقوم للحساب والجزاء:

قال تعالى:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 187.

(2) سورة الأنعام، الآية: 40.

(3) سورة الحج، الآية: 1 ـ 2.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[2]

وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾[3].

وهكذا نجد أن الساعة استعملت في القرآن الكريم في كثير من الآيات كلها تهدف إلى بيان حقيقتها والخوف منها وأنها واقعة لا ريب فيها وما على الناس إلا أن يستعدوا لها فهي جاءت بصيغة الترهيب وأن في وقوعها تحدث وقائع رهيبة ومروعة فما هي إذن فحوى هذه الساعة وما هي شرائطها؟ هذا ما سنحاول بحثه.

الساعة حقيقتها وأشراطها:

المراد بالساعة في بحثنا هذا وبما أشار إليه القرآن الكريم أنها الحياة الثابتة، بأنظمتها ومدلولاتها ووقائها وأحداثها وهذه لا تتم إلا بعد فناء عالم الحياة الأولى حيث تنتهي بمجرد قيام الساعة ولكن متى تقوم على وجه التحديد ذلك ما انفرد بعلمه سبحانه وتعالى وحده والسؤال الذي يطرح نفسه هل إن الساعة لا بد آتية، وأنها تحديد ليوم تجزى كل نفس بما تسعى أو تجزى بما كسبت؟ لا شك أن قيامها ثابت بنصوص قاطعة وأن ابتداءها يتم حيث تنتهي الحياة الدنيا وتتبدل الأرض غير الأرض تبدلاً كلياً والسموات تنفطر والكواكب تنتثر قال تعالى:

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 27.

(2) سورة غافر، الآية: 46.

(3) سورة الروم، الآية: 55.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[1].

وقال تعالى مشيراً إلى الأحداث التي تتم بوقوعها فقال:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[3].

فمجيء الساعة مقترن إذن بتبدل الأرض والسموات وانتهاء نظام الحياة الدنيا، أما متى؟ فإن هذا السؤال لا جواب عليه لأن الموضوع بحد ذاته من أمور الغيب التي أخفاها الله على عباده وهذا ثابت بنص من القرآن بمجيئها إذ هو محقق لكنه يأتي بغتة قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

فمعرفة استقرارها أي مجيئها وبلوغ مداها أمر لا يعرفه إلا سبحانه وتعالى ومع ذلك فقد أشار الله عز وجل إلى قربها بقوله تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[5].

---

(1) سورة طه، الآية: 15.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 104.

(3) سورة الانفطار، الآية: 1 ـ 5.

(4) سورة الأعراف، الآية: 187.

(5) سورة القمر، الآية: 1 ـ 2.

وقال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[1].

هذا وإذا كانت الساعة غير معروف زمن مجيئها، وعلى الرغم من أنها قريبة فإنه مع ذلك فقد وجد لها أمارات وهي الدلائل على مجيئها ويعبر عنها بأشراط الساعة وهذه الدلائل هي مجموعة أمارات تدخل أيضاً في الأمور الغيبية فهي من أنباء الغيب وهي بمثابة الإنذار أو الحض على وجوب الإيمان بالساعة هذه الأشراط أشار إلى وجودها وظهورها القرآن قال تعالى:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾[2].

أشراط الساعة:

علمنا أن القرآن قد أشار إلى أشراط الساعة لكنه لم يحدد زمنها ووقتها أو موعدها فهي مما خفي على الناس كافة بما فيهم الأنبياء والرسل، فليس لأحد مهما كان شأنه أن يعلم عنها شيئاً أو يحدد عمراً لهذه الدنيا من حيث الابتداء والانتهاء فمعرفة وقت قيام الساعة إذن مجهول لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى كما أن زمن وقوع أشراطها مجهول أيضاً. هذا وإذا كان زمن وقوع أشراط الساعة مجهولاً بيد أن أشراطها معروفة من الدين بالضرورة فلا يجوز إنكارها وإن كانت مما تدخل أيضاً في شمول الأمور الغيبية.

إذن فموعد قيام الساعة أو زمن وقوع أشراطها لا يعلمه إلا الله.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[3].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 63.

(2) سورة محمد، الآية: 18.

(3) سورة الملك، الآية: 25 ـ 26.

فأشراط الساعة أو علاماتها إنما هي مجموعة من أنباء الغيب التي ستحدث قبل قيام الساعة يقيناً للمؤمنين وتنبيهاً للضالين وبياناً للشاكين وحجة على الجاحدين كي يتعظوا ويؤمنوا وهي ثابتة بالخبر المتواتر أو بالدليل اليقيني القاطع من القرآن. هذه الأمارات عديدة سواء كانت من العلامات الصغيرة أو من العلامات الكبيرة وفي جميع الأحوال سنعرض واحدة من هذه العلامات ونجملها فيما يلي:

ـ بعثة رسول الله ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين وهو آخر نبي وأن الساعة تليه وتأتي بعده وليس بينه وبينها أي نبي آخر وليس من الضروري معرفة زمن مجيئها إذ العلم بزمن مجيئها منوط بمعرفة الله سبحانه وتعالى، هذه الأمارة ثابتة بالحديث الصحيح إذ روي عن أنس أن النبي ﷺ قال:

«بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى»[1].

هذا والمتتبع لآيات القرآن يجد أن يوم الآخر سمي بيوم البعث قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(1) رواه البخاري ومسلم والترمذي ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين إصبعيه» سنن ابن ماجه ج 2، ص 1341. دار إحياء التراث العربي.

(2) سورة الروم، الآية: 56.

الفصل الثاني:

البعث ويوم القيامة

البعث

هذه التسمية «يوم البعث» وردت مرتين في موضع واحد في سورة الروم الآية: 56 كما هو ظاهر من الآية المذكورة في الفصل السابق.

1 ـ المرة الأولى تفيد الغاية ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾[1].

2 ـ والمرة الثانية تفيد الابتداء والإخبار مع التعجب من الجهل.

﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾.

هذا وقد ورد لفظ البعث في القرآن بمعانٍ مختلفة[2] ذكرها على وجه

---

(1) سورة الروم، الآية: 56.

(2) أ ـ البعث بمعنى الإلهام: قال تعالى: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ [سورة المائدة، الآية: 31] أي الهم الله غراباً.

ب ـ البعث بمعنى الإحيار في الدنيا، قال تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ [سورة البقرة، الآية: 56]. وقوله تعالى: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ [سورة البقرة، الآية: 259].

جـ ـ البعث بمعنى اليقظة من النوم قال تعالى: ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ أي في النوم، [سورة الأنعام، الآية: 60]، ﴿ليقضي أجل مسمى﴾ [سورة الأنعام، الآية: 60].

د ـ البعث بمعنى التسلط قال تعالى: ﴿بعثنا عليكم عباداً أولي بأس شديد﴾ [سورة الإسراء، الآية: 5] أي سلطاناً عليكم عباداً لنا.

هـ ـ البعث بمعنى إرسال الرسول قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً﴾ [الجمعة: 2]. يعني أرسل رسولاً وقال تعالى مثلها: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ [سورة البقرة، الآية: 129] كما قال تعالى: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ [سورة الكهف، الآية: 19] يعني أرسلوا. =

التفصيل الراغب الأصفهاني[1].

كما فرق بين البعث والإرسال[2] فالإرسال فيه معنى السهولة، والبعث فيه معنى القوة وفيه معنى الحركة العنيفة التي تكون من المبعوث لا مجرد الانقياد والطاعة لأمر الباعث. وقد ورد هذا الفعل في اثنين وخمسين موضعاً من القرآن الكريم. وهو في كل هذه الآيات واقع على إحياء ومتوقع منهم الحركة العنيفة فهم أنبياء قال تعالى:

= والبعث بمعنى النصب والبيان قال تعالى: ﴿فابعثوا حكماً من أهله﴾ [سورة النساء، الآية: 35]، يعني انصبوا حكماً. وكقوله تعالى: ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ [سورة البقرة، الآية: 246]. وبين ذكره. وقال تعالى: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ [سورة البقرة، الآية: 246]. يعني قد نصب وبين موضعه.

ز ـ البعث بمعنى النشور من القبور قال تعالى: ﴿وإن الله يبعث من في القبور﴾ [سورة الحج، الآية: 7]. يعني ينشر. الحسين بن محمد الدمغاني ـ الوجوه والنظائر ص 73، دار العلم للملايين، بيروت.

(1) بعث: أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال: بعثته فانبعث. ويختلف البعث بحسب اختلاف ما عُلّق به فبعثت البصير أثرته وسيرته، وقوله عزّ وجلّ: ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ [سورة الأنعام، الآية: 36]، أي يخرجهم ويسيرهم إلى يوم القيامة، ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ [سورة المجادلة، الآية: 6]، وكقوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ [سورة التغابن، الآية: 7]. وكقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة﴾ [سورة لقمان، الآية: 28]. فالبعث ضربان: بشرى كبعث البصير وبعث الإنسان في حاجة، وإلهي وذلك ضربان: أحدهما إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس وذلك يختص به الباري تعالى ولم يُقْدِرْ عليه أحداً. والثاني: إحياء الموتى وقد خصّ بذلك بعض أوليائه كعيسى ﷺ وأمثاله، ومنه قوله عزّ وجلّ. ﴿فهذا يوم البعث﴾ [سورة الروم، الآية: 56]، يعني يوم الحشر وقوله عزّ وجلّ: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ [سور المائدة، الآية: 31] أي قبضه: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ [سورة النحل، الآية: 36] نحو ﴿أرسلنا رسلنا﴾ [سورة المؤمنون، الآية: 44]. وقوله تعالى: ﴿ثم بعثناكم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ [سورة الكهف، الآية: 12] وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان، وقوله: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً﴾ [سورة النحل، الآية: 84]. وقوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ [سورة الأنعام، الآية: 65] وقال عزّ وجلّ: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ [سورة البقرة، الآية: 259]. وعلى هذا قوله عزّ وجلّ ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه﴾ [سورة الأنعام، الآية: 60]. والنوم من جنس الموت فجعل التوفي فيهما والبعث منهما سواء وقوله عزّ وجلّ: ﴿ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم﴾ [سورة التوبة، الآية: 46]، أي توجههم ومضيّهم، الراغب الأصفهاني ـ «المفردات في غريب القرآن» ص 52.

(2) رسل: أصل الرسل الانبعاث على التؤدة ويقال: ناقة رَسْلَة سهلة السير وإبل مراسيل منبعثة انبعاثاً سهلاً ومنه الرسول المنبعث وتصدر منه تارة الرفق فقيل على رسلك إذا أمرته بالرفق وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول. الأصفهاني ـ المرجع السابق ص 195.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾[3].

وهكذا تجد من سياق هذه الآيات أن لفظ البعث فيها يدل على الحركة العنيفة. وأنها واقعة على أحياء، ومع ذلك فإن فعل بعث ورد في القرآن واقعاً على غير حي في آية واحدة بدليل قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[4].

وفي هذه الآية ما يدل على القدرة من خلال البعث الذي فيه معنى القوة.

هذا والمتتبع للآيات في القرآن الكريم يلاحظ في معنى البعث من الحركة الشديدة سواء كان اللفظ فعلاً أو مصدراً أو اسم مفعول فإنه يفيد خروج الخلق من قبورهم يوم القيامة وأن فعل بعث جاء في واحد وعشرين موضعاً كقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[5].

وكقوله تعالى:

---

(1) سورة البقرة، الآية: 213.

(2) سورة الأعراف، الآية: 167.

(3) سورة الكهف، الآية: 19.

(4) سورة الأنعام، الآية: 65.

(5) سورة الأنعام، الآية: 36.

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1] وكذا الآية 36 من سورة الحجر والآيات (21، 38، 84، 89)، من سورة النحل، والآيات (15، 33) من سورة مريم.

وكذا قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[5].

وقوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[6].

وكذا في سورة النمل الآية (65)، وفي سورة الصافات الآية (144) وفي سورة ص الآية (79)، وفي سورة المجادلة الآية (6 و18).

وقال تعالى:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 14.
(2) سورة الحج، الآية: 7.
(3) سورة المؤمنون، الآية: 16.
(4) سورة المؤمنون، الآية: 100.
(5) سورة الشعراء، الآية: 87.
(6) سورة يس، الآية: 52.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[1].

هذا وجاء لفظ البعث مصدراً في أربعة مواضع قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾[2].

وكذا في سورة الروم الآية (56) مرتين وكذا في سورة لقمان قوله تعالى:

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[3].

هذا وجاء لفظ البعث في صيغة اسم المفعول في تسعة مواضع من القرآن.

قال تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[5].

وقال تعالى:

(1) سورة التغابن، الآية: 7.
(2) سورة الحج، الآية: 5.
(3) سورة لقمان، الآية: 28.
(4) سورة الأنعام، الآية: 29.
(5) سورة هود، الآية: 7.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾[1].

وكذا في سورة الإسراء الآية (98)، وفي سورة المؤمنون الآية (37 و82)، وفي سورة الصافات الآية (16)، وفي سورة الواقعة الآية (47)، وفي سورة المطففين الآية (4).

وهكذا نجد أن لفظ البعث سواء جاء بصيغة الفعل أو بصيغة اسم الفاعل أو اسم المفعول أو جاء مصدراً. أو جاء على أحياء أو جاء على غير حيّ، أو جاء حكاية لتعجب الكفار من أمر البعث أو جاء رداً على الكفر لعدم إيمانهم بأن الحياة ستدب في النفوس والأجسام بعد أن أضحت عظاماً ورفاةً بعد موت أصحابها، أو رداً على استجهالهم البعث إنكاراً وكفراً. ففي جميع هذه الحالات أو الحالات التي عرضها القرآن في مفهوم البعث سواء كان بمعنى القيامة أو بمعنى اليوم الآخر أو غيره، فإن إكثار القرآن من ذكر البعث إنما يدل على أهمية هذا اليوم، وعلى هول ما سيقع فيه من أحداث، فضلاً عن الحقائق التي اعتنى بها الدين الإسلامي في أصوله وعقيدته، إنما ترمي إلى التربية الخلقية للإنسان وتحضيره على الوجه الذي يحقق له في الحياة الدنيا السعادة والاطمئنان لنفسه أو لغيره تبعاً للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وقضائه خيره وشره باليوم الآخر، وبشموله لمفهوم الألوهية والربوبية لرب العالمين خالق كل شيء هذا الإيمان هو الذي يفرض على الإنسان إدراك سلوكه ومعرفة تصرفاته، وأن ما فيها من خير أو شر محاسب عليه طالما أنه مؤمن باليوم الآخر يوم البعث، وبهذا يخلص إلى أنه والناس أجمعين لم يتركوا سدى وأن المرء كسب رهين. بهذا الإيمان تستقيم حياة الإنسان في اتجاهها الصحيح عبادة وسلوكاً وتربية وتعاملاً وبهذا يعلم الإنسان لماذا اهتم القرآن بقضية البعث أو الدار الآخرة كما ويعلم أن يوم الدين حق، وأن الحساب حق، وأنه مساءل في الآخرة عن عمله في الدنيا أي عما عمل فيما علم، وأن الثواب والعقاب حق، وهو الأثر للمحاسبة ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2]. وهكذا

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 49.

(2) سورة النور، الآية: 24.

فإن حياة الإنسان في الدنيا طالت أم قصرت لا بدّ أن يجازي في الآخرة على ما كان يفعله فيها سواء كان مؤمناً أو كافراً، عاصياً أو طائعاً، محسناً أو مسيئاً، صالحاً أو طالحاً، خيراً أو شريراً، سعيداً أو شقياً. فإنه لا بدّ إذن ملاقٍ ليوم الحساب مستوفٍ ما وعد الله به، خالد في شقائه أو سعادته قال تعالى:

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2].

قال تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

لقد اهتم القرآن بالبعث اهتماماً عظيماً ويبدو أن هذا الاهتمام إنما هو بمثابة التحريض والحض للإنسان على الاستعداد لهذا اليوم بالتزود بالتقوى، طالما أن الإنسان لم يترك سدى، وأن الله سبحانه وتعالى أنزل شريعته وزود الناس بعقيدة تستقيم بها حياتهم سواء ما يتعلق بالعبادات، أو المعاملات، كما أنه لم يتركهم دون ترشيد أو تعليم، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ليعلموهم أمور دينهم الحنيف، فضلاً عما أنعم الله على عباده بإنزال القرآن

(1) سورة الشورى، الآية: 7.

(2) سورة هود، الآية: 105 ـ 108.

(3) سورة الجاثية، الآية: 26.

على رسوله محمد ﷺ ليكون مناراً وهادياً للناس جميعاً حيث اشتمل على كل شيء من أمور الدين والدنيا فحدد الحلال والحرام بأحكام واضحة كما بين أسس العبادات والمعاملات وبهذا يكون قد زود الإنسان بما يحتاجه لعمل الخير في الدنيا. ولم يعد له أي عذر في عدم الاستجابة لما أمر الله به أو نهى عنه. من هذا المنطلق تتوجب المساءلة بدليل النص قال تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى إذ خلق الناس فهو مسائلهم يوم القيامة، ومحق عليهم الثواب والعقاب تبعاً لأعمالهم. وبهذا يكون الجزاء أثراً من آثار المساءلة. هذا وإذا كانت المساءلة لا بدّ قائمة فما هو زمنها فهل هو محدد ومتى وأين؟ الجواب على ذلك غير وارد بل غير معلوم فهو يدخل في شمول الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله فالإنسان مسؤول عن أعماله ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾[3] فمن عمل خيراً يلق ثوابه، ومن عمل شراً يلق عقابه، وفي هذا إشارة إلى المحاسبة يوم القيامة وهذا منتهى العدل قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾[4] وهذا يشير إلى أن حياة الإنسان في الدنيا محدودة فيعلن أنها مؤقتة وذائقة للموت قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[5].

---

(1) سورة الحجر، الآية: 92 ـ 93.

(2) سورة الطور، الآية: 21.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 51.

(4) سورة غافر، الآية: 17.

(5) سورة آل عمران، الآية: 185.

وقال تعالى مخاطباً رسوله:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]

وقال تعالى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[2] فحياة الإنسان إذن نهايتها الموت، على أن الموت لا يعني الفناء المطلق والنهائي بحيث لا تعاد للإنسان الحياة بل لا بدّ من البعث يوم القيامة حيث يجمع الله الناس في يوم لا ريب فيه وأنه لا شبهة في ذلك مطلقاً وأنه ثابت بالدليل القطعي فمن ينكر يوم القيامة وينكر البعث فقد أنكر الله القادر على كل شيء. بهذا يكون من صنف الدهريين الذين قال الله تعالى على لسانهم:

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3].

«هذا الصنف ينكر البعث ويعتقد أن تواجد الحياة إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع، وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك، هذه الطائفة جمعت بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة»[4] هؤلاء رد الله عليهم بقوله:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]. فالله سبحانه وتعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مراراً

---

(1) سورة الزمر، الآية: 30.
(2) سورة السجدة، الآية: 11.
(3) سورة الجاثية، الآية: 24.
(4) الإمام الرازي في نفسيره، ج 27، ص 270.
(5) سورة الجاثية، الآية: 26.

وأطواراً، ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة وثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حق في قوله تعالى:

«ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه».

معنى ذلك أن كونه تعالى عادلاً خالقاً منزهاً عن الجور والظلم، تقتضي صحة البعث والقيامة[1].

وهكذا نجد أنه من أبسط قواعد العدالة وأبسط صورها أن يحاسب المرء على عمله ويجازى عليه ولا يكون هذا إلا يوم البعث حيث يتحقق وتتم المساءلة فيه.

قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

وعلى هذا وبتقرير أن البعث حق يتحقق، أن الموت حق، وأن الناس زالهم ميتون قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3].

أي أن الناس سيموتون بأجلهم وأنهم مبعوثون ليوم الحساب فحين يسمعون الصيحة يخرجون قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[4].

بهذه الصيحة تعلن يوم القيامة فيتوافد الناس ويحضرون جميعهم وهذا

---

(1) الإمام الرازي، المرجع السابق، ج 27، ص 270 ـ 271.

(2) سورة المجادلة، الآية: 6.

(3) سورة النحل، الآية: 61.

(4) سورة ق، الآية: 42.

ما أشار إليه الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[1] أي يحضرون بأمر الله ليجازوا على أعمالهم.

قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

هذا اليوم وهو يوم الصيحة هو يوم القيامة أو يوم البعث أو يوم القارعة كلها أسماء لمدلول واحد، ولكن ما هي الأحداث التي تحدث في هذا اليوم على ما أخبرنا الله عنها؟

في هذا اليوم تتكور الشمس وترمي عن فلكها وتتناثر النجوم والكواكب وتسير الجبال فتكون سراباً قال تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[3].

وهذه العلامات يمكن وقوعها في أول زمن تخريب الدنيا، ويمكن وقوعها بعد يوم القيامة، ولما ذكر الله تعالى هذه الأمور الاثني عشر، ذكر الجزاء المرتب على الشروط الذي هو مجموع هذه الأشياء فقال: (علمت نفس ما أحضرت) ومن المعلوم أن العمل لا يمكن إحضاره، فالمراد إذن ما أحضرته في صحائفها وما أحضرته عند المحاسبة وعند الميزان من آثار تلك الأعمال والمراد ما أحضرت من استحقاق من الجنة أو النار[4].

في هذا اليوم، يوم القارعة التي تصطك فيه الأجرام العلوية والسفلية

---

(1) سورة يس، الآية: 53.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 6 ـ 8.

(3) سورة التكوير، الآية: 1 ـ 6.

(4) الرازي، المرجع السابق ج 31، ص 70.

اصطكاكاً شديداً عند تخريب العالم، بسبب تلك القارعة والتي يقرع الناس بها بالأهوال والإقراع، فلهذا سمي يوم القيامة بالقارعة، فإذا كانت القارعة هي التي تقرع النفوس بالأهوال والإقراع وذلك في السموات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكوير، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الأرض بالطي والتبديل، هذه القارعة هي من الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد وهي إذ لها أثرها على الطبيعة بحيث تضحى فيها حياة الدنيا فانية كما تشير إلى بقاء الحياة الآخرة. فإنها أيضاً يوم القيامة تؤثر على النفوس.

أما متى يحل هذا اليوم أو تتحقق الصورة التي ذكرها الله في كتابه عن يوم القيامة فمعرفة هذا بعيد عن قدرة الإنسان وعقله أو مداركه وحواسه فلا يستطيع تحديده لأنه أمر يدخل في شمول الغيبيات التي اختص الله بعلمها دون سواه لهذا لن يتحصل على هذه المعرفة أحد لورود النص القاطع بنفي العلم بهذا اليوم عن أحد قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(2).

وإذا كان زمن القيامة مجهولاً فقد تقدم معنا فيما مضى بعض علاماتها وأشراطها قال تعالى مشيراً إلى ذلك اليوم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ﴾(3).

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 63.
(2) سورة الزخرف، الآية: 85.
(3) سورة يونس، الآية: 24.

وعلى هذا لا يسوغ لنا أن نقول إن يوم القيامة قد اقترب أو نحدد قيامها بجيل أو بأجيال أو بقرن أو بقرون أو بأي حساب. ذلك لأن شواهد التاريخ دلت على وجود حضارات مماثلة لما نحن فيه قامت منذ أجيال ثم اندثرت ثم عادت في أجيال متلاحقة ولم تحصل القيامة ذلك لأن ميعادها منوط بعلم الله وحده بالنص القاطع قال تعالى:

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾[1].

هذا ونحن إذ نسلم بعلم الله سبحانه وتعالى بميعاد يوم القيامة، وإنها ستقوم تبعاً لمشيئته وتقديره، وأنها لا بد قائمة تبعاً لما ذكر في القرآن الكريم بخصوصها سواء كان التعليل مرده إيماننا أو كان التعليل ما ذكرته الدراسات العلمية، إذ يعلل العلماء أن انتهاء الكون، واختفاء الأرض مرده إلى اختلال التوازن في الضوء والحرارة التي تمد الشمس بها الأرض، تبعاً لمقادير مناسبة، فإذا رجحت الزيادة أو النقص اختفى العالم، إذ يقول العالم الفلكي جيمس جنز في كتابه الكون الغامض: «إن الحياة كما نعرفها لا يمكن أن تبقى إلا في حالات مناسبة من الضوء والحرارة، ونحن إنما نعيش لأن الأرض تستقبل من إشعاعات الشمس المقدار المناسب بالضبط. فإذا اختل هذا التوازن ورجحت الكفة نحو أحد الاتجاهين.. نحو الزيادة أو النقص، فإن الحياة لا بد أن تختفي من الأرض، وحقيقة الموقف هي أنه من السهل جداً أن يختل هذا التوازن ولا بعد أن يكون الإنسان الأول عندما كان يقطن في المنطقة المعتدلة من الأرض قد شاهد بشيء من الفزع عصر الجليد يقترب من موطنه، لقد كان يرى أنهار الجليد في كل عام تتقدم باطراد في الوديان ويحس أن الشمس في كل شتاء أقل مقدرة على أن تمد الحياة بالحرارة اللازمة، ولا بد أن يكون قد ظهر لنا الآن أن الكون يناصب الحياة العداء... ونحن أبناء هذه الأيام المتأخرة الذين في المنطقة المعتدلة الضيقة المحيطة بشمسنا.. ننظر إلى المستقبل البعيد فنرى عصراً جليدياً من نوع آخر يهددنا. وتلك مأساة تنتظرنا نحن أيضاً. فربما قدر علينا أن نموت من البرد. على حين أن الجزء الأكبر من مادة الكون لا يزال شديد الحرارة. لا

(1) سورة فصلت، الآية: 47.

يسمح للحياة أن تستقر فيه. ذلك أن الشمس ليس لها مصدر خارجي تستمد منه حرارتها ولا بد إذن أن يقل بالتدريج مقدار ما تبعثه من إشعاع، هو مصدر الحياة فإذا استمرت الحال كذلك فإن المنطقة المعتدلة من مناطق الفضاء، وهي وحدها التي توجد فيها الحياة تقترب من الشمس شيئاً فشيئاً.. وإذا أريد أن تبقى أرضنا صالحة للحياة، فلا بد لها أن تقترب دائماً من الشمس المحتضرة لكن العلم يخبرنا أن الأرض لا تقترب من الشمس، بل إن قوانين الحركة وهي قوانين ثابتة لا تتحول... تعمل حتى في وقتنا هذا على أن تبعد أرضنا عن الشمس، وتدفعها نحو مناطق البرد والظلام الخارجية، ومبلغ علمنا أن هذه القوانين ستظل في عملها حتى تجمد الحياة على الأرض وتنعدم، إلا إذا وقع قبل ذلك اصطدام سماوي، أو وقعت واقعة أخرى هائلة، فأودي هذا أو أودت تلك بالحياة على عجل قبل ذلك الميقات المحتوم... وهذا الخطر المنتظر لا تتعرض له أرضنا وحدها بل إن شموساً أخرى لا بد أن تموت، كما تموت شمسنا، وكل حياة يمكن أن تكون على كواكب أخرى لا بد في النهاية أن تلقى ذلك المصير التعس، كذلك يقص علينا علم الطبيعة القصة نفسها التي يقصها علم الفلك، ذلك أننا صرفنا إذاً النظر عن جميع الاعتبارات الفلكية نجد القانون الطبيعي العام الذي عرف بالقانون الثاني لعلم الديناميكا الحرارية ينبىء بأن الكون لا يمكن أن يكون له سوى نهاية واحدة هي موت الحرارة حين تتوزع جملة طاقة الكون توزيعاً منتظماً، فتصير أجسام الكون كلها في درجة حرارة واحدة وستكون هذه الحرارة منخفضة انخفاضاً يجعل الحياة مستحيلة، ولا يهم كثيراً أي طريق يصل بالكون إلى هذه الحالة النهائية، ذلك أن نهاية الرحلة لن تكون سوى الفناء الشامل».

هذا إذا كانت هذه الحقائق العلمية قد توصل إليها العلماء من حيث تناقض حرارة الشمس وأن الشمس ستموت كما تموت الشموس الأخرى علماً أنهم لم يتعرضوا إلى وجودها، أليس من المنطق الفعلي أن يكون لهذه الشموس خالق قد خلقها فقدرها بقضائه وقدره، وحدد لها عمراً معيناً كباقي المخلوقات التي لا بد وأن تموت، وإذا كان الأمر كذلك فمن البديهي أن يكون لخالقها القدرة بإنهاء فعاليتها تبعاً لمشيئته وأن يجعل انتهاءها علامة

على يوم القيامة هذا ونلاحظ أنه لا ضرورة لوجود الأسباب في حوادث الطبيعة وأن الأمر كله منوط بقدرة الله سبحانه وتعالى بمعنى أن انتهاء الكون وقيام القيامة لا ضرورة لبحث أسبابها علمياً لأن الله سبحانه وتعالى قادر على فعل ما يشاء وإن كانت هناك أسباب قدرها فإن فعالية هذه الأسباب لا تتم إلا بمشيئته وإرادته. ويبدو أن الإمام الغزالي يذهب إلى ذلك في فلسفته «إذ ينكر وجود السببية في حوادث الطبيعة، فمرد ذلك إلى اعتقاده أن اقتران الحوادث بعضها ببعض راجع إلى ما سبق من تقدير الله لخلقها على التساوي، فلا يكون ارتباطها ضرورياً بنفسه فالطبيعة في نظره مسخرة لإرادة الله لا تعمل بنفسها، بل تستعمل من جهة فاطرها والسببية الحقيقية ترجع عنده إلى علاقة إرادية بين الله والعالم. أما ارتباط الأسباب والمسببات الطبيعية لبعضها ببعض فلا قيمة له بنفسه، ولا معنى له إلا إذا استند إلى إرادة الله وفي قدرة الله أن يخلق شبعاً من غير أكل ورياً بدون شرب، وشفاء بدون دواء. واحتراقاً بدون نار، ولكن الغزالي لا ينكر حصول الاحتراق عند ملاقاة النار، بل ينكر أن تكون النار علة الاحتراق الضرورية، لأن حصول الشيء عند حصول الآخر لا يدل على أن أحدهما موجود بالآخر، وإذن الفاعل الحقيقي في نظره هو الله، وهو علة الاحتراق والشفاء والري والشبع، وعلة كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة. وهو العالم القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، ويخلق المختلفات والمتجانسات كما يريد وعلى ما يريد»[1].

من هذا يتضح لنا أيضاً أن الله سبحانه وتعالى ينهي الحياة الدنيا ويطوي السماء كطي السجل للكتب وينسف الجبال ويفجر البحار ويكور الشمس كل هذه الأحداث وغيرها يفعلها بإرادته دون أن نلتمس أسباباً لها فيقيم القيامة بأمره وهو على كل شيء قدير.

الشمس:

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه النهاية للشمس. فقال: ﴿إِذَا

(1) جميل صليبا ـ بحث في فلسفة الغزالي، نشر في مقدمة كتاب «جواهر القرآن» للغزالي، ص 29، نقلاً عن مجلة العربي ـ الكويت ـ العدد 13.

ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[1] حيث تخف حرارتها بسبب هذا التكوير فتتمدد وتكبر ويمتد سطحها المشع فتنخفض نتيجة لذلك حرارتها وبالتالي تخبو النجوم وتنطمس قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾[2] أي تخبو تماماً ولا تظهر هذا كما أنه بهذا التمدد واتساع مساحة الشمس تشتد قوة جاذبيتها فيجمع الشمس والقمر وهذه الحقيقة ثابتة بالقرآن قال تعالى:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾[3].

السماء:

إلى جانب هذه الظاهرة يظهر حدث آخر بحيث تتشقق السماء وتنفطر بقدرة الله وإرادته فتتغير السماء نتيجة لهذا الانفطار وتضحى حمراء كما وصفها الله قال تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[5].

وقال تعالى عن آثار هذا الانشقاق: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[6].

وهكذا تتأثر الأشياء من سماء وأرض وبحار وشمس وقمر ونجوم بهذا اليوم فتتغير صفاتها وطبيعتها كل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى فالسماء

---

(1) سورة التكوير، الآية: 1.

(2) سورة التكوير، الآية: 2.

(3) سورة القيامة، الآية: 7 ـ 9.

(4) سورة الانشقاق، الآية: 1.

(5) سورة الانفطار، الآية: 1.

(6) سورة الرحمٰن، الآية: 37 ـ 38.

تضحى كالفضة المذابة ثم تطوى كطيّ السجل فيقول تعالى في هذا التغيير:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾[1].

ويقول تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

وهكذا نجد أن القرآن الكريم وصف ما يحدث للسماء في يوم القيامة في آيات عدة من حيث تشققها بالغمام. ومن حيث إنها تأتي بدخان مبين أو من حيث انفطارها قال تعالى:

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[5].

وقال:

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾[6].

ويتتابع الآيات في شأن وصف السماء نلاحظ أن القرآن ذكر ثلاثة عشر موضعاً أسند فيها الانشقاق أو ما في معناه إلى السماء يوم القيامة.

---

(1) سورة المعارج، الآية: 8.
(2) سورة الأنبياء، الآية: 104.
(3) سورة الدخان، الآية: 10.
(4) سورة الطور، الآية: 9.
(5) سورة الحاقة، الآية: 16 ـ 17.
(6) سورة النبأ، الآية: 19.

الأرض:

أما بالنسبة للأرض فيتغير شكلها وطبيعتها وقوانينها حيث تختفي جاذبيتها فتفقد توازنها فتتحرك حركة هائلة نحو الانهيار، وبهذا تتبدل الأرض غير الأرض حيث ترتجف الأرض وتزلزل وترج تهزّ هزّاً مستمراً حتى تضحى هباءً منثوراً، فعن الرجفة قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾[1].

وعن تسييرها ونسفها قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[7].

---

(1) سورة المزمل، الآية: 14.
(2) سورة الكهف، الآية: 47.
(3) سورة طه، الآية: 105 ـ 107.
(4) سورة النمل، الآية: 88.
(5) سورة النبأ، الآية: 20.
(6) سورة القارعة، الآية: 5.
(7) سورة الانشقاق، الآية: 3 ـ 5.

وهكذا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى يسند إلى الأرض أفعالاً عديدة بأمره وهي الرجف، والزلزلة، والرج، والمد، والدك، والبروز، والتخلي، والتسيير، والمرور، والنسف، والعهن.

البحار:

أما بالنسبة للبحار فتتغير طبيعتها فتفجر وتسجر قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[2].

والمراد بلفظ سجرت[3] أي أضرمت ناراً وقيل غيضت مياهها. هذا ما سيحدث يوم القيامة للشمس والقمر والنجوم والأفلاك والسماء والأرض والبحار على ما ذكرناه وبمقارنة حالة هذه الأشياء في الدنيا وما عليها من استقرار وتوازن وجاذبية وما آلت إليه يوم القيامة كقوله تعالى في الأرض والسماء:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[4].

وقوله في الشمس والقمر وما كانا عليه من إضاءة وتسخير لبني البشر:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[5].

---

(1) سورة الانفطار، الآية: 3.

(2) سورة التكوير، الآية: 6.

(3) اختلف في تفسير هذا اللفظ في قوله تعالى فقيل: معناها ناراً وحميت وقيل: معناها فاضت ويقول الراغب الأصفهاني: السَّجر تهييج النار يقال: سجرت التنور ومنه والبحر المسجور وقوله: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي أضرمت ناراً عن الحسن، وقيل: غيضت مياهها وإنما يكون كذلك بتسجير النار فيها ﴿ثم في النار يسجرون﴾ وسجرت الناقة استعارة لالتهابها في العدو نحو اشتعلت الناقة والسجير الخليل الذي يُسْجَر في مودّة خليله.

(4) سورة البقرة، الآية: 22.

(5) سورة يونس، الآية: 5.

وقوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1].

أما عن حالة البحار في الدنيا وما فيها من إمساك مائها من أن يفيض قال تعالى:

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[3].

وهكذا نجد أن الأشياء المادية تتغير يوم القيامة في نظامها وطبيعتها وقوانينها عما كانت عليه في الدنيا.

آثار يوم القيامة على الأحياء:

لقد وصف القرآن ما يصيب الناس من جراء يوم القيامة كما بين أثره على نفوسهم سواء من حيث ذهولهم أو اضطرابهم فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[4].

هذا كما وصف القرآن ندم المسيئين ووصف حالهم من الندم وإدراكهم بعدم نفعهم الندم، وأنهم لم يعد أحد يملك نفعهم، وأنه يوم لا يمهل فيه أحد يوم تشخص فيه أبصار الكافرين ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[5] فتكون

---

(1) سورة الرعد، الآية: 2.

(2) سورة النمل، الآية: 61.

(3) سورة الرحمٰن، الآية: 19 ـ 20.

(4) سورة الحج، الآية: 1 ـ 2.

(5) سورة المعارج، الآية: 10.

قلوب الناس فيه واجفة وأبصارهم خاشعة: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[1].

في هذا اليوم لا تجد للضالين من هاد إلا الله قال تعالى:

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[2].

قال تعالى في وصف هذا اليوم أيضاً وأثره على الإنسان من الناحية الفزيولوجية:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا * ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾[3].

ومعنى ذلك أنه كيف تتقون أنفسكم يوم القيامة وهو له إن بقيتم على الكفر. أو كيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة وأنه من هول هذا اليوم وشدته تشيب نواصي الأطفال والأصل فيه أن الهموم والأحزان، إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب لأن كثرة الهموم توجب انقصار الروح إلى داخل القلب وذلك الانقصار يوجب إطفاء الحرارة وانطفاء الحرارة الغريزية وضعفها يوجب بقاء الاجزاء الغذائية غير تامة النضج، وذلك يوجب ابيضاض الشعر..

ويجوز أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون أوان الشيخوخة والشيب[4]. هذا اليوم العظيم بأهواله وأحداثه على الطبيعة وعلى الإنسان نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى نظراً لأهميته قد أطلق عليه سفات وأسماء عديدة وقد سبق أن عرضنا بعضها فإلى جانب ما ذكرناه أطلق على هذا اليوم.

(1) سورة القيامة، الآية: 10.

(2) سورة غافر، الآية: 32 ـ 33.

(3) سورة المزمل، الآية: 17 ـ 18.

(4) الإمام الرازي في تفسيره، ج 30، ص 183 ـ 184.

يوم الفتح:

قال تعالى:

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[1].

والمراد بيوم الفتح هو يوم الحكم والقضاء، وقيل يوم إزالة الشبهة بإقامة القيامة، وقيل ما كانوا يستفتحون من العذاب ويطلبون[2].

ويسمى يوم التلاقي:

قال تعالى:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ﴾[3].

والمراد بالتلاق هو يوم ملاقاة الله عز وجل، عبارة عن القيامة وعن المصير إليه قال تعالى: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ وقال تعالى: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي نسيتم القيامة والبعث والنشور[4].

ويسمى يوم الجمع والتغابن:

قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[5].

والمراد بالتغابن يوم يغبن فيه أهل الجنة أهل النار، ويقال يوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المبايعة المذكورة وقيل المراد به أنه اليوم الذي يتغابن فيه الكفار، فهم فريقان فريق لا يقول لولا أنتم لكنا مؤمنين. فهو يخفى زيفه الذي أدى به إلى الكفر ظناً منه أن ذلك ينجيه، وفريق يتبرأ من

---

(1) سورة السجدة، الآية: 29.

(2) الأصفهاني ـ «المفردات في غريب القرآن» ص 370.

(3) سورة سورة غافر، الآية: 15 ـ 16.

(4) الأصفهاني ـ المرجع السابق، ص 453.

(5) سورة التغابن، الآية: 9.

الفريق الأول فأئمة الشرك يخفون إضلالهم الكفار ويزعمون أنهم كانوا غافلين عن عبادتهم ليفلتوا من نصيبهم من ذنوبهم، ويتركوه على كواهلهم وحدهم.

ويسمى يوم الخروج:

يوم ينادي المنادي من مكان قريب.

قال تعالى:

﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾(1).

المراد بيوم الخروج يوم القيامة وهو يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور، يوم يسمعون الصيحة.

ويسمى يوم الحسرة:

قال تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(2).

المراد بيوم الحسرة يوم القيامة إذ الحسرة تفيد الغم على ما فات والندم عليه والمعنى في هذه الآية خطاب موجه إلى محمد ﷺ أنذرهم يا محمد يوم الحسرة وقد قضى الأمر وهم غافلون وأعلمهم أن الله يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجع الأمر كله(3).

ويسمى يوم التنادي:

قال تعالى:

---

(1) سورة ق، الآية: 41 ـ 42.

(2) سورة مريم، الآية: 39.

(3) محمد حجازي ـ التفسير الواضح، ج 2، ص 10.

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾[1].

المراد بيوم التنادي هو يوم يتنادى فيه أهل الجنة والنار. والآية مقصود بها بيوم التنادي يوم القيامة وما أكثر النداء فيه، وينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم - كما ذكر هذا في سورة الأعراف - وينادي المنادي بالشقوة لأهل الشقوة، وبالسعادة لأهل السعادة، وفيه تنادي الملائكة كلاً بما يستحقه.

فيوم التنادي: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[2].

ويسمى الأزفة:

قال تعالى:

﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ * لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[3].

المراد بأزفت الأزفة أي دنت القيامة وقربت وليس لها من دون الله نفس تكشفها وتزيلها بل الأمر يومئذٍ لله سبحانه وتعالى وعبر عنها بالماضي لقربها وفيها قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾[4].

ويسمى الطامة:

قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ * يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾[5].

والمراد بالطامة هي الداهية لأنها تطم على كل شيء، أي تعلوه وتغطيه فإذا جاءت الداهية الكبرى والتي يتضاءل أمامها كل حدث وهي يوم القيامة،

---

(1) سورة غافر، الآية: 32.

(2) سورة غافر، الآية: 33.

(3) سورة النجم، الآية: 57 - 58.

(4) سورة غافر، الآية: 18.

(5) سورة النازعات، الآية: 34 - 35.

يوم يتذكر الإنسان ما كان قد علمه فيراه مكتوباً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها عندئذٍ تبرز جهنم ويفصل الله بين الخلائق فمنهم الشقي ومنهم السعيد أما الشقي الذي طغى وتجاوز حدود الله وآثر الدنيا على الآخرة فإن الجحيم هي المأوى وأما من آثر الآخرة وخاف قيامه يوم القيامة بين يدي العزيز الجبار ونهى نفسه عن هواها واتقى الله فإن الجنة هي المأوى.

ويسمى يوم الفصل:

قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

المراد بالفصل الإبانة والإيضاح بين أحد الشيئين من الآخر، وهذا يوم الفصل أي اليوم الذي يبين فيه الحق من الباطل ويفصل بين الناس بالحكم وعلى ذلك يفصل الله بينهم وهو خير الفاصلين.

وقد ورد ذكر هذا اليوم في القرآن ست مرات، وسمي يوم الفصل وهو يوم القيامة يوم يفصل بين الناس لأن الفصل أدق في معنى الفرق بين الشيئين لم يمتزجا فيعدا كشيء واحد.. وهكذا الفرق بين الصالح والطالح فليس بين الصلاح والطلاح فرق بين، بل في كل امرىء قدر من كليهما والفرق بين العمل الصالح والعمل الطالح كذلك فهما مراتب يختلف في تقديرها ولا يسهل الحكم بأحدها، فكان الفصل أدق في أداء معنى الحساب الدقيق والحكم العادل. وهذا من جواب الملائكة للكفار أو من جواب الكفار بعضهم لبعض على سبيل التذكير والتوبيخ. فقيل لهم أو قالوا لأنفسهم إنه يوم القضاء العادل واستعمال الفرق في هذا المقام من الفصل بين المؤمنين والكفار، فيه معنى الشدة.

ويسمى الحاقة:

﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[2].

المراد بالحاقة الساعة التي تحقق أمور البعث وتثبتها وهي المحققة

---

(1) سورة الصافات، الآية: 21.

(2) سورة الحاقة، الآية: 1 ـ 3.

الوقوع وكأن النفس لغرابتها وهولها تتساءل عنها قائلة ما الحاقة. أليس عجباً من الإنسان وخاصة المكذبين للبعث لا يدرون ما الحاقة على حقيقتها ثم يكذبون بها. وجزاء من يكذب بها ما حصل لعاد وثمود. فالله سبحانه وتعالى يخاطب محمداً ﷺ ليصبر على تكذيب قريش للبعث ويعده الله بأنه معه ويحذر المكذبين عاقبة عملهم.

ويسمى الصاخة:

قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1].

المراد بالصاخة يوم القيامة وهي التي تصم الآذان من شدتها وتتم بالنفخة التي تقوم بها، ويذكرنا الله سبحانه وتعالى بيوم القيامة وأهواله التي تجعل الإنسان يذهل عن أحب الناس إليه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[2].

أي أن الإنسان الذي كان يفر من الدنيا إليهم ويستجير بهم فإنه يفر منهم في دار الآخرة والسبب في ذلك أن ما هو عليه يغنيه ويصرفه ويصده عن قرابته[3].

ويسمى يوم الغاشية:

قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[4].

(1) سورة عبس، الآية: 33 ـ 37.

(2) سورة عبس، الآية: 34 ـ 37.

(3) الإمام الرازي، المرجع السابق، ج 30، ص 64.

(4) سورة الغاشية، الآية: 1.

المراد بالغاشية الداهية التي يغشى الناس هولها وذكروا في الغاشية وجوهاً:

أحدها أنها القيامة من قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[1] إنما سميت القيامة بهذا الاسم، لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له، (أو) أنها ترد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾[2].

(والثاني) أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين.

(والثالث) أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد[3].

ويسمى الواقعة:

قال تعالى:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[4].

الوقوع ثبوت الشيء وسقوطه والواقعة لا تقال إلا في الشدة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ وقع، جاء في العذاب والشدائد كقوله تعالى:

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[5].

وقال تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾[6].

والمراد بالواقعة في هذه الآية أنه إذا وقعت القيامة الواقعة أو الزلزلة

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 55.
(2) سورة يوسف، الآية: 107.
(3) الإمام الرازي، المرجع السابق، ج 30، ص 150.
(4) سورة الواقعة، الآية: 1 ـ 3.
(5) سورة المعارج، الآية: 1.
(6) سورة الحاقة، الآية: 15.

الواقعة يعترف بها كل أحد، ولا يتمكن أحد من إنكارها، ويبطل عناد المعاندين فتخفض الكافرين في دركات النار، وترفع المؤمنين في درجات الجنة، هؤلاء في الجحيم وهؤلاء في النعيم[1].

ويسمى القارعة:

قال تعالى:

﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[2].

القرع الضرب بشدة وسميت الحادثة العظيمة القارعة لأنها تقرع أصحابها وتصك آذانهم فالقارعة إذن هي من حوادث الدهر العظيمة.

قال تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾[3].

والقارعة هي التي تقرع الناس بالأهوال والافزاع، وذلك، في السموات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكور، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الأرض بالطي والتبديل كما أنها تقرع أعداء الله بالعذاب والخزي والنكال، واتفق المفسرون على أن القارعة اسم من أسماء يوم القيامة. يوم الفزع الأكبر والهول الشديد[4].

وهكذا نجد أن الأسماء المتعددة ليوم القيامة إنما في حقيقتها لمدلول هذا اليوم يثير الوجدان والخيال معاً. ويهز النفوس خوفاً وفزعاً وهولاً. ومع ذلك لا يمكن تصور وقائع أحداث هذا اليوم، فالله سبحانه وتعالى يعلم وحده ما سيحدث فيه من صور ووقائع صريحة لا لبس فيها، ومع ذلك فإنه بالنسبة للإنسان من العسير عليه مهما أوتي من قدرة إدراك حقيقتها وتحديد مداها بصراحة ووضوح لأنها من الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه،

(1) الإمام الرازي، المرجع السابق، ج 30، ص 139.

(2) سورة القارعة، الآية: 1 ـ 3.

(3) سورة الرعد، الآية: 31.

(4) الإمام الفخر الرازي في تفسيره، ج 32، ص 70.

كيفما كانت قدرته، إذ هذا اليوم وما يحدث فيه أعظم من تقدير الإنسان فإنها تثير الوجدان باعتبارها واضحة وصريحة في بيان الصفة التي تهز النفس وعلى هذا فقد استعمل القرآن الكريم في التعبير عنها ألفاظاً تصدق في معانيها على ما تصدق على كثير من الأحداث التي تقع بمدلول اللفظ وما يعطيه من معنى، إذ يقدر ما يرتبط الشيء الموصوف بغيره كثرة وعمقاً يوحي في الوقت ذاته بكثير من المعاني المتعددة والعميقة، فاستعمال اللفظ الثري بألوان الإيحاء لشيء معين يثير معاني عديدة تختزن في الذهن وتفسح للخيال تصوره بصور عديدة كما أنه يهز النفس تبعاً لهول المعنى للفظ في مدلوله ومبتغاه. وعلى هذا نستطيع القول إن أسماء اليوم الآخر أو يوم القيامة في القرآن جمعت في ألفاظ جميعها مروعة فالساعة، والصاخة، والغاشية، والفصل، والحاقة، والقارعة، كل هذه تحتوي المعاني الكبيرة والواسعة للدلالة على أوصاف المسمى يوم القيامة إذ تتم بأمر الله في لحظة محددة تبعاً لقدرته فيقول للشيء كن فيكون فينفخ في الصور فيصعق من في السموات والأرض من مخلوقات إلا ما شاء الله سبحانه وتتوالى الأحداث وتتزاحم فإذا بالخلق قد برزوا للواحد القهار فيقومون للحساب.

أثر اليوم الآخر على سلوك الإنسان:

ويبدو لنا أن الإكثار من أسماء يوم القيامة ووصف أهواله إنما يرمي إلى حكمة بالغة، فالإنسان إذ خلق على الأرض لتحقيق رسالة الخلافة عن الله في الأرض وقد كلف بالقيام بالالتزامات والواجبات التي فرضت عليها والانتهاء عن النواهي التي نهى عنها، وبهذا فهو لم يترك سدى وإزاء هذا فهو مساءل يوم القيامة عن هذه الرسالة أمام الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا يقتضي أن يؤمن إذن بيوم القيامة وما يجري فيه بعد البعث من حساب وجزاء من ثواب وعقاب وما فيه، الجنة والنار والفلاح والخسران، هذا الإيمان بطبيعته يوجه الإنسان نحو القيام بالتزاماته بالعمل الصالح ليتزود ليوم الآخرة بالثواب والفوز وهذا لا شك له أقوى الأثر في نفس الإنسان المؤمن، إذ يخشى الله في كل عمل يقوم به، أما الذي لا يعتقد بهذا اليوم وينكر وجوده فهو ينكر الحساب والعقاب. ذلك أن الإنسان إذ لا يردعه رادع ولا تخيفه منافعه الذاتية دون أن يقيم أي اعتبار لأي قيم بمعنى أنه يتصرف دون أن

يكون له أي ضابط أو رابط، فيتبع هواه ويجري وراء شهواته. على خلاف المؤمن، كما ذكرنا، فهو منضبط في حدود الحق والخير ومندفع نحو الصلاح، وهذا ما أشار الله سبحانه وتعالى إليه فقال:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[1].

وهكذا نجد أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الإيمان والعمل الصالح إذ بمقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر يندفع الإنسان نحو العمل الصالح لينال رضى الله سبحانه وتعالى طالما أنه ملاق ربه يوم القيامة ومساءل عن أفعاله وتصرفاته قال تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾[3].

هذا وإذا كان الإنسان أصلاً مفطوراً على طلب المصلحة لنفسه ودرء المفسدة عنها، فإن الإيمان باليوم الآخر يقوى عنده الوازع الديني ويجعله يطبق مقولة «إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» وبهذا الإيمان يبتعد الإنسان عن الشر. ويكون الإيمان باليوم الآخر الأساس في تقويم سلوكه، إذ لولا الإيمان لانحرف الإنسان عن طريق الخير، لأن النفس البشرية

(1) سورة الأعراف، الآية: 8 ـ 9.
(2) سورة الماعون، الآية: 1 ـ 3.
(3) سورة الممتحنة، الآية: 6.

بطبيعتها نزاعة إلى الاستمتاع بالحياة الدنيا على الرغم من أنها متاع الغرور، قال تعالى:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

هذا الاهتمام من القرآن بالتذكير باليوم الآخر إنما فيه موعظة إذ نبه الناس على وجوب التقيد بأوامر الله والالتزام بحدود الله لأن من أخل بشيء منها فقد ظلم نفسه وأضر بها لأن حدود الله إنما وضعت لمصلحة الإنسان ومخالفاتها بعرضه للمساءلة يوم الآخرة.

قال تعالى:

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[5].

وبما أن النفس بطبيعتها نزاعة للنسيان والغفلة، كما وتتثاقل في القيام

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 185.

(2) سورة النساء، الآية: 77.

(3) سورة الرعد، الآية: 26.

(4) سورة النحل، الآية: 117.

(5) سورة الطلاق، الآية: 2.

بالتزاماتها، كان من الضروري دائماً التذكير باليوم الآخر وما فيه من عذاب أو نعيم، للترهيب والترغيب، وبهذا يحقق الإنسان من الغلو في التهافت على حب الدنيا، فيعلم أن ما فيها من متاع أو شهوات لا تستحق هذا التهافت فيعدل نفسه نحو الاهتمام بما سيقدمه يوم الآخرة من عمل في سبيل الله.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1]. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الإيمان باليوم الآخر يجعل الإنسان مؤمناً بالقيم الإنسانية التي شرعها الله فيتجه نحو العمل الصالح، وبهذا نجد أن المحرك الأساسي بالعمل الصالح بما ينفع الناس إنما يكمن في الإيمان بشموله المطلق بما فيه الإيمان باليوم الآخر وعلى هذا يكون اليوم الآخر هو الدافع لعمل الإنسان وحركته وسلوكه الخير في الدنيا وبهذا يكون اليوم الآخر له أثره البعيد على حياة الإنسان بل هو صمام الأمان في مساءلته يوم القيامة طالما أنه عمل صالحاً بما يرضي الله وحقق الثواب والخير والطمأنينة لنفسه في الدنيا وفي الآخرة وفاز فوزاً كبيراً وأضحى من الصالحين.

قال تعالى في حق هؤلاء مشيراً إلى جزائهم ومرتبتهم ووضعهم:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ

(1) سورة التوبة، الآية: 38.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 9.

ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[1].

وبهذا نجد أن الإيمان بمعناه الشامل للعقيدة الإسلامية يحقق بطبيعته العمل الصالح ويسلك الناس فيه. إذ لا يمكن أن يقوم إيمان دون عمل صالح، وبهذا يتميز المؤمنون الذين عملوا الصالحات بميزة حسنة ودرجات عالية.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾[4].

هذه الميزة العالية هي مرتبة الرضا عند الله سبحانه وتعالى فمن رضي الله عنه يدخله في رحمته ويدخله جنة المأوى، كما ويجزيه من فضله ويعده برعايته بالمغفرة والرزق الكريم.

فقال تعالى:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[5].

---

(1) سورة البينة، الآية: 7 ـ 8.

(2) سورة طه، الآية: 75.

(3) سورة الجاثية، الآية: 21.

(4) سورة الجاثية، الآية: 30.

(5) سورة السجدة، الآية: 19.

وقال تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾[2].

وبهذا نجد أن الفارق واضح بين المؤمنين والكافرين، وبين الصالحين والمفسدين كالفارق بين الأعمى والبصير وعلى هذا الأساس يجب على الإنسان بمقتضى إيمانه وشمول هذا الإيمان لمفاهيم العقيدة الإسلامية ومشتملاتها أن يؤمن باليوم الآخر وبكل ما يحدث فيه من غيبيات ووقائع ابتداء من الموت والنفخ في الصور والبعث والحشر والحساب والجنة والنار نظراً لما لهذا الإيمان من أثر بعيد على حياة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة.

(1) سورة الحج، الآية: 50.

(2) سورة غافر، الآية: 58.

الإنسان في الدنيا

الباب الثالث

الفصل الأول

خلق الإنسان

يتوالد الإنسان في هذه الدنيا تبعاً لقاموس التوالد والتكاثر في الأحياء. هذا القاموس قائم عند جميع المخلوقات الحية على اختلاف أنواعها ومع ذلك فإن التوالد والإنجاب لا يتم بإرادة الإنسان، كما لايمكنه أن يتحكم في موعد ميلاد الطفل أو في شكل المولد أو في جنسه ذكراً كان أو أنثى، أو في تحقيق الحمل أصلاً، إذ كثيراً ما نجد زوجين على أتم ما يكون من الصحة، لا يشوب قدرتهما على الإنجاب قصور ظاهر أو واضح، وعلى الرغم من سلامة الفحوص وحسن نتائجها ومع ذلك يفشلان في الحصول على مولود ذلك لأن إيجاد المولود إنما هو ناجم عن عملية خلق والخلق انفرد به الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء قال تعالى:

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان لحكمة يريدها وهدف يقصده تبعاً لعلمه ومبتغاه، كما وخلق الكون لكنه لم يخلقه مجرداً من الإنسان. لأن الإنسان مستخلف في الأرض فاستمرار الكون إذن يظل قائماً ما دام الإنسان فيها مستمراً ومتوالداً ومتكاثراً إلى أن يشاء الله إنهاء الحياة على هذا الكون فينهي الكون وما عليه من مخلوقات عامة يوم القيامة وهكذا نجد أن الخلق عامة لا يقدر عليه أحد غير الله سواء كان إنساناً أو حيواناً أو ذباباً.

قال تعالى:

(1) سورة المائدة، الآية: 17.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾(2).

والمراد أنه سبحانه خلق الإنسان من ماء مهين هو ماء النطفة فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكراً أو أنثى فكون له المصاهرة والقرابات من جراء التزاوج فيما بين الناس. هذا الخلق تم بقدرة الله الذي خلق الإنسان من ماء مهين، فخلقه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة هذا قد أتمه الله تبعاً لقواعد، ووفقاً لناموس التكوين في الخلق وتبعاً لما يشاء، وخلق للإنسان الأعضاء، والمقومات والقدرات، خلقه فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركبه وقد خلقه من نفس واحدة.

قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾(3).

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾(4).

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾(5).

---

(1) سورة الحج، الآية: 73.

(2) سورة الفرقان، الآية: 54.

(3) سورة النحل، الآية: 4.

(4) سورة الانفطار، الآية: 6 ـ 7.

(5) سورة النساء، الآية: 1.

هذا وأن أصل خلق الإنسان إنما خلق من تراب من طين من صلصال كالفخار قال تعالى مشيراً إلى ذلك:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٍ كَٱلۡفَخَّارِ﴾(2).

هذا وقد بين القرآن مراحل تكوين الإنسان في بطن أمه وخلقه من بعد خلق في ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة ثم ظلمة الرحم. ثم ظلمة البطن قال تعالى:

﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقًا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ﴾(3).

هذه المراحل أشار إليها الله سبحانه وتعالى وشرحها وأبان فيها تطور نمو الإنسان بعد الولادة إلى أن ينتهي إلى الشيخوخة فبين خلق الإنسان وانتهاءه فذكر خلقه من تراب.

أولاً: خلق الإنسان من تراب:

التراب منه خلق آدم، ثم وضح الله صورة هذا الخلق من حيث الانطلاق أي ابتداء من خلية التكوين وهو المني سواء كان المخلوق ذكراً أو أنثى وهذا المني يتكون من الدم، والدم يتكون من الغذاء، والغذاء سواء كان نباتاً أو حيواناً فهو من الأرض وبهذا صح أن كل إنسان خلق من تراب، والتراب بتحليله معملياً نجد فيه الكربون، والاكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت، والآزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور والمغنسيوم والحديد، والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمونيوم.

---

(1) سورة السجدة، الآية: 7.

(2) سورة الرحمٰن، الآية: 14.

(3) سورة الزمر، الآية: 6.

وإذا حللنا جسم الإنسان أيضاً معملياً وجدنا العناصر نفسها وهكذا وضح ما أورده الله سبحانه وتعالى مقيماً الحجة على من كفر بالله.

قال تعالى:

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[1].

ثانياً: خلق الإنسان بجعله نطفة وهي المرحلة الثانية:

هذه النطفة هي سلالة من ماء مهين فالله بقدرته حوّل التراب اليابس إلى ماء فيه حيوانات منوية ولا علاقة بينها ولا مناسبة ولكنها قدرة الله العجيبة القادر على كل شيء.

ثالثاً: خلق الإنسان بجعله علقة وهي المرحلة الثالثة.

والعلقة نطفة من الدم الجامدة، ولا شك أن بين المني كماء والدم الجامد مباينة، ومع هذا فقد تحول الماء إلى دم جامد بقدرة قادر، وفي هذا إشارة إلى أنه لا معنى لاستبعاد الإعادة بسبب التحول من مادة إلى أخرى فإنه ثابت في بدء الخلق.

رابعاً: خلق الإنسان بجعله مضغة وهي المرحلة الرابعة:

والمضغة قدر ما يمضغ من اللحم، وانظر أصلها الأول وكيف وصل التراب إلى ماء ثم إلى لحم يمضغ!! وهذه المضغة قد تكون مخلقة مسواة سالمة من العيوب والنقصان، تمت فيها أحوال الخلق ورسومه وقد تكون غير ذلك.

وهكذا تمر هذه المراحل بما يسمى بمدة الحمل فقد يولد الجنين لستة أشهر أو لتسعة أشهر أو لسنة أو لسنتين على رأي بعض الفقهاء إذ قالوا إن أقل مدة الحمل ستة أشهر ولحظتان ونهايته أربع سنين[2]. هذا وبعد أن تنتهي مدة الحمل يمر الإنسان بمراحل أيضاً وهي:

1 ـ مرحلة الخروج من بطن الأم طفلاً يتنفس ويعيش ويغذي كما كان

---

(1) سورة الكهف، الآية: 37.

(2) محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، ج 2، ص 61.

يطعم ويغذي ويتنفس وهو في بطن أمه ولكن هناك فارقاً بين حالة الطفل في بطن أمه وحالته في الحياة العامة بعد الولادة.

2 ـ مرحلة النماء والتقوية في هذه المرحلة يشتد عود الطفل وتبعاً لغريزة وحب البقاء يرضع ثدي أمه فيتغذى في هذه المرحلة ليعيش حتى يبلغ أشده وكمال قوته وعقله عندما يبلغ سن الشباب.

3 ـ مرحلة الشيخوخة وهي مرحلة الضعف سواء في القوى الجسدية أو القوى العقلية ففي هذه المرحلة تضعف خلايا الجسم ثم تتبدل إلى أضعف وهكذا يصل إلى مرحلة الضياع بحيث لا يعلم مما كان يعلمه وهذا مصداق لقوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[1].

كل هذه المراحل ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله:

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[2].

وهكذا تم خلق الإنسان بقدرة الله القادر، كما خلق هذا الوجود فخلق فيه البشر مختلفين بأشكالهم وصورهم. أو صور آبائهم وأمهاتهم. ووضع غريزة الإنجاب ليستمر التناسل وتنجب الأولاد والأحفاد، ويستمر وجود الإنسان، كل هذا تقرر بإرادته سبحانه وتعالى منذ الأزل، حيث يتزاوج

---

(1) سورة الروم، الآية: 54 .

(2) سورة الحج، الآية: 5.

الرجل بالأنثى، وقد يتم الإنجاب أو لا يتم كل ذلك يتم بمشيئة الله الحاكمة وتبعاً لإرادته وحكمته البالغة فلا يملك إذن أحد بإرادته أن ينجب أو يعين إنجابه ذكراً أو أنثى وفقاً لمشيئته إنما الأمر لله وحده يعطي ويمنع من يشاء ويهب لمن يشاء أولاداً ذكوراً ويهب لمن يشاء إناثاً ويعطي لمن يشاء ذكوراً وإناثاً فيزاوج بينهما. ويجعل من يشاء عقيماً فلا يحقق له إنجاباً بالمرة.

قال تعالى:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1].

تلك حكمته وقضاؤه وقدره، ولا راد لقضائه أو قدره أو مشيئته، خلق الإنسان وكرمه وحدد أجله بزمن محدود فلا يملك أحد مده أو قصره، فإذا خلق الإنسان قضى الله له أجلاً يعيش به في الدنيا إلى أجله المحدود.

قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3].

وهناك أجل آخر وهو أجل الدنيا حيث تنتهي إلى مصيرها إلى الحياة الآخرة التي لا يعلم أحد عن ميعادها شيئاً ولم يطلع عليه حتى ولو نبياً مرسلاً قال تعالى:

---

(1) سورة الشورى، الآية: 49 ـ 50.

(2) سورة الأنعام، الآية: 2.

(3) سورة الأعراف، الآية: 34.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ﴾[2].

وعلى هذا نجد أن الإنسان لم يخلق بإرادته كما لا يتوفى بإرادته، إنما خلقه ووفاته يتم بأمر الله وقدره هذا، وقد يمرض الإنسان ويحاول أن يوقف أجله، ولو إلى حين، ويحاول فتفشل محاولاته فيموت، أو تنجح محاولاته فيعيش على أن هذا لا يعني أنه قد مد أجله بإرادته، بل معنى ذلك أن أجله لم يحن بعد، حتى لو حاول الإنسان الانتحار ونجح في هذه المحاولة لا يعني أنه قد أنهى حياته بل إن لحظة انتهاء أجله قد حلت، وأن أجله مقدر ومحدد بالانتحار.

وكذلك الأمر بالنسبة لمن مات فجأة وهو في ريعان شبابه وذروة قوته وتمام صحته، إذا جاء أجله فلا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم. إنها أنفاس محدودة في أيام معدودة لا بد بانتهائها من أن ينتهي أجل الإنسان فينتقل من عالم الدنيا إلى عالم آخر، وهو من عوالم الغيب فيدرك بذلك حقيقة قدرته وأنه عاجز ضعيف لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة.

قال تعالى:

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 187.

(2) سورة المنافقون، الآية: 11.

(3) سورة النساء، الآية: 28.

﴿يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[1].

هذا الإنسان الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، خلقه في أحسن تقويم فقد خلقه في منتهى البهاء والدقة ففيه تظهر آثار قدرته وعظمته في خلق هذا الكائن، إذ كل ما فيه معجزة، عقله كيف يعمل ويفكر وماذا يطرأ عليه؟ وكيف يتذكر الأحداث ويحاكم الأمور؟ ويتصور ويتخيل كل هذه الأمور تصدر عن المخ الذي انطوى فيه سر عقل الإنسان كذلك جهاز البصر كيف يبصر الإنسان وكيف تنقل العين الصور إلى الشبكية؟ ثم تنعكس ثانية ليدركها الإنسان إنها معجزة أيضاً!! وكذا بالنسبة للسمع أيضاً إنه يتم بواسطة جهاز في منتهى الدقة أيضاً، وهكذا نجد في كل حاسة، بل في كل عضو من أعضاء الإنسان معجزة تدل على قوة الله سبحانه وتعالى وقدرته وعظمته الخلاقة في كل ما خلق.

هذا الإنسان الكائن العجيب الصنع والعظيم التكوين يسعى ويعمل ويكدّ ويستريح ليجدد قدرته ويحفظها، فينام سواء في الليل أو في النهار لا بد له من النوم لتستمر الأعضاء في القيام بوظائفها ويستعيد قوته وطاقاته وهو محكوم بها، سنة الله لا يملك الإنسان تبديلها أو تغييرها.

قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[2].

لا شك أن النوم فيه راحة للإنسان بل هو موت أصغر وفيه تختلف الحساسية والمقدرة على التفكير، إذ يختفي عند النوم الإدراك ويترك الإنسان العمل والحس اليومي ليستريح جزءاً من الوقت في النوم فيكون أشبه بالميت ثم يعاوده النشاط عند اليقظة، مجدداً ليبتغي من فضل الله فيسعى للاكتساب والرزق. وهذه القوى العقلية، ومقومات الإدراك والحس أين ذهبت؟ وكيف

(1) سورة الفرقان، الآية: 3.

(2) سورة الروم، الآية: 23.

توقفت؟ وكيف تعود؟ إنها آية من آيات الله.

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

والمراد بهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى إذ يتوفى الأنفس معنى ذلك أنه يقبضها عن أبدانها حين موتها، بحيث لا يستقدمون عنه ساعة من الزمن ولا يستأخرون وهذا هو الموت أي النوم الأكبر كما يتوفى الله أيضاً الأنفس التي لم تمت في نومها أي أنه سبحانه وتعالى يتوفى هذه الأنفس في وقت نومها حيث يقطع تعلق الأرواح بالأبدان حتى لا تتصرف فيها إلا بقدر. وهكذا نجد أن توفيها حين الموت إنما هو قطع لتصرف البدن في حركاته الظاهرة والباطنة وهو انقطاع مطلق لا رجوع فيه، بينما حين يتوفاها الله في النوم الأصغر فإن الانقطاع الذي يتم إنما هو انقطاع ظاهري ولوقت محدد، ثم تعود الروح بعد ذلك إلى الجسم، ففي النوم الأكبر يمسك الله التي قضى عليها بالموت، وفي النوم الأصغر يرسل الروح إلى أجل مسمى، فالنوم إذن إنما هو انطلاق للروح مؤقت ثم تعود وتتكرر العملية إلى أن تخرج الروح ولا تعود وبهذا يكون الموت، وتنتقل النفس من حياة الدنيا التي كانت تعرفها، وتدرك أبعادها إلى حياة لا يعرف أحد حقيقتها إلا في حدود ما أخبر به القرآن، فهي حياة من عالم الغيب لا يمكن إدراك وقائعها، لأنه ما من أحد مارس عليها التجربة بالذهاب إليها ثم بالعودة منها، فمن ذهب فقد ذهب نهائياً عن هذه الدنيا ويتساوى مع من ذهبوا من آلاف السنين، ولا يعود إلا حيث يبعث من جديد يوم القيامة. فالإنسان إذن على هذا الأساس مكون من جسد وروح، وإذا كان أمر الجسد ظاهراً علينا وقد توصل العلم إلى إدراك كنهه ومقوماته الإنمائية وتركيبه من عظام وعضلات وأعصاب ودم وخلايا وأنسجة وعناصر عضوية ومعدنية، من حديد ورصاص وكربون

---

(1) سورة الزمر، الآية: 42.

وآزوت وكالسيوم وبوتاسيوم وصوديوم إلى غير ذلك من عناصر التراب، فإن الروح بقيت عالماً مجهولاً بالنسبة للإنسان لا يمكن معرفة كنهها إنما جل ما نعرفه عنها أنها القوة الخفية التي يحكم بوجودها على أن الإنسان حي وبذهابها يكون الإنسان ميتاً.

هذا وقد لخص الإمام الأصفهاني وضع الإنسان وخلقه وسلوكه في الحياة إلى أن يتوفى بمراحل كما ذكر العناصر التي منها وجد الإنسان فقال: (ذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه السلام ونبه على أنه جعله إنساناً في سبع درجات، وأشار إلى ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة فقال في موضع خلقه من تراب إشارة إلى المبدأ الأول وفي آخر من طين إشارة إلى الجمع بين التراب والماء. وفي آخر من حمأ مسنون إشارة إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير. وفي آخر من طين لازب إشارة إلى الطين المستقر على حاله من الاعتدال يصلح لقبول الصورة. وفي آخر من صلصال من حمأ مسنون إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه. وفي آخر من صلصال كالفخار وقد أصلح بأثر من النار وسماع فصار كالخزف... ثم نبه الله على تكميل الإنسان بنفخ الروح فيه فقال:

﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1].

فهذه سبع درجات نبه عليها كما نرى، ثم دل على تكميل نفسه بالعلوم والآداب بقوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي أوجدها حالة بعد حالة فنبه على أنه جعلهم أناساً في سبع درجات حسب ما جعل آدم عليه السلام فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

(1) سورة ص، الآية: 71 ـ 72.

ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

أشار به إلى ما جعل له من قوة العقل والفكر والنطق. فإن قيل كيف حكم على جميع الناس أنه خلقهم من سلالة من طين والمخلوق منها هو آدم دون أولاده. قيل إن ذلك على وجهين:

أحدهما: أنه لما خلق آدم من سلالة من طرين فأولاده الذين منه هم أيضاً منها.

الثاني: إن الإنسان يتكون من النطفة ويتربى بدم الطمث.

ثم يستمر الأصفهاني ليبرهن على أن خلق الإنسان من سلالة من طين فيقول:

وهما يتكونان من الغذاء، والغذاء يتكون من الحيوان، والحيوان من النبات، والنبات من سلالة طين، فإذا الإنسان على الحقيقة من سلالة من طين وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[3].

وقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[4]. فجعله الله تعالى من

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 12 ـ 14.

(2) سورة عبس، الآية: 25 ـ 26 ـ 27 ـ 28.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 12 ـ 13.

(4) سورة فاطر، الآية: 11.

تراب على هذا الوجه وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[1]، وفي آخر خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، وعنى بالإنسان ههنا آدم ولذلك قال ثم جعل نسله فاقتصر ههنا على النطفة دون المبدأ الأول الذي هو التراب[2].

فالإنسان الذي خلقه الله من تراب بمعنى أنه خلق من جماد ميت قال تعالى:

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[3]. أي حيث كان تراباً وطيناً وصلصالاً ثم يصير نباتاً كما قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[4].

هذا الإنسان يتصف بعدئذٍ بطبائع خلقها الله فيه فحيث كان نطفة وعلقة ومضغة معنى ذلك أنه اكتسب بهذا الخلق الصفة الحيوانية فيتبع بطبعه بعض ما ينقصه ويحترز ويبتعد من بعض ما يضره، ثم يصير إنساناً مختصاً بالأفعال الإنسانية وقد نبه الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[5].

طبيعة خلق الإنسان وسلوكه:

إن الإنسان بطبيعة خلقه وجدت فيه قوى متنازعة. فأول ما تظهر فيه قوة النزاع الموجودة في النبات والحيوان، كما تظهر فيه قوة الاندفاع نحو الموافق ودفع المخالف. كما تظهر فيه قوة النزاع بين الحسن والقبح وبين الخير والشر فيأخذ ما يوافقه ويدفع عن نفسه ما لا يوافقه فتكون لديه مقومات ليقدر بها على الاختيار وعلى هذا يكون لديه الحس والتخيل

---

(1) سورة الروم، الآية: 20.

(2) الراغب الأصفهاني - «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ط 1323، ص 19 - 20.

(3) سورة البقرة، الآية: 28.

(4) سورة نوح، الآية: 17.

(5) سورة الكهف، الآية: 37.

والتصور والتفكر ثم العقل، فهو والحالة هذه لم يصر إنساناً على الوجه المقصود إلا بالفكر والعقل الذي به يميز بين الخير والشر وبين الجميل والقبيح وهذه القوى تبعاً لاستعمالها والعمل بمقتضاها أو الابتعاد عنها تحدد طبيعة وسلوك الإنسان، فالله سبحانه وتعالى إذن خلق الإنسان وزوده بالمقومات الضرورية التي تحقق له التصرف تبعاً لاختباره واستعماله لهذه المقومات وقد أحسن تصويره على هذا الأساس فقال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(1).

وهكذا نجد أن الإنسان بفعله واختياره يصير مركزاً للحكمة ومعدناً للعلم بوجود العقل فيه ابتداءً وهو الأساس في إسعاد نفسه أو شقائها في الدنيا والآخرة.

وإذا كانت نفس الإنسان على ما ذكرناه واقعة بين قوتين قوة الشهوة وقوة العقل فإننا نجد أنها بطبيعة قوة الشهوة تتجه نحو تناول اللذات البدنية من طعام وشراب وسائر اللذات العاجلة الحيوانية كما أنه بقوة العقل يحرص الإنسان على تناول العلوم النافعة والأفعال الجميلة والأمور المحمودة، وبهذا نلاحظ أن طبيعة الإنسان تتحرى ما فيه اللذات تبعاً لطبيعتها الحيوانية وتقدم عليها سواء كانت من المحسوسات أو المذوقات أو الملموسات أو المسموعات أو المبصرات كما تتحرى تبعاً لصفتها وطبيعتها العقلانية اللذات الروحية والفكرية والإنسانية كلذة العلم وعمل الخير وفعل الحسن.

ومع ذلك فإن الإنسان يندفع نحو اللذات المحسوسة وهي التي تغلب على سلوكه، وذلك لأنها موجودة في الطبيعة الإنسانية من قبل، وهي نزاعة إليها قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾(2).

من هذا المنطلق تجنح النفس إلى الهوى وتتثاقل أو تكره ما يأمر به العقل أو يحض عليه، وقد قيل: «العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع»

---

(1) سورة غافر، الآية: 64.

(2) سورة القيامة، الآية: 20 ـ 21.

ولهذا نجد طريق الخير محفوفاً بالمكاره، بينما نجد طريق الشر محفوفاً بالشهوات، وأنه لا يسلك الإنسان طريق الخير أو ينقاد إلى ما فيه مصالحة الخيرة إلاّ بضرب من القهر، تبعاً للقوى المتنازعة في النفس، قوى الخير وقوى الشر، لذلك كان على الإنسان أن يجاهد هواه إلى أن يتم له التغلب على العقبة، فينجو مما فيه أذىً لنفسه إلى ما يحقق فيه السعادة يوم القيامة لأن النفس بطبيعتها لها نظرتان نظرة إلى فوق وهي نظرة نحو العقل والحكمة والتي منها تستمد الخير وتتجنب الشر، ونظرة إلى تحت وهي نظرة نحو الهوى فتألف الخسيسات من الأفعال ورذائل الأعمال وإذا كانت النفس مزودة بالعقل المستمد من الشرع عملت بما يأمر به الشرع، وبهذا تكون النفس عالية راضية مرضية وقد تزودت من دنياها لآخرتها عملاً يرضي الله، وإن كانت النفس دنية اتبعت هواها وأكثرت من الميل والانقياد إلى الشهوات فيستعبدها الهوى وتضل سواء السبيل وتذعن إلى الشهوات، قال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1].

هذا الصنف ختم الله على سمعه حتى لا تصل إليه موعظة، وجعل على بصره غشاوة تمنعه من الإبصار، فمن حاله هذا كيف يهتدي؟ والمراد بالمعنى العام لهذه الآية أن من اتخذ إلهه هواه أي ترك متابعة الهدى وطاوع النفس والهوى، فحال هذا تدعو للعجب، وقد ذم القرآن دائماً من يتبع هواه، وما على الإنسان إلا أن يهدف إلى اتباع الهدى لأن النفس الإنسانية بطبيعتها دائماً تدعو إلى الشر، وتهدف إلى الضار والإنسان يهوى ما فيه ضرراً وضعة قال تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[3].

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 23.
(2) سورة الأعراف، الآية: 176.
(3) سورة الروم، الآية: 29.

فالمؤمن إذن هو الذي يتبع ما أمر الله به ويبتعد عن هواه الضال. قال رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

فالخير إذن في الابتعاد عن هوى النفس واتباع طريق الهدى الذي نزل على الرسول ﷺ وهذا بلا شك يقتضي التوفيق والهداية من الله، وهو الهادي إلى سواء السبيل وهو نعم المولى ونعم النصير.

فالإنسان حتى يكون من الصنف الذي يتبع طريق الهدى هوالإنسان بالمعنى الخاص الذي يعرف الحق ويتبعه ويعرف الخير فيعمل به ما في وسعه، ومع ذلك فإن هذا الصنف من الناس يتفاوتون في عملهم الخير تبعاً لمن يكون أكثر إنسانية وفعالية للخير، فالأكثر خصوصية هو المرتسم لأوامر الله تعالى والذي ليس لأحد عليه سلطان إذ الله سبحانه هو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه قال تعالى:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[1].

فالإنسان بالمعنى العام هو الإنسان الذي يتصف بالصفات العامة من انتصاب القامة والضحك والصورة المعقولة والروحانية والتمتع بالعقل والفكر والرؤية والنطق وخاصة الاستفادة من العلم، وفي ضوء استعمال هذه المقومات للخير والحق يتفاوت الناس أيضاً فالعبرة لا بوجود الصفات العامة بل باستعمال هذه الصفات والمقومات للإنسان فالسمع والبصر واللسان حواس حيوانية قائمة إنما العبرة باستعمالها والعمل بالمقصود من وجودها فيسمع الإنسان ويتبع الحقائق فمن له السمع عليه أن يسمع المعقولات ومن له البصر عليه أن يبصر الحقائق التي بها يدرك الاعتبارات الإنسانية والشرعية التي أمر الله بها، وإلا كان كمن وصفهم الله سبحانه حيث قال:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

(1) سورة الإسراء، الآية: 65.

(2) سورة البقرة، الآية: 171.

وقال تعالى:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

هؤلاء على الرغم من وجود العقل فيهم إنما طغى الهوى عليهم لهذا كان حق العقل أن يتقوى على قوى النفس وأن لا يداهنها وتقوية العقل تكون بالإيمان، وبتقوى الله والاستعاذة به، كما أن حق العقل أن يستعيذ من الهوى والشره والحرص والأمل وأن يطهر نفسه من كافة القوى الرديئة إذ القوى الرديئة والإرادات الضعيفة أمام الهوى تقود الإنسان إلى اتباع المفاسد فتستهويه المعاصي، هؤلاء يتبعون خطوات الشيطان ولهم مقام علوم وقد نبّه الله سبحانه وتعالى إلى ذلك فقال:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[2][3].

ومن هنا يظهر الفضل والتفضيل بين الناس قال تعالى:

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[4].

هذا وقد وصف الراغب الأصفهاني الناس تبعاً لسلوكهم في طاعتهم أو معصيتهم أو ترددهم فقال: «والناس فيما أمروا به وكلفو بين مطيع وعاص فهم على القول المجمل ثلاثة أضرب:

ضرب أخلوا وانسلخوا عما خلقوا لأجله واتبعوا خطوات الشيطان وعبدوا الطاغوت.

وضرب وقفوا بغاية جهدهم حيثما وقفوا كالموصوفين بقوله تعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[5].

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 44.

(2) الراغب الأصفهاني، المرجع السابق ص 35.

(3) سورة الإسراء، الآية: 48.

(4) سورة الإسراء، الآية: 21.

(5) سورة الفرقان، الآية: 63.

وضرب ترددوا بين الطريقين كما قال الله تعالى:

﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[1][2].

هذا ولا شك أن لكل فئة من هؤلاء حساباً من ثواب أو عقاب تبعاً لسلوكهم في الحياة الدنيا حيث تحدد المساءلة ويتحدد العقاب والثواب تبعاً لرجحان الحسنات أو السيئات. «فمن رجح حسناته على سيئاته فموعود بالإحسان إليه. وعلى الأنواع الثلاثة دل الله تعالى بقوله:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً * فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[3][4].

وعلى هذا أقسم الله تعالى في آخر السورة فقال:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[5].

وهكذا نجد أن جميع القوى في النفس يسيطر عليها العقل، فالإنسان إذن في سلوكه يكون رائدة العقل بما أمر الله به، فهو السائس لسائر قوى النفس وما عليها إلاّ أن تطيعه وفي ضوء هذا يتفاوت الناس في السلوك من حيث الخير أو الشر ومرد ذلك اتباع العقل أو اتباع الهوى ولهذا حصل التفاوت في النفوس، وإلى هذا نبّه الله سبحانه وتعالى بقوله:

---

(1) سورة التوبة، الآية: 102.

(2) الراغب الأصفهاني - «تفضيل النشأتين وتحصيل السعادتين»، ط 1323 هـ، ص 43.

(3) سورة الواقعة، الآية: 7 - 11.

(4) الراغب الأصفهاني، المرجع السابق، ص 43.

(5) سورة الواقعة، الآية: 88 - 94.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1].

ومع ذلك فإن تفاوت قوى النفس جعل كل واحدة تختلف في مركزها وسلطانها عن الأخرى بمعنى أن هذا التفاوت يجعل من حق كل واحدة منها أن تكون تحت سلطان ما فوقها وآمرة على ما دونها. ومع هذا التفاوت يقوم الصراع في نفوس الناس وينعكس بصور عديدة منها مثلاً معاداة أهل الشر لأهل الخير، كما ولا ينفك أشرار العالم أن يعيثوا في العالم الفساد ويعادوا الأخيار تلك هي طبيعة النفوس البشرية تبعاً لتغلب قوى على أخرى. على أنه إذا كان هناك قوى رادعة فتكون الغلبة لها تبعاً للقواعد الطبيعية والأسس المنطقية فمثلاً نلاحظ أنه «من حق القوى الشهوانية أن تكون مؤتمرة للقوة الغضبية، وحق القوة الغضبية أن تكون مؤتمرة للقوة العاقلة، وحق القوة العاقلة أن تكون مستضيئة بنور الشرع ومؤتمرة لمراسمه حتى تصير هذه القوى متظاهرة غير متعادية كما قال تعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2].

كذلك في نفس الإنسان قوى رديئة من الهوى والشهوة والحسد تطلب الفساد وتعادي العقل، والفكر، كذلك يجب للعقل، والفكر أن لا يعتمد القوى الذميمة وأن يعادي الهوى فإن الهوى من أعداء الله، بدلالة قول النبي ﷺ: «ما في الأرض معبود أبغض إلى الله من الهوى» ثم تلا ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[3]، وكما أن من استحوذ عليه الشيطان أنساه ذكر الله كذلك العقل إذ استحوذ عليه الهوى... فصار الناس في ذلك بين ثلاثة أصناف:

1 ـ صنف لم يفعل ما أمر الله به وتهاون فيما فوض أليه.. فصار عند نفسه ملوماً مخذولاً.

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 32.

(2) سورة الأعراف، الآية: 43.

(3) سورة الجاثية، الآية: 23.

2 ـ صنف فعل ما أمر الله به فصار عند ربه مأجوراً مشكوراً.

3 ـ صنف جد تارة وقصر تارة فهو كما قال تعالى:

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[1].

فمن وفق لفضل ما أعطى ولما رشح له وأعد ثم سعى في مثاله فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب[2].

(1) سورة التوبة، الآية: 102.

(2) الراغب الأصفهاني، المرجع السابق، ص 34 ـ 36.

الفصل الثاني

الهدف من خلق الإنسان

العبادة والإنسان:

خلق الله الإنسان في هذا الكون تبعاً لحكمة، وغرض سام وغاية نبيلة بقصد صلاحه وصلاح الناس جميعاً، فأرسل له الرسل مبشرين ومنذرين داعين الناس جميعاً، إلى العقيدة والدين الحنيف، بالحكمة والموعظة الحسنة، يستقيم سلوكهم باتباعهم سواء السبيل، وهو الطريق الذي رسمه الله في شرعه، وهو الطريق الوحيد الذي تستقيم به النفوس وتعلو مراتبها هذا الطريق من مقتضاه الإيمان بالله واليوم الآخر وما تقتضيه العقيدة من السلوك العملي من معاملات وعبادات بحيث يدرك الإنسان أنه في هذه الدنيا مكلف ومستخلف في الأرض قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

والمراد بذلك أن الله سبحانه إذ خلق الخلق فقد خلقهم صالحين للعبادة، مستعدين لها بما متعهم من العقول والحواس التي تدعوهم إلى عبادته إذ إن أفعال الله سبحانه وتعالى ليست عبثاً، إنما ترمي إلى غايات كاملة سامية لهذا فإنه قد جعل خلقه يهدف إلى غاية وهي العبادة الاختيارية التي يوصف بها المؤمنون وإن كان يوجد بين خلقه من لا يصل إلى هذه الغاية فإن هذا يحاسب عليه يوم القيامة بما ظلم به نفسه:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾[2].

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 56.

(2) سورة الذاريات، الآية: 60.

فعبادة الله في الدنيا هي السبيل التي تصقل سلوك الناس وتزن علاقاتهم بميزان الشريعة، فعليك أيها الإنسان أن تعبد الله كأنك تراه وتعلم أنك إن لم تكن تراه فإنه يراك، وبهذا تراقب نفسك في سرها وعلنها، فتدرك بذلك أنه مطلع على جميع تصرفاتك. وبهذا يصلح حالك ويستقيم سلوكك.

وبهذا السلوك ندرك أيضاً أنك مستخلف في الأرض عملاً بقوله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2].

فالخليفة في الأرض هو من يقوم بعمارتها، وأن الإنسان هو الأصلح لعمارتها باتباع ما أمر به الله والانتهاء عما نهى عنه. وقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليجعلهم خلفاء الله في أرضه وهذا الوعد مشروط بالإيمان والعمل الصالح فإن تحقق الشرط تحقق المشروط، وبهذا الاستخلاف يمكن لهم دينهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً. وبهذا يتعزز جانبهم وتقوى حجتهم في دين الله، فيقبلون عليه بنفوس آمنة مطمئنة اشتراها الله لتكون لهم الجنة فيجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم لرفع حكمته ونصرته وابتغاء رضوانه. وبهذا يكون قد تحقق ما وعد الله به قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[4].

(1) سورة البقرة، الآية: 30.

(2) سورة النور، الآية: 55.

(3) سورة محمد، الآية: 7.

(4) سورة الحديد، الآية: 25.

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾[1].

هذا وباستخلاف الإنسان في الأرض زوده الله بمقومات ليعمل على تحقيق السعادة في الدار الآخرة. لهذا أوجد له ما يحتاجه في الدنيا من صناعات ومهن وعلوم وما يحتاج هذه من عناصر يتهيأ بها العمل واستعمله لها، كما جعل الله للإنسان مراتب ومقامات معلومة تبعاً لعبادته قال تعالى منبهاً إلى ذلك.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[4].

فالإنسان إذ خلق في هذا الكون لطاعة الله وعبادته فقد حدد له مقام معلوم تبعاً لهذه العبادة، لا يستطيع أن يتعداه أو يتجاوزه خضوعاً واستسلاماً لقضاء الله، وتواضعاً لجلاله، والله سبحانه وتعالى يحكي عن هؤلاء العابدين أنهم الصافون أنفسهم للعبادة فلا يتقدم أحد ولا يتأخر عن صنعته، ثم وصفهم الله بأنهم المسبحون والمنزهون الله عما وضعه المشركون، ومن هنا جاء تفضيل الناس تبعاً لطاعتهم وعبادتهم وسلوكهم وأخلاقهم فالتفضيل ورد إذن على سبيل الإطلاق، إذ ليس من المعقول أن يتساوى من كان يريد عرض الدنيا ويحب العاجلة مع من كان قصده الآخرة أرادها وسعى لها سعيها، لما لها من فضل وثواب ولا شك أنه لا يمكن أن تقوم المقارنة، أو أن المقارنة مع الفارق الكبير، فمن قصد الآخرة واتجه في كل عمل إليها،

---

(1) سورة الصف، الآية: 14.

(2) سورة الإسراء، الآية: 84.

(3) سورة الصافات، الآية: 164.

(4) سورة الإسراء، الآية: 21.

وكان رائده في هذا الثواب في الآخرة، لا متاع الدنيا، فقد فاز فوزاً عظيماً، وهذا هو السعي المشكور والعمل المأجور وكل ما عدا هذا فهو عرض زائل لا خير فيه. ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يمد الناس بالرزق والعطاء سواء ممن كان يريد الدنيا أوممن يريد الآخرة، إذ كل ميسر لما خلق له حتى في سلوكه ولم يبق إلا عنصر الاختيار فهو المحاسب عليه طالما أنه ممتع بالقدرة الصالحة للعمل وإلى هذا أشار الله سبحانه وتعالى فقال:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1].

ثم قال تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾[2].

والتفضيل هنا يكون بالرزق وبمتاع الدنيا أما التفضيل في الاخرة، فهو أعلى مراتب التفضيل لما فيها من نعيم مقيم وعطاء جزيل لهذا قال تعالى:

﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[3].

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خص عباده بالرحمة وفضلهم على سائر المخلوقات بتكليفهم بعبادته ضماناً لتقويم سلوكهم وإكراماً لهم بالثواب يوم الآخرة ومع ذلك فإن فضل الله لم يقتصر على هذا فحسب بل إنه سبحانه قد أوجد كل ما في هذا العالم لخدمة الإنسان وتحقيق حاجاته، بل ورفاهيته ورزقه.

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 20.

(2) سورة الإسراء، الآية: 21.

(3) سورة الإسراء، الآية: 21.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

فالله سبحانه وتعالى إذ خلق هذا الكون وسخره لعباده إنما أمرهم بعبادته والإقرار بربوبيته ووحدانيته إذ إن غاية العبادة تحقيق التقوى التي أحبها الله وارتضاها لهم لهذه الغاية وبهذا الهدف خلق لعباده هذه السموات والأرض مسخرات لهم حيث جعل الأرض ممهدة مذللة لهم للإقامة عليها والعمل فيها كما جعل السماء كالبناء المحكم فوقها وخلق فيها من عوالم الأفلاك والمجرات والكواكب، كل ذلك بنظام دقيق قائم على التوازن بحيث لا تسقط، وتكريماً لبني آدم أيضاً أنزل الله من السماء ماء وأخرج به من الثمرات والخيرات رزقاً لعباده وهذه كلها مظاهر قدرته ووحدانيته. فسبحانه وتعالى هو صاحب الفضل على خلائقه والمنعم على عباده، إذ سخر ما في السموات والأرض بما أودع الله في الإنسان من عقل وتفكير يستطيع أن يستخدم الطبيعة، ويستفيد من طاقاتها لأغراضه ومنافعه، سواء في السماء أو في الأرض، أو في البحار، حيث استخدم الإنسان الأثير والذّرة والطائرة

(1) سورة البقرة، الآية: 22.

(2) سورة النحل، الآية: 10 ـ 11 ـ 12.

(3) سورة الجاثية، الآية: 13.

والغواصة والتلفزة وغير ذلك من الوسائل الكهربائية والتكنولوجية والالكترونية والتي تخدم الإنسان والتي ستكشف الأيام عن غيرها أيضاً في المستقبل. فالدنيا وما فيها من طاقات وأنظمة وخفايا لم تخلق بالصدفة إنما خلقها الله سبحانه وتعالى وأقامها بإرادته وقدرته، فالسماء بناها ورفعها بلا عمد ويمسكها من أن تقع على الأرض إلا بأمر منه قال تعالى:

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(1).

هذا كما أن الكون وما فيه لا يمكن أن يسير لوحده تلقائياً إنما هو بتدبير حكيم قادر دبرّه بما يدعو إلى النظر والتفكير فيه، لما فيه من دقة ونظام، نعمة الله التي أنعم بها على البشر الذين أحياهم من العدم ثم يميتهم بانقضاء أجلهم حيث ينقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء ويوم القيامة يحاسبهم فينالون جزاءهم الأوفى تبعاً لعملهم من خير أو شر، ومع ذلك يبقى الإنسان كنوداً جاحداً نعمة ربه ولا يقوم بشكرها إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وشكروا الله فأولئك جزاؤهم عند ربهم، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾(2).

فسلوك الإنسان يقتضي أن يكون تبعاً لما يرضي الله عنه، حيث حقق للناس الخيرات وجعل لهم في الحياة ما ينتفعون به، فأباح لهم تحري مصالحهم، إذ نبه الله تعالى على منافع جميع الموجودات وأطلع الخلائق عليها لينتفعوا بكل ما في العالم في غذائهم ودوائهم، وملابسهم، ومشموماتهم، ومنظوراتهم، وكل ما فيها من طيبات الرزق، وليستفيدوا من العلم وليقتدوا بالأفعال الحسنة وليتجنبوا الأفعال السيئة فالله إذ خلق هذه النعم وهدى إلى تعلمها وطرق صنعها، وغرز في الناس حب الزينة والتمتع بالخيرات إنما خلقها للاستفادة منها والاستعانة بها على تقوية الجسم للقيام بعبادة الله. هذه النعم يقتضي الانتفاع منها في حدود إشباع الحاجات دون

(1) سورة الحج، الآية: 65.

(2) سورة العاديات، الآية: 6.

تبذير، إذ الإسراف في الطعام والشراب أو الملبس فيه ضرر وإهدار للطاقات الاقتصادية بل وحرمان للغير من التمتع بها.

وإذا كان الإسراف غير مقبول فكذلك التقتير أيضاً غير مقبول فإن التقشف والزهد المبالغ فيه غير مستحب، قال تعالى مشيراً إلى إنكار ذلك:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

وإلى هذا أشار الحديث الشريف إذ روى النسائي وابن ماجه عن النبي ﷺ قال:

«كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة[2] ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وهكذا نجد أن الدين الإسلامي الحنيف يدعو إلى الكمال الروحي والسمو الأخلاقي والاعتناء بالجسم وإزكاء النفس بالطيبات تبعاً لما تميل إليه بطبيعتها، كل ذلك في حدود ما أحل الله.

هذه الحاجات إنما فيها مصلحة الإنسان، وقد أوجدها الله وهدى الإنسان إليها قال تعالى:

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3] إنها نعم يعرفها الإنسان بعقله وإدراكه وحواسه وهو إذ يعرف مبادىء العلوم بالفكر فلا شك أن يتوصل عن طريق المعلوم إلى استنباط الأمر المجهول طالما أن الله وكله إلى نفسه للبحث إلى ما هو بحاجة إليه لإيجاده وتحصيله بقوى نفسه، فيتحصل على الملابس يكسو بها نفسه، ويتقي بها الطقس من الحر والقر، كما يحصل على الغذاء ليقيم به أوده ويقوي به جسمه كما يبحث عن الأسلحة المختلفة ليذود بها عن نفسه فيدفع عنها الأذى ويحمي مصالحه. وبهذا نلاحظ أن

(1) سورة الأعراف، الآية: 32.

(2) مخيلة الإعجاب بالنفس.

(3) سورة طه، الآية: 50.

الإنسان قد رفعه الله عن ضعف الحيوانات بإعطائه العلم والعقل واليد العاملة، إذ أعطاه كل شيء ليأتلف مع وجوده في هذه الدنيا، ويتمكن من تحصيل ما يريد لإشباع حاجاته كل ذلك تحت رقابة العقل وفي إطار الدين الذي يبيح له ذلك. إنها السلوك الحسن الذي يهدف إلى تحقيق السعادة.

إذ بهذه القوى التي تحفظ عليه نفسه وجسده وبهداية من الله يحقق ما يرضي الله من عبادة وتقوى، إذ هي الغاية المقصودة والأوامر المطلوبة لتحقيق الدين القيم بأوامره ونواهيه قال تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[1].

هذا الدين الإسلامي الذي يأمر بالعبادة والتقوى هو دين الأمة دين الأخلاق الذي يقود الإنسان إلى الحق والخير فهو دين السلوك الذي يحقق السعادة في الدنيا والآخرة، وقد وعد الله الذين آمنوا بالله وبرسوله وصدقوا بما عاهدوا الله عليه. فأولئك هم خير البرية وكان جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

العبادة طريق السعادة إلى الآخرة:

عرفنا فيما سبق أن المقصود من خلق الله للعالم إيجاد الإنسان وتكريمه وتفضيله على كثير ممن خلق فالله إذ خلق الإنسان خلق له الروح الناطقة والتي يتوصل بإيفائه حق خلق الله له إلى النعيم المقيم قال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[2].

هذا التفضيل لم يكن مرده إلى عناصر خلقه فقط بل إلى ما خصه الله تعالى له وبما ضمنه فيه. إذ نفخ فيه من روحه ورشحه إلى أمر هام إذ جعله

---

(1) سورة البينة، الآية: 5.

(2) سورة الإسراء، الآية: 70.

خليفة في الأرض قال تعالى:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1].

كما أن هذا التفضيل نبه الله سبحانه وتعالى إلى أهميته عندما طلب إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم فأذعنوا إلى أمر الله وسجدوا كما أمروا إلا إبليس أبى واستكبر قال تعالى﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

ومن الجدير بالإشارة أن السجود المطلوب لم يكن سجود عبادة إنما سجود تحية وتكريم بأمر الله، وله جل شأنه أن يكرم من يشاء من مخلوقاته على من يشاء. إذ إليه يرجع الأمر كله فيما خلق وكيف خلق ولماذا خلق! فالإنسان إذ خلقه الله من مادة وروح ـ ولئن كانت الروح سراً من أسرار الله تدخل في عالم الغيب إذ لا يعلم كنهها إلا خالقها ـ بيد أنها مع ذلك هي الأساس في تحقيق السعادة، فهي قوة الإنسان وفعاليته ولها الأثر الكبير في سلوكه وأعماله، فهي مصدر الخير والهدى والتقوى والفلاح، وبها تتحقق العبادة التي هي طريق السعادة إلى الآخرة طالما أن الإنسان مؤمن وقائم على تحقيق أركان الدين الحنيف من إيمان بالله وبرسول الله ﷺ وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت متى استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أما الروح التي يتمتع الإنسان بها بوجوده فهي الحياة التي عناها القرآن بقوله تعالى:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[3].

فالحياة لا تكون إلا بالأيمان، فالمؤمن يسعى نوره بين يديه فهو الموفق إلى الخير والهدى، وهو الذي يميز بين الحق والباطل كل هذا بفضل

(1) سورة الحجر، الآية: 29.

(2) سورة البقرة، الآية: 34.

(3) سورة الأنعام، الآية: 122.

الإيمان الذي هو نور يستضيء الإنسان به في حياته، فيميز به الخير والشر، فهو كالروح التي تعطي الحياة وتحقق السعادة، بينما الضلال كفر وفساد يستقر بصاحبه في الظلمات الحسية وليس بخارج منها، وهكذا نجد الفارق الكبير بين الإيمان والكفر كالفارق بين الحياة والموت.

وعلى هذا نجد التفاوت في السلوك بين البشر تبعاً للعقائد بينما هم متساوون في خلقهم تبعاً لحكمة الله إذ خلق الناس على هيئة واحدة من حيث إنها مصنوعة قال تعالى:

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[1].

هذا البشر متساوٍ في الخلقة إنما هو في الوقت ذاته مختلف فيما خص الله به كل نوع من مخلوقاته بصفات وفوائد، وعلى هذا نجدهم مختلفين في سلوكهم الأخلاقي، وفي عقيدتهم، وطاعتهم أو معصيتهم إذ منهم المطيع ومنهم العاصي، ومن هذا جاء اختلاف المقامات وارتفاع الدرجات.

قال تعالى:

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[2].

أي أن ارتفاع الدرجات يكون في الفضل والجاه والإكرام تبعاً لحكمة الله سبحانه وتعالى، شأنه في رفع الدرجات كشأنه في تقسيم الرزق على عباده. فمنهم الفقير، ومنهم الغني عملاً بقوله:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3] فالمنع والعطاء في هذه الدنيا ليس هو الغاية، لأن هذه الدنيا ليست بدار قرار إنما العبرة بالآخرة فالآخرة خير وأبقى، والجنة ونعيمها أعدت عند ربك للمتقين.

قال تعالى:

---

(1) سورة الملك، الآية: 3.

(2) سورة الزخرف، الآية: 32.

(3) سورة الزخرف، الآية: 32.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1].

وعلى هذا نجد الناس نوعين نوع مادي يسلك في حياته مسلك من يحقق المنفعة له في الدنيا فهو محب له حباً جماً فهذا الصنف يأكلون التراث أكلاً لماً، ويبخلون في الدنيا بل قد لا يعطون شيئاً، وهؤلاء هم في الحقيقة فقراء في الدنيا وفي الآخرة. لهم جهنم يصلونها مذمومين من الله، مدحورين ومطرودين من رحمته. والنوع الآخر هو من آمن بالآخرة وسعى لها سعياً حثيثاً لما وعد الله المؤمنين بالسعادة فيها، وهؤلاء لا يبالون في الدنيا فإن أوتوا حظاً منها شكروا الله، وإن منعوا منه رضوا وصبروا على ما أقسم الله لهم. فالسعي المشكور والعمل المأجور الذي يحقق السعادة في الآخرة يقتضي أن يكون الإنسان في عمله في هذه الدنيا قاصداً رضاء الله وذلك وفقاً لما أمر به الشرع وهو نظام الاعتقاد الصحيح والأفعال المستقيمة والدال على مصالح الدنيا والآخرة ويتحقق هذا على الوجه التالي:

1 ـ أن يكون الإنسان مؤمناً بالله بشمولية الإيمان الواردة في القرآن وعاملاً بأحكامه.

2 ـ أن يراقب الله في كل عمل يقصده وأن يخلص فيه لوجه الله دون رياء أو نفاق.

3 ـ أن يكون رائده فيما يعمل ثواب الآخرة لا متاع الدنيا.

تلك هي مقومات الأعمال الخالصة لوجه الله وما عداها زائل ومتاع حائل لا غنى ولا خير فيه، فمن يسلك طريق السعادة إلى الآخرة وما فيها من نعيم مقيم وعطاء كريم يوفق بعون الله في سعيه ويكون بذلك من المرضين المشكورين عند الله قال تعالى:

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 21.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[1].

فإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة أدرك أنه في الدنيا مستخلف فيها وليس له بقاء إنما المقصود وجه الله، والهدف الاستقرار في دار الآخرة، فتهدأ نفسه ويطمئن قلبه ويعزف عن التهالك على الدنيا. ولا يرى أي ضرورة للتناحر والتباخل، فينفق مما جعله الله مستخلفاً فيه، فيؤدي زكاة ماله، ويتصدق بالفضل من أمواله، هذا السلوك يرفعه درجات عند الله سواء في العلم والعمل والغنى والفقر سنة الله في خلقه ليبلونا جمعياً فيما آتانا.

قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2].

فما على الإنسان إلا العمل والجد والصبر والرضا بقضاء الله وقدره فيعمل ويتوكل على الله فكل ميسر لما خلق له، وكل نفس بما كسبت رهينة، فالمال إلى الله قال تعالى:

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

مع ذلك نلاحظ أن الناس متفاوتون ومتباينون تبعاً لاختلاف الهمم والأغراض في صناعتهم فهم في حكم المختارين. هذا التباين قائم تبعاً لتكوينهم حيث تختلف طبقاتهم وقدراتهم وهممهم وأغراضهم وسلوكهم. ولا شك أن هذا الاختلاف مرده إلى عوامل كثيرة لها أثرها البعيد في سلوك الإنسان واختياره في أعماله وأفعاله وسلوكه، من خير أو شر بل في سعادته أو في شقائه هذه العوامل أشار إليها الإمام الأصفهاني وعدّدها وهي:

العامل الأول: اختلاف أمزجة الناس وتفاوت طينتهم إذ أشار الله تعالى

(1) سورة الإسراء، الآية: 19.

(2) سورة الأنعام، الآية: 165.

(3) سورة المائدة، الآية: 105.

إلى ذلك بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[1].

العامل الثاني: الوراثة إذ يرث الإنسان من أبويه صفاتهما فضلاً عن أن صلاح الأبوين له أثره في سلوك الإنسان بمعنى أن الابن يتأثر من جميل الخلق أو قبيحه.

العامل الثالث: اختلاف ما تتكون منه النطفة التي يتكون منها الولد ودم الطمث الذي يربى به وهذا له تأثيره على الإنسان. فالطيب لا يخرج إلا طيباً. قال رسول الله ﷺ منبهاً إلى ذلك: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»، وقال: «الناكح غارس فلينظر أحدكم أين يضع غرسه».

العامل الرابع: اختلاف ما يتفقد به من الرضاع ومن طيب المطعم الذي تربى به وتأثير الرضاع تقول العرب لمن تصفه بالفضل لله دره.

العامل الخامس: اختلاف أحوالهم في تأديبهم وتلقينهم وتطبيعهم وتعويدهم العادات الحسنة والقبيحة فحق الولد على الوالدين أن يؤخذ بالآداب الشرعية وإخطار الحق بباله وتعويده فعل الخير كما قال النبي ﷺ: «مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر» ويجب أن يصان عن مجالسة الأرداء فإنه في حال صباه كالشمع يتشكل بكل شكل يشكل به.. الخ.

العامل السادس: اختلاف من يتخصص به ويخالطه فيأخذ طريقته فيما يتمذهب به «عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه».

العامل السابع: اختلاف اجتهاده في تزكيته نفسه بالعلم والعمل حين استقلاله بنفسه[2].

تلك هي العوامل الأساسية في تحقيق سلوك الإنسان، إذا توافرت على الوجه الطيب، سواء من طيب طيبة أو حسن أمزجة في أصوله، أو من آباء صالحين أحسنوا التربية أو بذرة طيبة ومن نطفة صالحة، ودم طمث طيب

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 6.

(2) تفضيل النشأتين، ص 49 ـ 50.

على مقتضى الشرع، وأقران صالحين يسارعون به نحو الخير ويبتعدون به عن الشر والأشرار، واهتداء بأوامر الشرع ونواهيه كان هذا من تمام الفضيلة وكمال الإخلاص مما يرتقي بالسلوك إلى مراتب الصالحين والمصطفين الذين قال عنهم الله عز وجل:

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[1].

هؤلاء بتربيتهم الصالحة وأصالتهم الطيبة وهم المخلصون في الطاعة والصادقون في العمل والمتذكرون دائماً لدار الآخرة والمؤملون بالفوز برضاء الله ولقائه هؤلاء هم المتقون الأخيار قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۞ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[2].

وهكذا نجد أن السعادة إنما في الدار الآخرة والتي تبدأ طريقها من الدنيا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره.. والعمل بمقتضى شرع الله وحسن تأدية فروضه وباتباع أوامره ونواهيه وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. هذا هو طريق المؤمن من حيث أحواله فمن طالت أحواله انتفع بكل ما سمعه وشاهده إن خيراً فخير وإن شراً فشر. أما من خبثت أحواله فقد تضرر بكل ما سمعه وشاهده فيتبع طريق الضلال فيضلّ في الدنيا والآخرة قال تعالى فيمن لا يسمع هدى قرآنه:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[3].

فهؤلاء المعرضون الذين وصفهم الله في هذه الآية لا يؤمنون بكتاب الله وهم متعامون عن الحث على الرغم من أنه هدى وشفاء للصدور ورطب للقلوب. وهو يهدى للتي هي أقوم مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين فضلاً عن

(1) سورة ص، الآية: 47.

(2) سورة ص، الآية: 49 ـ 50.

(3) سورة فصلت، الآية: 44.

أنه سلوى للنفوس وعلاج لأمراض المجتمع قال تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

وعلى هذا نجد أن الناس صنفان: صنف يريد عرض الدنيا ويبتغي السعادة فيها، هذه السعادة إن لم توصل إلى السعادة الأخروية فهي بسعادة مؤقتة وزائلة يغتر بها الإنسان ويحسبها دائمة وهي في الواقع كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، وليس له منها إلاّ العذاب والغرور، قال تعالى في شأن هؤلاء المغترين الكافرين:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[3].

فالسعادة المزعومة عند هؤلاء والذين يتمتعون بها في الدنيا إنما هي زائلة كالريح في يوم عاصف شديد لا يرون لها أثراً لأن أعمالهم مبنية على ضلال وكفر إذ العبرة بالأعمال أن تكون مما يرضي الله ويحقق أثرها في الآخرة بحيث يجزي المرء عليها الجزاء الأوفى أما الأعمال الباطلة فهي أعمال ضائعة وذاهبة، كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها قال تعالى:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[4].

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 82.

(2) سورة النور، الآية: 39.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 18.

(4) سورة الفرقان، الآية: 23.

أي لا خير فيه ولا جزاء له فهو كالهباء ضائع منثور لا فائدة منه.

أما الصنف الثاني فهم الذين أنعم الله عليهم فأباح لهم السعادات التي توصلهم إلى الطمأنينة في الآخرة قال تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1].

وهذه هي النعم الدائمة والسعادة الحقيقية التي شرعها الله ومتع عباده بها ونفعهم في القيام بها فأحسنوا في الدنيا فقصدوا الآخرة، قال تعالى عن هؤلاء:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[3].

هؤلاء الذين مكنهم الله في الأرض هم الذين يقيمون شعائر الله فينصرهم الله لنصرهم دينه واتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه تلك هي السعادة الأبدية، وهؤلاء هم القدوة لأنهم طبقوا شعائر الإسلام من صلاة وزكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر. هذه الأسس هي الركيزة في الحياة الدنيا والتي عليها تقام الحياة في الدنيا وبها تضمن السعادة في الآخرة هذه الأسس هي:

1 ـ إقامة الصلاة:

إن إقامة الصلاة كاملة في أوقاتها ووفقاً لشروطها مفروضة على المسلمين ويجب أن تؤدي مباشرة دون وساطة وهي من أولى أعمالهم، لأنها

(1) سورة النحل، الآية: 18.

(2) سورة الحج، الآية: 41.

(3) سورة النحل، الآية: 30.

تحقق الصلة بين الله وعبده، فتطهر النفوس وتزكي الأعمال وتقوم السلوك، وهي تدعو إلى الامتثال إلى أوامر الله، والانتهاء عن نواهيه **﴿إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر﴾** فهي عبادة يومية في حقيقتها وخلوة مع الله ومناجاته، يتوجه الإنسان فيها إلى الله بتلاوة بعض القرآن، والدعاء مع القيام وركوعاً وسجوداً وقعوداً.

2 ـ إيتاء الزكاة:

الزكاة عبادة يقصد بها تطهير المال لتحقيق العدالة الاجتماعية، وهي تغني عن المبادىء والحلول التلفيقية، فهي توجب مقداراً معيناً على مال الغني وهي حق معلوم للفقير. وبهذا يعم الخير كافة أفراد المجتمع وتقوم دعائم العدل والإصلاح والرحمة، ويتحقق التوادد والتعاطف بين أفراد المجتمع وبهذا تدخل السعادة قلوب المحرومين، كما وينعم الأغنياء بنعم الله ويسعدون في الدار الآخرة لما أحسنوا في الدنيا في دفع الزكاة عن أموالهم.

3 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق صلاح الأمة وأساس كيان الدولة والمجتمع، به يرتد الظالم عن ظلمه ويكبح جماح العاصي، ويرشد الحكام إلى الطريق المستقيم.

4 ـ الصوم:

المراد بالصوم صون الجسد والنفس عن الشهوات المشروعة من طعام وشراب واتصال جنسي خلال النهار من الفجر إلى غروب الشمس ولمدة شهر كامل، فهو التزام بهذا الامتناع المؤقت بغية تربية النفس وترويضها وضبط نزواتها المشروعة المحللة في الأحوال العادية، هذا الشهر بالسلوك المذكور عبادة وهو شهر مبارك نزل فيه القرآن. هذه العبادة تفرض على الذين يطيقون الصيام أما من كان مريضاً أو مسافراً ويجد في سفره مشقة فله أن يفطر ويعوض عن الأيام التي أفطر فيها فى أيام أخر. وأحكام الصيام وردت في كتب الفقه ولا داع لشرحها هنا إنما جل ما نقصده من إيراد هذا النوع من العبادة إن فيها تطهيراً للنفس وتقشفاً، وذلك للإحساس بالآخر وما

يقاسيه من جوع في حالة حاجته فيندفع الصائم نحو التعاطف والتوادد وإجراء الصدقات ومؤازرة الفقير المحتاج.

5 ـ الحج:

الحج عبادة خاصة سنوية مفروضة على جميع المسلمين ممن يستطيعون إليه سبيلاً مرة في العمر يقصد بها عبادة الله وحده، ولها إجراءات شرحتها كتب الفقه وأبرز ما في الحج:

1 ـ إعلان حال التقشف بالإحرام أي الامتناع عن الحلاقة والتطيب والزينة المباحة، وذلك بالتستر بقماش غير مخيط يستر به جسمه.

2 ـ الطواف حول البيت، وهذا الطواف يقصد به تعظيم الله والتذكر بأن البيت هو أول بيت بني لعبادة الله، والحجر الأسود هو الحجر الباقي من هذا البناء القديم.

3 ـ السعي بين صخرتي الصفا والمروة.

4 ـ الوقوف في عرفة للابتهال والدعاء إلى الله، إلى غير ذلك من الأعمال من مبيت بمنى ورمى الحجارة الصغيرة وهو ما يسمى بالرجم. كل هذه الأعمال إنما هي تعبدية تفيد معنى الخضوع لأوامر الله وترمز إلى التآزر والتآخي، وتعاضد المسلمين ووحدتهم في كل ما يتعلق بالمسلمين والدفاع عنهم كما أن الحج مؤتمر إسلامي لعبادة الله في وقت محدد من كل سنة. ففي الحج إذن معنى التجرد عن الذات لعبادة الله وتحمل المشاق، وفيه تتحقق معنى إنسانية المسلمين على أختلاف أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم.

قال تعالى:

﴿لِيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[1].

---

(1) سورة الحج، الآية: 28.

6 ـ تلاوة القرآن والدعاء:

إن مما يدخل في شمول العبادة الدعاء وذكر الله وقراءة القرآن فهو أفضل أنواع الذكر فيتذكر الإنسان بتلاوته عظمة الله وقوته وقدرته وحكمته ورحمته وفضله وإحسانه وعذابه ونعيمه يوم الآخر والقرآن يتضمن كثيراً من الأدعية تفيد الثناء لله وتسبيحه وتنزيهه قال تعالى:

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[1].

وقال تعالى في مخاطبة الله ومناداته وهو أصل مفهوم الدعاء:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2].

هذه العبادة هي في الحقيقة أسس لا بد للمسلمين من القيام بها وهي عنوان إيمانهم وطريقهم إلى السعادة وهم إذ أقاموا أسس الإسلام بإيمانهم وعملهم فبقد أحسنوا في هذه الدنيا، وهم إن سعدوا فيها بما قاموا به، بيد أن نعيم الدار الآخرة خير وأبقى، فهم يثابون على عملهم في الدنيا والآخرة والنعم دار المتقين.

على أن دار المتقين وهي الدار الآخرة وإن لم يكن لدينا تصور عنها، إذ لم تجرب كنهها، ولم نعلم من أمرها شيئاً باعتبارها من عالم الغيب بيد أن الله سبحانه وتعالى قد وصفها لنا ووصف السعداء فيها وصفاً لا يملك الإنسان تصوره لأن قوانا وحواسنا ومداركنا مهيأة لمعرفة ما يدور في الدنيا فقط، لهذا فلا يمكن تصور حقيقة السعادة في الآخرة لهذا استعمل الله مشاهد حسية من الدنيا لفهمها فوصف لنا السعداء الذي خصهم بالسعادة، وهم المؤمنون بآيات الله والعاملون بها والذين إذا ذكر الله سجدوا لله وحمدوا وأثنوا عليه وراحوا يهرعون إلى الصلاة آناء الليل وأطراف النهار، يدعون ربهم خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، وهم ينفقون مما رزقهم الله

---

(1) سورة المزمل، الآية: 20.

(2) سورة البقرة، الآية: 186.

في سبيل الله وقد قال تعالى عنهم:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

هؤلاء الذين وصفهم الله، قد طهروا نفوسهم من الرياء والنفاق فعملوا سراً أسروه إلى الله ولم يعلم به الناس، فأسر الله لهم يوم القيامة، فجزاؤهم من جنس أعمالهم قرة أعين ولكننا لا نستطيع تصور عظمة هذا الجزاء وما أخفى الله لهم، ووعدهم به في الجنات من النعيم المقيم والثواب العظيم والفضل العميم. هؤلاء يتقبل الله منهم أعمالهم الصالحة، ويتجاوز عن سيئاتهم، وعد الله الصدق الذي كانوا يوعدون به. وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال:

قال الله تعالى:

﴿أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر﴾.

تلك هي عدالة الله في المعاملة تبعاً للأعمال:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ﴾[3].

(1) سورة السجدة، الآية: 15 ـ 17.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 7 ـ 8.

(3) سورة الطلاق، الآية: 11.

فالجزاء إذن من جنس العمل ولا يسوغ عدلاً وعقلاً أن يسوى المؤمن العامل مع الكافر الفاسق.

قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

فالله إذ خلق السمٰوات والأرض بالحق إنما هو مبدأ مقرر فيه بأن الله سبحانه وتعالى يحق الحق، ويجزي كل نفس بما كسبت، وما ربك بظلام للعبيد، فالغاية إظهار العدل والرحمة، وهذه العدالة إذ هي مقررة إنما تتم يوم البعث وهو يوم الحق، الذي يفصل الله فيه بين المحق والمبطل، إذ لا يمكن أن تتم المساواة بين من اقترفوا الذنوب واكتسبوا الآثام، مع من آمنوا وعملوا الصالحات وهذا تهديد وتقرير بالعدالة، فكل من خرج عن الدين الحق ولم يمتثل ما أمر الله به، فليعلم أن جزاءه لا يمكن أن يكون كجزاء من عمل صالحاً وسار على الصراط المستقيم.

وقال تعالى:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[3].

فنعم الإيمان التي وعد الله بها المؤمنين لا يمكننا أن نتصور لذتها وحقيقتها في الدنيا إنما تتحقق معرفتنا لها يوم القيامة، لأن الجزاء يتم في الدار الآخرة، ولما كان إدراك الشيء فرع عن تصوره، وبما أنه ليس لدينا

(1) سورة الجاثية، الآية: 21 .

(2) سورة ص، الآية: 28.

(3) سورة السجدة الآية: 18.

أي تصور عنه في حياتنا الدنيا وبالتالي فلا يمكننا إدراكه، بمعنى أن اللذه الآخروية عن الأعمال الصالحة لا يمكن إدراك كنهها، هذا وإذا كانت قوى النفس من سمع وبصر وحسّ لكل منها لذة نستمتع بها تبعاً لقيامها بوظيفتها في حدود ما هي مهيأة له، وبالتالي فإن اللذائذ تتم وفقاً لما نحس به ونستحسنه، فلذة العين في النظر إلى ما نستحسنه في رؤياها، ولذة السمع في الاستمتاع إلى ما يستطيبه، ولذة الحس في لمس المحسوسات بما يستلذه، ولذة الوهم في تصور ما يؤمله، ولذة الخيال في تخيل ما يستحسن تصوره، ولذة الفكر في أمر مجهول عنده يتعرفه[1]. كل هذه الحواس الدنيوية يتعرف بها في حال سلامتها على ما هو موجود في الدنيا.

أما اللذات الأخروية فهي لذات لا تدرك إلا بأعمال العقل تبعاً للتصديق بما أخبرنا الله عنه، ولما أراد الله أن يعرفنا بلذات الغيبيات معرفة ذاتية شبّهها ببعض ما تدركه حواسنا في الدنيا فقال تعالى في وصف الجنة:

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[2].

هذا الوصف إنما كان للبيان والتوضيح بالتقريب إلى أذهان المؤمنين بما سيتمتعون به من لذة ونعيم فشبّه لذائد الطعام والشراب في الجنة من حيث الجنس باللذائذ التي يستسيغها الإنسان في الطعام الطيب، كل هذا من باب التمثيل والتصوير والتشبيه تقريباً للأذهان، إذ الإنسان في الدنيا لا يمكنه تصور سعادة الآخرة بمقومات ووسائل حواسه، إلا إذا فارقت الروح الجسد وتخلت عن الهيكل الجسماني، وعندما يبعث يوم الآخرة فيطلع على الحقيقة التي وعد الله بها قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[3].

---

(1) الأصفهاني، المرجع السابق، ص 60 بتصرف.

(2) سورة محمد، الآية: 15.

(3) سورة الأنعام، الآية: 158.

المراد بآيات ربك هنا بعض الآيات الدالة على قرب قيام الساعة فإذا آمن بعض الناس ولم يكونوا مؤمنين من قبل فلا ينفع إيمانهم هذا، لأن الإيمان تكليف وعمل باختيار، أو إذا آمنوا من قبل ولن يعملوا عملاً صالحاً، فإن هذا الإيمان وحده غير كافٍ أيضاً لأن الله سبحانه وتعالى دائماً يقرن الإيمان بالعمل الصالح، أي لا بد من العمل الصالح إلى جانب الإيمان.

هذا وإذا كانت لذائذ السعادة يوم الآخرة لا يمكن تصورها بحواسنا الدنيوية، فإن الله سبحانه وتعالى قد خصّ بعض خواصه ممن فارقوا الأمراض النفسية وأذهب عنهم الرجس بأن أطلعهم من وراء ستر رقيق على بعض ما أعد لهم قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

(1) سورة الأحزاب، الآية: 33.

الفصل الثالث:

الدار الآخرة هي القرار:

إن الإنسان في دار الدنيا غير مستقر إنما متاعه فيها إلى حين وإن دار الآخرة هي دار القرار بمعنى أن الإنسان لا بد راحل إليها وهي الدار التي يستقر فيها ويطمئن بلقاء ربه راضياً مرضياً. قال تعالى مشيراً إلى ذلك:

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(2).

هذا البيان والتوضيح الصادر عن الله سبحانه وتعالى يؤكد أن النهاية والغاية هي اليوم الآخر وإذا كان الأمر كذلك فلا بد إذن من أن يظهر الإنسان تعسه في هذه الدنيا ويصفي روحه وينقيها ويسمو بها عن الماديات طالما أنه ملاق ربه، وتبعاً لذلك عليه أن يتزود في دنياه لآخرته عملاً يرضي الله سبحانه وتعالى لتكون نفسه مطمئنة وراضية بما زودت به من أعمال مرضية عند الله، كالأعمال الروحية والمعارف والحكم والعبادات والأخلاق الحميدة وتقوى الله، جميع هذه الأمور تعتبر زاداً وثمرة في هذه الحياة يكتسبها الإنسان لليوم الآخر. ما عدا ذلك من أعمال الدنيا فهي أعمال مادية مؤقتة تنتهي بموت الإنسان وتفارقه كالمال والأثاث وملذات الدنيا أو قضاء حاجاته الدنيوية فهي جميعها لذات عاجلة، ولا ينتفع بها إلاّ بقدر ما يستعين

---

(1) سورة البقرة، الآية: 36.

(2) سورة الفجر، الآية: 27 ـ 30.

به الإنسان للوصول إلى تحقيق الزاد الأخروي. وفي غير ذلك لا قيمة لها وتدخل في شمول متاع الدنيا.

قال تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2].

فعلى الإنسان إذا علم أن الغاية هي الآخرة أن لا يغترّ في هذه الدنيا فلا يلتفت إليها إلا بمقدار ما تحقق منفعة للآخرة مراعياً في تصرفاته وأعماله حكم الشرع ومحققاً قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[3].

وما دام الأمر كذلك وأن الحياة الدنيا ليست بدار قرار فإن حبها رأس كل خطيئة لأن حب الدنيا يشغل الإنسان عن الآخرة قال رسول الله ﷺ:

«من سكن قلبه حب الدنيا بلي بثلاث: شغل لا يبلغ مداه، وفقر لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه».

وقال تعالى:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 14.

(2) سورة الحديد، الآية: 20.

(3) سورة فاطر، الآية: 5.

(4) سورة القصص، الآية: 60.

وقال تعالى:

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[2].

من هذه الآية يتضح لنا أن الإنسان أحد رجلين: رجل زاهد في الدنيا يبغي وجه الآخرة في كل عمل يعمله. فنيته تسبقه فيثاب عليها وعلى علمه طالما أنه يريد الآخرة، وقلبه مليء بالإيمان، فهو يراقب الله دائماً في خوف وحذر منه راجياً ثوابه وخاشياً عقابه، ولا شك أن هذا يضاعف الله له ثواب أعماله. ورجل آخر مفتون في الدنيا يبغي متاعها وعرضها الزائل، وقلبه مليء بالشك والنفاق حتى لو أغضب الله بذلك، إذ همه الدنيا وهذا النوع ليس له نصيب من السعادة في الآخرة قال تعالى في وصف هذين النوعين من الناس:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا * وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا * كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾[3].

وعلى هذا نجد أن الإنسان في الدنيا مؤقت وأنه لا بد راحل إلى دار الأخرة وهي الدار التي يستقر فيها ويطمئن لها تبعاً لأعماله المرضية قال تعالى:

---

(1) سورة الحديد، الآية: 20.

(2) سورة الشورى، الآية: 20.

(3) سورة الإسراء، الآية: 18 ـ 20.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(1).

فلا يسوغ إذن لمن كان وضعه مؤقتاً في الدنيا أن يفتتن بها بكل جوارحه، وأن يتجه إليها بحبه ويجعلها أكبر همه، فإذا فعل كان ممن يحبون العاجلة ويذرون الآخرة وهؤلاء هم الماديون الذين يحبون المال حباً ويأكلون التراث أكلاً لما يتمنون ما يتمنون، ولكنهم لا يعطون إلا بعض أمانيهم ومنهم من لا يعطون شيئاً في أمانيهم بل ينالهم فقر الدنيا وغضب الله وجزاء السعير.

هذا وإذا كانت الدنيا على الأساس الموصوف، وهي كما رأينا وسمعنا من كتاب الله أنها دار فانية وأنها لا قيمة لها إلا إذا كانت طريقاً للتزود بالتقوى لتحقيق السعادة في الدار الآخرة. فلا بد إذن للفعل من أن يهتدي بالشرع، والاهتداء بالشرع لا يتحصل إلاّ بالعبادة والتقوى وهو الغرض والغاية التي من أجلها خلق الإنسان لهذا فقد أمر بها من قبل الله سبحانه وتعالى إذ قال:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾(2).

هذا الأمر بالعبادة هو ما تقتضيه الدعوة إلى الإسلام دين الحق، الذي دعا إليه سيد المرسلين محمد ﷺ مبشراً ونذيراً بما أنزل عليه من كتاب مبين، هدى ورحمة لمن اتبع رضوانه، كما يهدي إلى الصراط المستقيم، وهو السلوك المطلوب من المسلم، سلوك المحبة والسلام سلوك الإيمان الذي تغذيه وتعزز العبادة والتقوى باعتبارها هي الوسيلة إلى ذلك.

قال تعالى:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

---

(1) سورة البقرة، الآية: 36.

(2) سورة البينة، الآية: 5.

﴿إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

هذا وإذا كانت العبادة والتقوى هي الغاية والهدف في هذه الدنيا وهي الوسيلة لله في اليوم الآخر والتي بها يرجى رضاء الله ورحمته، فما على الإنسان إذن إلاّ أن يعبد الله ويقيم شعائر الدين قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[2].

فالذين يبتغون الوسيلة عند الله هم المرتضون الذين يخافون عذابه وهم أقرب إلى الله بعبادتهم التي هي القربى والطاعة فهم عباده المخلصون قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾[3].

فمن لم يبتغ هذه الوسيلة ويتخلى عن عبادة الله، أو يعرض عن ذكره فهو في حكم المعدوم وقد قال تعالى في شأن من كانوا من هذا النوع والذين عطلوا حواسهم ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[4]، ذلك أن الحواس والأعضاء إذا لم ينتفع بها الإنسان فوجودها كعدمها طالما أن طاقاتها وقدراتها غير مستعملة كذلك الشأن بالنسبة للصلاة والعبادة باعتبارها هي التي تحقق إنسانية الإنسان، فمن يحافظ عليها يستكمل إنسانيته ومن يمتنع عنها أو يتركها فقد انسلخ عن إنسانيته وبهذا يضحى أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان أو دون الحيوان. قال تعالى في شأن هؤلاء:

﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[5].

فالإنسان إن لم يكن مقيماً للصلاة عارفاً بالعبادة وأحكامها لا يكون

---

(1) سورة المائدة، الآية: 15 ـ 16.

(2) سورة المائدة، الآية: 35.

(3) سورة الإسراء، الآية: 57.

(4) سورة البقرة، الآية: 171.

(5) سورة الفرقان، الآية: 44.

إنساناً بالمعنى المقصود على مقتضى الشرع، ذلك أن الله قد خلق الإنسان وخلق له جوارحه يستعين بها في حياته وسلوكه، من قيام، وقعود، وركوب، ومشي أو نظر، بل في كل ما يحقق سلوكه في الحياة الدنيا، كما خلق له مقومات رادعة وراقية، لحفظ عوارض النفس كالشهرة، والخوف، واللذة، والفرح، والغضب، والشوق والرحمة، إلى غير ذلك، جميع هذه الأمور منوط استعمالها بفعل خصّه الله بقابلية التعلم والتمييز، فاستعمال هذه الجوارح، إما أن تكون مجلبة للمحمدة، أو مجلبة للمذمة، ويظهر ذلك جلياً عند الاستعمال، فإذا عمل الإنسان خيراً حمده الناس، طالما أنه يعتمد الحق ويقوى على معرفته فتكون أعماله حسنة واتجاهات نفسه مستقيمة،وقلبه ذكياً، وقصده الله.

أما إذا عمل شراً فقد جلب المذمة باعتبار أن سلوكه في هذا ضد ما هو مطلوب منه، على السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أن الإنسان عندما يتحرك في أفعاله وأعماله يتحرى فيها دائماً وجه الله؟ وهل أن أفعاله على إطلاقها عبادة؟.

لا شك أن الله عندما خلق الروح والحواس للإنسان التي هي وسائل عمله، إنما خلقها بقصد قيامها بالعبادة شكراً لله على خلقها، فعلى الإنسان إذن في كل فعل أن يتحراه بما هو مناف للشهوات بهذا يتحقق له فيه الأجر والثواب، سواء كان الفعل واجباً، أو ندباً، أو مباحاً علي أن هذه العبادة المقررة بأمر من الله إنما هي مقررة بمقتضى العقل، وهي واردة في الكتاب أو السنة. أو مقررة بالإجماع والقياس، كل ذلك بما يتفق مع الأصول المستمدة من كتاب الله الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها قال تعالى:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1].

وإذا كانت العبادة هي الوسيلة في الدار الآخرة وهي أساس السعادة فيها، فما هي مدلولها وفحواها؟.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 38.

العبادة هي فعل اختياري مناف للشهوات البدنية تصدر بنية التقرب إلى الله طاعة له، وتطبيقاً لشرعه تبعاً لقواعد خاصة يتحقق بها الثواب. فتحديدنا للعبادة بأنها أفعال منافية للشهوات تخرج منها الأفعال الأخرى التي لا تعتبر عبادة وهي الأفعال المباحة كالأكل والشرب والقيام بالاتصال الزوجي بنية تحقيق الواجبات الزوجية أو بغية إنجاب الأولاد فهذه الأمور تدخل في نطاق الشهوات فهي ليست من ضروب العبادة، على أنها تدخل في شمول العبادة إذا تحرى المرء في فعلها حكم الشريعة وعلى هذا نجد أن كل فعل قصد به وجه التقرب إلى الله وسائغ في الشريعة يعتبر عبادة، إذن ما هي العبادة في مفهومها السلوكي في نطاق الشريعة وما هي أهدافها وفائدتها الدنيا والآخرة؟.

لا شك أن للعبادة وظائف هامة نجملها في معرض أنها طريق السعادة إلى الآخرة فيما يلي:

1 ـ العبادة إعداد نفسي للدعوة إلى طريق الله عز وجل:

العبادة في الإسلام ابتدأ بها رسول الله ﷺ قبل البعثة حيث ابتدأت خلوة في غار حراء، وكان للعبادة الأثر البعيد في نشر الإسلام وكانت أول إشارة صدرت بعدئذ من الله سبحانه وتعالى إذ قال مخاطباً رسوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[1].

هذا وكانت العبادة تشغل جزءاً كبيراً من حياة الرسول ﷺ في بدء الدعوة واستمر على ذلك في أخذ نفسه بالعبادة، ثم جرى على سنته كبار الصحابة إذ أخذوا أنفسهم بالعبادة وقراءة القرآن وذكر الله والصلاة، كما أن العبادة كانت مؤشراً متناسباً لمقام ومنزلة الإنسان في الدعوة وقوة بلائه فيها، هذا وإن الذين امتازوا بذلك قد كان لهم الفضل في نشر الدعوة الإسلامية، وكانوا ممن ملأ قلوبهم حب الله وسيطرت العبادة على جوارحهم واهتزت قلوبهم بذكر الله.

(1) سورة المزمل، الآية: 1 ـ 4.

2 ـ العبادة مظهر عملي يعبر عن سلوك الإنسان وحسن عقيدته:

العبادة هي التعبير العملي الصحيح والحي لعقيدة المسلم، حيث ينقل مفاهيم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلى التطبيق العملي، وهي العبادة التي هي القوة الدافعة والصادرة عن القلب والتي سخر الله لها الجوارح والأعضاء سلوكاً للعمل بأحكامها ومقتضياتها إذ تنعكس آثارها على حياة الإنسان في كل تصرفاته فهي والحالة هذه الوسيلة التي تنقل الإنسان من حيّز الفكر والإيمان بالعقيدة إلى حيّز العمل الذي يغذّي العقيدة ويحييها على أن تكون باستمرار طوعاً واختياراً لا اضطراراً أو بزمان دون زمان بل أن تكون لذاتها ونفسها خالصة لله.

قال تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1].

3 ـ العبادة تحدد للإنسان مركزه الاعتباري في الدنيا والآخرة:

وهب الله الإنسان عقلاً يفكر به بحيث يعلم ما هو في صالحه وما هو في غير صالحه، فكانت أول معرفته أن أدرك أن هناك خالقاً خلقه وزوّده بالجوارح والأعضاء لتقوم بوظيفتها وفعالياتها في قضاء حاجاته، والمحافظة على وجوده، الذي هو أمانة أودعها الله فيه في هذه الدنيا إلى أجل محدود، بهذه المعرفة آمن المسلم أن الله له عليه حق العبادة والشكر على ما أنعم عليه من نعم لاتعدّ ولا تحصى، هذه النعم يدركها الإنسان بمجرد أن يفكر في خلق السمٰوات والأرض فيعلم أن جزء من هذا الكون خلقه الله وخلق له أقراناً وأزواجاً وأولاداً من بنين وبنات مسؤول عنهم بدافع رابطة القرابة، فهو بهذا يدرك وجوده وموقعه من هذا الوجود الدنيوي ومآله ومستقره، كما يدرك التزاماته من هؤلاء الأقرباء وإذا كان كذلك بالنسبة للأقربين، فما هو موقعه ومركزه في هذه الدنيا من الالتزامات المفروضة عليه تجاة الناس من معاملات وسلوك وما هي الالتزامات، وحدد سلوكه منها وأدرك أنه مساءل

---

(1) سورة الزمر، الآية: 3.

عن أعماله ومحاسب عليها يوم القيامة، استطاع أن يحدد في ضوئها موقعه ومركزه الاعتباري منها يوم القيامة، هذا شأن الإنسان المؤمن الذي يعرف الله من خلال هذه الدنيا وما خلق فيها من مخلوقات، وما فيها من خيرات ونعم ولذائذ، فالعاقل لا يغتر بها ويدرك أنها مهما بلغت لا تساوي شيئاً تجاه محبة الله ورسوله وجهاده في سبيله، ولهذا لا يعتد بها إنما ينظر إلى ما سيقدمه من عمل ليوم الآخرة لهذا فهو لا يعيش لدنياه فقط، إنما يبغي الآخرة فيعمل على تحسين موقعه ومركزه في ذلك اليوم فيتقرب في هذه الدنيا بالأعمال الصالحة إلى الله وبمحبته، ولا يفضل على ذلك شيئاً مطلقاً، أما من كان على عكس ذلك فهو في ضلال مبين قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

4 ـ العبادة غذاء روحي وتطهير للنفس ومدعاة للصبر والثبات:

العبادة اتصال روحي مع الله بها يتقرب الإنسان، وتجسد عند العابد المحبة والخير، كما ينمو عند الإيثار الإنساني فيتحسس بالتعاطف والتوادد والرفق بالغير، فيدرك أنه في هذه الحياة لا بد مسافر إلى دار الآخرة فيكثر من ذلك الله وعبادته فيتصور نفسه دائماً أنه ملاقيه وفي هذا يقيم التوازن في سلوكه بل هو صمام الأمان في السلوك والمقدم له في الاتجاه الصحيح لهذا على الإنسان أن يحافظ على عبادة الله وعلى قراءة القرآن قال تعالى:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2].

في هذه الآية يبين الله ما هو المطلوب من الإنسان في سلوكه من كلام

(1) سورة التوبة، الآية: 24.

(2) سورة فاطر، الآية: 10.

طيب كذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض على الخير والعمل به وتعليم المنافع في الدنيا والآخرة هذه الأعمال الصالحة يجازي الله عليها الخير والحسنى.

هذا وإذا كانت العبادة علماً وعملاً. فإنه بالعلم يدرك معرفة الله ووحدانيته ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وذلك بالتفكير وإعمال العقل والاهتداء بالعلم أما العمل فإن وجود السمٰوات والأرض شاهدة على وجود الله سبحانه وتعالى إذ لا بد لكل مخلوق من خالق. كما أن معرفة الصلاة والزكاة والجهاد والصوم والحج وبر الوالدين كل هذه لا تغني معرفتها عن تطبيقها عملياً. هذا وإن أعمال العبادة منها ما يختص بالبدن، ومنها ما يشارك فيه القلب والبدن فالعبادة بالصلاة مثلاً تشتمل على غذاء الروح وتقوية البدن، فهي إذن رياضة بدنية ونفسية وروحية فبالعبادة تطمئن النفس إذ فيها ذكر الله وتوحيده والدعاء إليه قال تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

فالاطمئنان لا يتم إلا بتغذية الروح، والإنسان إذ يعبد ربه في الصلاة ويعرف مدلول هذه العبادة بدلالة التصديق بما أنزل الله وبأحكامها وإجراءاتها يتصور حقيقة ذاته ويطمئن إلى ثواب الله يوم الآخر وبهذا تتحقق عنده السعادة فيصمد أمام أي حدث طالما يعلم أن كل شيء بقضاء الله وقدره فلا تعترضه شبهة أو وهن في سلوكه وطالما آمن بالله وعلم علم اليقين بوجوده انطلقت جوارحه إلى عبادته وطاعته.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾[2].

فعلم اليقين إذن يحصل عن طريق الإيمان والاهتداء، فيدرك بالعقل المعارف فيستحضرها إذا نسيها أو غفل عنها فتنفتح بهذا بصيرته فيراها متجسدة أمامه في كل مخلوق إنها قدرة الله وعظمته، هذا شأن علم اليقين

(1) سورة الرعد، الآية: 28.

(2) سورة الحجرات، الآية: 15.

وهو مكشوف للخاصة من الناس الأتقياء إذ ينكشف لهم عن طريق العبادة، أما عين اليقين فهو في الدنيا للأنبياء ولبعض الصديقين الأبرار.

وهكذا نجد أن الإيمان بالله يدعو إلى العبادة التي كلف الناس بها لينتفعوا بها علماً أن الله غني عنها وغني عن العالمين. هذه العبادة التي كلف الله بها عبادة شرعها ليزيل عنهم أمراضهم النفسية، ويطهر قلوبهم، وينقي سلوكهم ويحسن تعاملهم، ويتزودون بها في دنياهم لآخرتهم، بها تتحقق لهم السعادة في الحياة الدنيا والآخرة، لهذا يقتضي الإلتزام بها، أما إذا أهمل الإنسان نفسه وتخلى عن العبادة، وأعرض عنها أذهب الله عنه تلك القوة الروحية وأضحت حياته مادية محضة بل أضحى ميتاً أو مريضاً أو أصماً لا يهتدي إلى شيء قال تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾[1].

فما على الإنسان إذن إلا أن يسارع إلى التزود بالتقوى والعبادة والعمل الصالح قبل فوات الأوان وقبل أن تذهب قواه قال تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3].

فمن يسارع إلى الخيرات فجدير به أن تحفه العناية الإلٰهية فيحصل على السعادة ويفلح في الدنيا والآخرة.

هذا والعبادات عامة من أهدافها تقوية النفس وجعلها صابرة وثابتة في الشدائد، وفي كل معرفة من معارك الحياة مهما كان نوعها. ولما كانت المعارك صراعاً بين الحق والباطل. فالعبادة تقوى شكيمة الإنسان ولا تخشى

---

(1) سورة النمل، الآية: 80 ـ 81.

(2) سورة البقرة، الآية: 197.

(3) سورة الحديد، الآية: 21.

في سبيل الله لومة لائم، مما يتعين انتصاره في الحق وثبوته وصبره أما الشدائد لعلمه أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأنه عبد من عبيد الله مضمون برعايته وحفظه، طالما أنه محافظ على عبادته يذكر الله دائماً ويعمل بمقتضى الشرع، ويعلم أنه في كل عمل مأجور عليه فلا يداخله الغرور، فيزهد في أعراض الدنيا ويعلم أن النصر حليفه. كل هذه المعاني السامية تتم بفضل العبادة فيبقى هادئاً مطمئناً راضياً مرضياً قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[2].

فالاستعانة بالصلاة هي الحافظ للإنسان من أن ينساق وراء السوء والشر، فالنفس الأمارة بالسوء يقتضي الاستعانة عليها بالصبر والصلاة، التي هي جلاء القلوب لما فيها من تأثير على النفوس والأرواح، وإن تكن شاقة، لأن النفس قد تجد مقاومة أمام السوء، وخشية من أن تنهار فإن الصبر والصلاة فيها حماية للنفس، وردع لها من أن تنساق في الشر.

فالعبادة والحالة ما ذكرنا لها صلة كبيرة في حياة الإنسان فهي ليست بمنفصلة عن حياة المؤمن بل هي معه في كل حركة وسكنة وهي بالطبع ليست مقصورة على الصلاة بل هي في مدلولها العام صلة مع الله، يذكر الإنسان بها الله في كل أمر ويدرك أنه معه في كل لحظة ومع ذلك فإن العبادة لا تعني الانقطاع والإنعزال عن الدنيا وما فيها إذ هذا ليس في صالح الإنسان وقد نهى الرسول ﷺ بعض الصحابة الذين انصرفوا إلى العبادة انصرافاً عزلهم عن الحياة تماماً إذ قال:

«فوالله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصلى وأرقد، وأصوم

(1) سورة المعارج، الآية: 19 ـ 23.

(2) سورة البقرة، الآية: 45 .

وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

فالإنسان بعبادته تتصل حياته في الدنيا وما فيها من محسوسات، هذه الصلة مادية في نطاق المخلوقات القائمة في الكون وهي مع ذلك قائمة على التفكير والتدبر بما تعني التصدي والإيمان بخالقه وخالقها. كما أنه يدرك أن هذه المحسوسات مسخرة له لاستثمارها والانتفاع بما في الكون وما يحتويه من أسر، ابتداء من الأسر الإنسانية والبيئة الاجتماعية وانتقالاً إلى المجتمع الأكبر مجتمع الإنسانية وإلى الأرض عامة التي يعيش عليها البشر، فإن الإنسان إذا لم يستطع تحسس موقعه في هذا الكون ولم يع بمركزه على هذه الأرض مركز عبوديته لله، فإنه يكون بعيداً عن المعارف، لأن الأصل في المعارف أن تحدد صلة الإنسان بالمحسوسات في الدنيا وما فيها من جماد ونبات وحيوان. على أن هذه الصلات بمعرفتها يدرك الإنسان أنها مخلوقة ومتفرعة عن الصلة العليا وهي الصلة بالله فإن هذه الصلة العليا تقتضي من الإنسان العبادة على اختلاف أنواعها.

هذا وإذا كانت صلة الإنسان بالأنبياء إنما هي صلة تقوم على الاهتداء، فإن صلة الإنسان بالله إنما هي صلة تقوم على العبودية التي تعنى عبادة الله بما فيهم الأنبياء إذ هم بشر. فعيسى عليه السلام ورد ذكره في القرآن بأن صلته إنما هي صلة عبودية قال تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2].

حتى إن محمداً سيد المرسلين صلته بالله صلة عبودية قال تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[3].

وقوله تعالى أيضاً:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[4].

---

(1) حديث متفق عليه.

(2) سورة الزخرف، الآية: 59.

(3) سورة الإسراء، الآية: 1.

(4) سورة الفرقان، الآية: 1.

فصلة البشر عامة بما فيهم الأنبياء إنما هي صلة عبودية مع الله، بمعنى أن العباد عامة وإطلاقاً مطالبون بعبادة الله لدوام استمرارية هذه الصلة وليروا أعمالهم يوم الآخرة، فهي إذن صلة قائمة وباقية ومستمرة ما دامت الحياة الدنيا، وبفنائها تنتقل الصلة من صلة عبودية إلى صلة مساءلة، ومحاسبة في الدار الآخرة.

وإذا كانت الصلة كما رأينا هي صلة عبودية معنى ذلك أن الإنسان عبد الله مطيع لأوامره ومجتنب لنواهيه وإذا كان الأمر كذلك فما هو مضمون صلة العبادة؟.

في مضمون صلة العبادة:

إن العبادة تعلن الصلة بين العبد وربه، هذه الصلة القائمة يشعر بها المرء باعتباره مخلوقاً، وهذا الشعور قائم في الأصل سواء كان الإنسان مؤمناً بهذه الصلة أو منكراً لها، ذلك أن الله هو الذي خلقه وحدد له أجله ففي العبادة يتحسن الإنسان بهذه الصلة ويقوى شعوره بها وتستحضر في كل عبادة. فما هي إذن أبعاد مضمون هذه الصلة ومعانيها؟

إن معاني هذه الصلة ومضمونها تتمثل فيما يلي:

1 ـ اعتراف الإنسان بخالقه وبالتبعية له:

إن مضمون العبادة تحقيق الصلة بين الله والإنسان من منطلق الاعتراف بالله وبوجوده، وأن الله هو الخالق لهذا الكون بما فيه الإنسان، كما أن أمر الإنسان بيده، فهو المعطي والمانع، والقانع والرازق، والمحيي، والمميت، ولا يستطيع أحد الخروج عنه، وكل ما يجري في هذا الكون بيد الله وقدرته وإرادته وقضائه وقدره، فبالعبادة إذن يشعر الإنسان بأنه عبد من عبيد الله فيعبده ويستعين به، وأن الله وحده هو المالك ليوم الدين.

2 ـ اعتراف الإنسان بعظمة الله:

إن صلة الإنسان بربه تنطوي على الاعتراف بالله وتعظيمه وتقديسه والخضوع إليه والخشية منه والالتجاء إليه، والطاعة لأمره، والانتهاء بنواهيه

والتفويض إليه فهو وحده صاحب القوة والسلطة هذا الاعتراف بعظمة الله يدفع الإنسان على العمل والاعتماد على الله العظيم الذي لا يرد للإنسان طلباً مما يؤدي إلى استفادة الإنسان من عمله وجهده والمثابرة على هذا الانتفاع لأن أمره موكل به من إله عظيم عادل رحيم ورازق كريم، هذا الاعتراف يستعين به الإنسان في سلوكه الدنيوي من معاملات، وفي سلوكه الديني من عبادات. كما ويكون عاملاً في الاطمئنان على أعماله يوم الآخرة.

3 ـ اعتراف الإنسان بنعم الله عليه:

إن مضمون صلة العبد بربه أنها تدفع الإنسان المستخلف في الأرض نحو حمد الله وشكره على ما أسبغ عليه من النعم وعلى ما هيأ له من أسباب الرزق وما سخر له في السموات والأرض وأنه سبحانه وتعالى هو الخالق والموجد لهذه النعم التي لا تنقطع والتي ينتفع بها الإنسان باستمرار.

4 ـ اعتراف الإنسان برحمة الله:

إن صلة الإنسان بربه تفيد الاعتراف بالربوبية والألوهية لله سبحانه وتعالى مما يقتضي من الإنسان المزيد من التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بمختلف العبادات، فينمو شعوره الروحي وتدفعه عقيدته الراسخة بالله بمقتضى الشرع إلى الالتجاء إلى الله والدعاء إليه، والقيام بالأعمال الصالحة ابتغاء رضوانه ورحمته فهو وحده يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

قال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[1].

5 ـ اعتراف الإنسان بمسؤوليته:

إن صلة الإنسان بربه مالك يوم الدين، توقظ عنده شعوره بالمسؤولية

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 57.

أمام خالقه مالك أمره، فيدرك أنه مسؤول عن جميع أعماله وتصرفاته، وأنه محاسب عليها يوم الآخرة وهذا ما يدعوه إلى مراقبة نفسه في سلوكه، فيستقيم في تعامله ويخشى الله في جميع تصرفاته وأفعاله طالما أن مصيره إلى الله سبحانه وتعالى الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. كل هذا يثير في الإنسان تفكيره ووعيه فيستيقظ شعوره وتتحرك جوارحه في العبادة تبعاً لإيمانه، فيدرك موقعه في هذه الدنيا كما يدرك مآله ومساءلته عن جميع أعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

6 ـ الاعتراف بوحدانية الله:

إن صلة الإنسان بربه في عبادته تدعو إلى الإيمان بوحدانية الله وحده لا شريك له طالما أنه يتجه إليه في كل ما يرجوه ويطلبه قال تعالى:

﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[1].

فالله وحده هو السميع والمجيب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، فصلة العبودية هذه بين الإنسان وربه قد تختلف بين شخص وآخر تبعاً للإيمان والكفر، فالمؤمن صلته بالله قوية في جميع أعماله وتصرفاته بحيث تسيطر هذه الصلة على نفسه وروحه ووجوده، فقلبه ينبض بها وتختلج جوارحه وتتحكم في لسانه فترى أن ذكر الله لا يفارقه فلا يغفل عنه آناء الليل وأطراف النهار. فهؤلاء ذكرهم الله تعالى بقوله:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[2].

هذا الذكر يثير القلوب ويدل على التوحيد والألوهية والكبرياء والجلال لله سبحانه وتعالى، هذا الذكر هو صلة تقوم على عبادة الله يعتبر الإنسان بها في أعلى الدرجات وأسمى المراتب فمن كانت هذه حاله يزداد واطمئناناً بذكر الله، قال تعالى:

---

(1) سورة الجن، الآية: 18.

(2) سورة آل عمران، الآية: 191.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾(1).

هذا الاطمئنان يدعوه إلى نماء الإيمان فيتوكل على الله ويرجو الفوز العظيم عند ربه هؤلاء قد يصلون إلى مرتبة خاصة.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾(2).

وهكذا نجد أنه بذكر الله تطمئن القلوب فتهدأ النفوس المضطربة باعتبارها آمنت وعملت صالحاً فمثوبتها كبيرة يوم الآخرة، هؤلاء المؤمنون إذا ذكر الله خافوا وتذكروا وعده ووعيده فيزدادون قوة إيماناً ونشاطاً في العمل ويتوكلون على الله، فيعتمدون عليه مزودين بأخذ الأسباب فيقيمون الصلاة ويؤدونها كاملة مستوفية شروطها، وينفقون مما رزقهم الله كل هذه الصفات تتوافر في المؤمنين الذين يسمعون ذكر الله وتلاوة القرآن وهذه ضرب من ضروب العبادة التي تتحقق بها الصلة مع الله وهي صلة قوية تحقق السكينة في نفوس المؤمنين قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾(3).

أما الصلة الضعيفة أو المعدومة للصدود والإعراض عن ذكر الله يتصف بها المنافقون أو الغافلون، أو الكفرة المنكرون لخالقهم والمنكرون لنعمه فهؤلاء هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، قال تعالى:

---

(1) سورة الرعد، الآية: 28.

(2) سورة الأنفال، الآية: 2.

(3) سورة الفتح، الآية: 4.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

وخلاصة القول أن صلة الإنسان بربه مبنية على أساس العبادة والعبودية وهي صلة تعترف بألوهية الخالق ووحدانيته، وأنه الخالق لكل شيء وأن الإنسان يعبد الله ويخشاه شاكراً نعمته معتمداً على رحمته وكرمه متوكلاً عليه بما يقدم من أعمال الخير، وشاعراً بعظمته وقدرته راغباً في عفوه ومستغفراً لذنوبه فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ هو، فإذا قامت هذه الصلة على هذا الأساس المتين والمبني على الإخلاص والمحبة والعمل الصالح لوجهه الكريم داعياً إلى الله فقد استمسك بالعروة الوثقى فيكرمه الله ويحبه ويرضى عنه قال تعالى في وصف هذه المراتب والدرجات من حيث التقرب والتحبب إلى الله ورسوله واتباع دعوته:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

والمحبة هنا تعني امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه والتقرب إليه بالعبادات والأعمال الصالحة هذه المحبة تقتضي اتباع كلام الله واتباع سنة رسوله والاهتداء بهديه ورضاه، فإذا تحققت هذه المحبة من العبد أحب الله عبده ووفقه وهداه لما يحبه ويرضاه وغفر له ذنوبه استجابة لدعواه. قال تعالى واصفاً نفسه بالاستجابة لدعوة الإنسان إذا دعاه خالصاً لوجهه الكريم.

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[3].

وقال تعالى في رضاه عن المؤمنين العابدين الذين يحبون الله وهم المقربون إليه والسابقون إلى عبادته والذاكرون المسبحون له والشاكرون لنعمه، قال في حق هؤلاء:

﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[4].

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 44.

(2) سورة آل عمران، الآية: 31.

(3) سورة البقرة، الآية: 186.

(4) سورة المائدة، الآية: 119.

وقال تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[2].

وهكذا يقابل الله الإنسان بفعله وتصرفاته من حيث الحب والتقرب وذكر الله، إنها مقومات سعادة المرء في الدارين ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[3].

هذه الصلة بين العبد وربه إنما هي صلة مباشرة دون وساطة، إذ ليس في الإسلام أي طقوس فإذا سأل الإنسان فليسأل الله، وإذا استعان فليستعن بالله وإذا دعا فليدعو الله مباشرة.

قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[4].

فالدعاء يحقق الصلة بين العبد والرب وهو وسيلة من وسائل العبادة، المقصود بها وجه الله، قال تعالى في شأن هؤلاء:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[5].

وقال تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[6].

---

(1) سورة الواقعة، الآية: 10 ـ 11.
(2) سورة البقرة، الآية: 152.
(3) سورة الزلزلة، الآية: 7 ـ 8.
(4) سورة غافر، الآية: 65.
(5) سورة الإسراء، الآية: 57.
(6) سورة الكهف، الآية: 28.

الحيـــاة والمــوت

الباب الرابع

الفصل الأول:

حقيقة الموت وفضيلته:

علمنا فيما تقدم أن الإنسان مستخلف في الأرض، وأن الله سبحانه وتعالى قد سخر له ما في السمٰوات وما في الأرض، وأن الإنسان مكلف بعبادة الله، وأن قربه أو بعده من الله متوقف على مدى صلته معه أو مدى أعماله الصالحة، كما علمنا أن حياة الإنسان محدودة الأجل، وأن الإنسان لا بد فانٍ، شأنه شأن كل ما في هذا الكون من مخلوقات، عملاً بقوله تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1].

أي أن كل ما في هذا العالم هالك فإنٍ إلا هو جل جلاله، فالكون إذن معدوم مهما طالت مدته إنما الله وحده الباقي والذي لا يجوز عليه القضاء بأي حال من الأحوال.

قال تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[2].

هذه المعلومات علمناها بالخبر الصادق اليقين الصادر عن الله سبحانه وتعالى، فلا بد للعقل من تصديقها عملاً بإيمان الإنسان بالله، وتطبيقاً لمقتضيات العقيدة الإسلامية، ذلك أن الإنسان إذ خلقه الله لمرحلة في حياته الدنيا، اقتضت حكمته، العالية تبعاً لطبيعة خلق الإنسان، أن يكون مزوداً بمقومات تؤهله للامتحان والابتلاء الرباني في مجال حياته في الدنيا. هذه الفترة المحدودة والتي تنتهي حياة الإنسان بانتهائها قد وضع الله فيها للإنسان

---

(1) سورة القصص، الآية: 88.

(2) سورة الرحمٰن، الآية: 26 ـ 27.

ظروفاً ملائكة لاختباره على أحسن وجه وأكمله إذ خلقه وضمن له طاقات ومقومات داخلية ذاتية، وخارجية كونية، فزوده الله وسخر له ما يلي:

1 ـ الإرادة الحرة المختارة.

2 ـ العقل المزود بالطاقة القادرة على التفهم والتفكير والتمييز بين الخير والشر.

3 ـ الجسم المزود بالطاقات والقدرات على تنفيذه أفعاله وتصرفاته.

4 ـ الحواس والجوارح لتحمي الإنسان في سلوكه وهي مؤشرات في طريق الإنسان لمعرفة الخير والشر.

5 ـ الكون وما فيه سخر للإنسان لعمل الخير ونفع الإنسانية.

6 ـ حياة الإنسان المحدودة في الدنيا للاكتساب فيها من أعمال للآخرة.

7 ـ الغرائز والدوافع والنوازع مقومات وصمامات أمان في أعمال الإنسان وتصرفاته.

8 ـ الرسل والأنبياء وما أنزل عليهم من الكتب السماوية للتعريف بأوامر الله ونواهيه وبأحكام الشريعة عامة.

كل هذه الأمور والقيم خلقها الله للإنسان لعبادته وطاعته، ولانتفاع الإنسان بها تبعاً للحكمة التي من أجلها خلق الله هذا العالم بمخلوقاته، ولسعادة الإنسان في هذه الدنيا ليحقق التكليف بمعنى أن حياة الإنسان المؤقتة هذه، إنما هي حياة امتحان لتجري المحاسبة يوم الآخرة تبعاً لأعمالها في الدنيا التي هي ابتلاء لظهور أي الناس أحسن عملاً.

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1].

---

(1) سورة الملك، الآية: 2.

في هذه المقدمات أفسح الله المجال للإنسان وأعطاه الفرصة للعمل في حدود استطاعته وقدرته لهذا كان لا بد أن يكون هناك جزاء يوم الآخرة من جنس العمل طالما أنه بشر وأنذر وأنه حدد له الفترة الزمنية لهذا الامتحان، وهي فترة الحياة التي تنتهي بوفاته، قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

فمن العدل إذن أن من رزق عمراً مديداً أن يكون مساءلاً عن أعماله طيلة هذا العمر المديد، ومن أعطى قوة جسمية كان مساءلاً عن ذلك بمقدار هذه القوة التي منحها الله له، ومن كان ذا مالٍ وغنى وسلطان كان مساءلاً عن ملكه وسلطانه بمقدار ما أعطي وزود به.

وهكذا تكون المسؤولية تبعاً للمؤهلات والقدرات، وهذا ما يقتضيه العدل الإلٰهي، فالله إذ يحاسب مخلوقاته إنما يحاسبها كما يشاء وفقاً لقاعدة عادلة، فهو إذ جعل التفاوت في الهبات والخصائص قسم المعيشة في الدنيا كما يشاء ورفع الناس درجات بعضهم فوق بعض وقسم الرحمة تبعاً لرضاه، بمعنى أن محاسبة الإنسان يوم الآخرة تتم بقانون عادل تبعاً لما هيأ الله له، كل هذا ضمن معادلات دقيقة لا يستطيع الإنسان متابعتها وحسابها.

قال تعالى:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

لا شك أن محاسبة الله لعباده تقوم على العدالة، فمحاسبة الناس، خاضعة لحكمة الله، وتبعاً لما يقسمه بينهم في المعيشة والرحمة والمقومات،

(1) سورة الأنبياء، الآية: 35.

(2) سورة الزخرف، الآية: 32.

فمحاسبة العلماء ليست كمحاسبة الجهلاء، ومحاسبة الأغنياء ليست كمحاسبة الفقراء ولا شك أنه في هذه المحاسبة يراعى فيها الاستعداد الفطري الموهوب للإنسان الموضوع تحت الامتحان طيلة حياته في الدنيا، هذا الامتحان الرباني لا بد وأن ينتهي إلى جزاء، فهو ثمرة هذه الامتحان، هذا الجزاء به يصنف الإنسان تبعاً لعمله فإما في النار وإما في الجنة.

وإذا كانت الحياة تنتهي بالموت فما هي حقيقة هذا الموت؟ حقائق تتعلق بالموت: يولد المرء في هذه الحياة دون إرادة منه، بل ليس له أي تدخل في وجوده أو وجود غيره سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ذلك لأن وجود الإنسان في الأرض إنما هو عملية خلق انفرذ الله بها وتتم بمشيئته إذ كتب من الأزل وقرر أن يخلق في هذا الوجود أشخاصاً ذكوراً وإناثاً على هيئتهم وسيماهم، وبظروفهم المقررة، وقد حدد أرزاقهم وأولادهم وأحفادهم، فهي إرادته جل وعز وقضاؤه وقدره المقرر، تبعاً للقوانين والقواعد التي سنها في هذا الكون، فهو وحده قد خلق البشر وقدر حياتهم ومماتهم، فالموت والحياة إذن بيده سبحانه وتعالى وأن الإنسان لا بد وأن يموت طالت حياته أم قصرت، وفي هذا الموت ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، دون أن يكون له أي تدخل في موته، لأن موته محدد من الأزل تبعاً لأجله المحدود: إنها أنفاس معدودة في أماكن محددة، تلك حكمة الله ولا تثريب ولا تعقيب على هذه الحكمة، وما على الإنسان إلا أن يسلم بهذه الحقيقة، الحقيقة الكبرى وهي الموت.

فالمرء إذن بمجرد خلقه، مقرر موته وانتقاله من هذه الحياة الدنيا التي نعرفها إلى حياة أخرى لا نعرفها، لأنه ما من أحد مارس عليها التجربة، ولكننا جميعاً سنعرفها فيما بعد أي في اليوم الآخر، لهذا جاءت الكتب السماوية جميعها توصي الإنسان بالاستعداد والتزود من الأعمال الصالحة لملاقاة هذا اليوم. فحقيقة الموت إذن مقررة في علم الناس جميعاً لأنها مشاهدة ومحسوسة وهي معلنة على مدى الزمان وفي كل مكان، قال تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1].

---

(1) سورة النساء، الآية: 78.

فملك الموت لا تحجزه الحواجز وأن الموت لا مفر منه، وهذا التقرير يدعو إلى الحث على العمل الصالح لملاقاة اليوم الآخر الذي لا بد من الوصول إليه، بمعنى أن الموت هو الطريق إلى اليوم الآخر وهو ما يشاهده كل إنسان في غيره حيث يضحى بالموت جثة هامدة لا حراك فيها، إنه برهان حسي مستمر ومتكرر ما مرّ الزمان وتعاقب الجدثان، يعلن في كل مشهد من مشاهد الموت، أن الإنسان فانٍ، وأن البقاء لله الواحد القهار، الذي قهر عباده بالموت وهو قضاؤه ولا رادّ لقضاء الله ولا غالب على أمره.

سنة الله في هذا الكون تطبق على الصغير والكبير، والفقير والغني، والمؤمن والكافر، والطائع والعاصي، وعلى المتواضع والمتأله، وعلى العالم والجاهل، على الرسل والأنبياء، هذه القاعدة عامة قضى الله بها في الدنيا على كل حيّ مهما كان نوعه ووصفه وجنسه ولونه وعمره. فما هذا الموت في ضوء ما ذكرناه.

الموت وفضيلته:

من المتعارف عليه أن الموت هو توقف الحس والحركة والتنفس عند الإنسان بحيث تفقد جميع أعضاء الجسم قدرتها ووظائفها وفعاليتها الذاتية والإرادية. ولقد توصل العلماء بعد دراسة واقعة الموت، أنه يتم بتوقف القلب عن النبض. على أنه بتقدم العلم والجراحة ونجاحهم في زراعة القلب استطاعوا استبدال القلب بقلب صناعي لا يحس ولا يشعر وإعادة النبض إلى القلب فتغيرت بهذه نظرة العلماء واعتبروا أن الموت لا يحصل نتيجة لتوقف القلب إنما يحصل لموت خلايا المخ جفافها بحيث يمتنع مرور الدم والهواء النقي فيها لبضع دقائق على أن هذه النظرية فقدت مستندها العلمي أيضاً عندما توصل العلماء إلى إعادة الحياة إلى المخ بعد أن فقد نشاطه لمدة غير قصيرة، وبهذا لم يعد يعرف الموت بأنه تعطل وظائف الأعضاء والحواس في جسم الإنسان لهذا لا بد من تعريف آخر للموت، ولعل أصدق تعريف له هو مغادرة الروح للجسم[1]. ومما يؤيد صحة هذا التعريف ملاحظة أنه

(1) عرّف عبد الرحمٰن بن أحمد الأيمي الموت فقال: الموت عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حياً المتواقف ص 140.

كثيراً ما تكون جميع أعضاء الجسم سليمة على أحسن ما تكون من الصحة ومع ذلك تحدث الوفاة دون سبب ما. فليس من تفسير له إذن سوى أن أمر الله قد تم باسترداد الروح من الجسد تبعاً لتوقيت سابق ومقدر بعلمه ومقضي بإرادته جل شأنه فيموت الإنسان دون علة. مع العلم أنه في حالات أخرى قد يموت المخ أن تتوقف الرئتان أو القلب ومع ذلك فلا يموت الإنسان.

في ضوء ما ذكرناه إذن نلاحظ أن الموت ليس له تفسير سوى أنه مفارقة الروح للبدن وانتقالها من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

هذا الموت في المنظور الحقيقي لفهم معنى الحياة نجد أنه أحد الأسباب التي توصل الإنسان إلى دار النعيم يوم الآخرة، إذ لولا الموت لما أمكن انتقال الإنسان إلى دار السعادة، أي لما أمكن كمال الإنسان، إذ من شروط كمال الإنسان حصول الموت له، ومفارقة الروح لهيكل بدنه، وبهذه المفارقة ينتقل الإنسان من حال مادي وضيع إلى حال روحي شريف وسام قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1].

فالوفاة إذن تحصل بقبض الروح من بدنها تبعاً لميعاد ذلك، بحيث لا نستقدم عنه ساعة من الزمن ولا تستأخر، وهذه هي الوفاة الدائمة في الأنفس حين نومها، فيقطع الله سبحانه وتعالى تعلق الروح بالبدن ظاهراً وباطناً قطعاً لا رجوع فيه في الدنيا، أما توفي النفس المؤقت في منامها فهو قطع لتصرف الروح في البدن ظاهراً إلى وقت محدود، وهو وقت النوم، ثم تعود الروح بعده إلى البدن كما كانت، وتبقى إلى الأجل المحدود الذي يعلمه الله سبحانه وتعالى إذا لم يمسك الله النفس ويميتها في منامها. وهذا ما يفسر لنا معنى استأثر الله بفلان أو لحق فلان بالرفيق الأعلى، فالموت إذن انتقال النفس من حالة حيوانية إلى منزلة عليا عند الله، منزلة الحب والتقرب إليه تبعاً لما يقدم بين يديه من أعمال صالحة، هذه المنزلة: هي المنزلة التي

(1) سورة الزمر، الآية: 42.

يرغبها المؤمنون لهذا نراهم يحبون الآخرة ويذرون الدنيا ولا يحرصون عليها لأن حياة الآخرة هي النعيم المقيم.

أما المشركون فهم على العكس يحرصون على الحياة الدنيا إذ يرونها نعيمهم المقيم ولا حياة بعدها ويودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة. فهم لا يتمنون الموت في الدنيا.

قال تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾[1].

فهؤلاء لن تتحقق لهم السعادة مهما طال عمرهم في الدنيا وأنهم لن يبعدوا عن العذاب وأنهم ملاقوه وأنهم وإن لم يكونوا مؤمنين بالآخرة، فهم سيبعثون حقاً وسيحاسبون على ما اقترفت أيديهم من شر، والله عليم بالظالمين.

أما الحريصون على الآخرة فالمؤمنون بأن لهم نصيباً فيها فهم يتحببون إليها ويتمنون أن يصلوا إليها باعتبارها دار السعادة وبالتالي فهم غير حريصين على الدنيا بل هم يتمنون الموت. هذا وهناك من يؤمنون باليوم الآخر ولكنهم يخافون يوم الحساب بما اقترفوه من ذنوب.

وهكذا نجد أن المؤمنين الصادقين الذين يفضلون الدار الآخرة على الحياة الدنيا لأنهم محققون من حسن أعمالهم بين يدي الله فهؤلاء لا يعتبر الموت عندهم باباً إلى الجنة، إذ لو لم يكن هناك موت لما أمكن وجود الآخرة، وبالتالي لما أمكن الوصول إلى الجنة، فالموت إذن نعمة من نعم الله على عباده ولولاه لما كانت نعمة الآخرة، إذ السبب الذي يوصل به إلى النعمة هو نعمة أيضاً، فنعمة الموت نعمة للمتقين ينتقلون بها من حياة الدنيا، حياة التعب والنصب إلى حياة الهدوء والاطمئنان دار السعادة والثواب الجزيل ـ والعطاء الكثير ـ وإذا كانت الدنيا سجن المؤمن فإن الموت هو

(1) سورة البقرة، الآية: 96.

الفرج وهو من أجل النعم، ولعل هذا هو التفسير المنطقي أو المبرر لحب الأنبياء والرسل للموت وإلى هذا أشار الإمام علي رضي الله تعالى عنه فقال:

«لا أبالي أقع على الموت أو يقع الموت عليّ».

فالموت إذن نعمة ولا يجوز أن يكفر الإنسان بها كما أنها رحمة من الله قدرها على عباده.

قال تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(1).

قال تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(2).

هذه الآيات تدعو إلى الإيمان بربوبية الله سبحانه وتعالى إذ خلق الخلق ولم يتركهم هملاً بل أنعم عليهم بما وهبهم من عقل يفكرون فيه بخلق الله ونعمه وكرمه، فهيأ لهم من أمرهم رشداً ورزقهم وحدد أجالاً يموتون بانقضائها، ثم يحييهم ليجزي كلاً منهم على ما قدمت يداه من عمل، فيحاسبهم يوم القيامة على ما أنعم عليهم من نعم، وعلى ما قابلوه بها من طاعة أو من معصية وهذا ما توجبه الحكمة والعدالة الأرضية بتحقيق اختيار الناس للثواب أو العقاب بأفعالهم وسلوكهم، فالموت والبعث إذن حق وواقع لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

بهذه الآيات رد الله سبحانه وتعالى على الدهريين الذين يعتقدون بعقيدتهم الفاسدة أن الحياة الدنيا لا حياة بعدها وما يفنيهم إلا الدهر نتيجة لضعف قواهم وأنه لا حياة لهم بعد فنائهم، هؤلاء إن هم إلا يظنون وهم

---

(1) سورة البقرة، الآية: 28.

(2) سورة الجاثية، الآية: 26.

كافرون بما أنزل الله للبعث، وهم شاكون أو منكرون للبعث وغرتهم الحياة الدنيا:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾[1].

فهؤلاء تبدو لهم سيئاتهم يوم القيامة بما عملوا فيكتشفون خطأهم ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[2].

ويخاطبهم الله بقوله:

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[3].

وهكذا نخلص إلى القول إن من خُلق مات ومن مات بُعِثَ يوم القيامة ومن بُعِثَ يحاسب ومن يُحاسب يُجَازى بالثواب أو العقاب، إنها معادلة ثابتة عادلة بأمر الله وحكمته هذه المعادلة سارية لا يستثنى منها أحد حتى الأنبياء والرسل فقد خاطب الله سبحانه رسوله ﷺ فقال:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[4].

فالموت على الرغم أنه رحمة ونعمة فهو إنذار للناس لاتباع الخير والعمل الصالح وتصحيح السلوك وطلب التوبة والمغفرة أن لدى الإنسان فسحة من العمر وهو حيّ، فإذا مات قد قطع الطريق على تصحيح أوضاعه وأغلق كتابه لنشره يوم القيامة إذ تجري المحاسبة بموجبه قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾[5]. وسيحكم الله

(1) سورة الجاثية، الآية: 32.
(2) سورة الجاثية، الآية: 33.
(3) سورة الجاثية، الآية: 34.
(4) سورة الزمر، الآية: 30.
(5) سورة الزمر، الآية: 31.

بينكم يوم القيامة، إنها نعم الله خلقها الله للإنسان ومتّعه في الحياة الدنيا ليعمل صالحاً وهيأ له أسباب الطاعة والمعرفة فجعل له نوراً يمشي أمامه، فأنزل القرآن على رسوله ﷺ ليعمل الناس بأحكامه فيغتنم كل إنسان شبابه قبل هرمه، وغناه قبل فقره، وصحته قبل سقمه وحياته قبل مماته ويعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أحياه ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[1].

وعن ابن عباس قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة ثانية، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[2].

فالموت إذن فضيلة وهو يتم لإنشاء الإنسان إنشاء آخر فالتغيير خلق لحياة أحسن وأفضل.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[3].

فالحياة الحقيقية حي حياة ما بعد الموت ولهذا تقدم الموت على الحياة لأن الموت أنعام للوصول إلى الحياة الحقيقية وهي حياة الآخرة.

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾[4].

---

(1) سورة عبس، الآية: 20 ـ 22.

(2) سورة غافر، الآية: 11.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 14 ـ 16.

(4) سورة الملك، الآية: 2.

فالموت مقدم على الحياة لأهميته ولأنه ذريعة إلى السعادة الكبرى من جهة ولأنه الوسيلة إلى نقض بنية الإنسان لتتم الإعادة يوم الآخرة على وجه أشرف وكأنها ولادة ثانية من جهة أخرى، وأنه لا يحب البقاء في الدنيا إلا النفوس الراضية بالأعراض الدنيوية أو الجاهلة بمآلها أما من كان متحققاً بحسن حاله عند الله فلا يكره الموت بل يحبه لأنه من باب من أبواب الجنة، ولو لم يكن للموت فائدة عظيمة للإنسان لما كان هناك معنى لهدم بنيته ونقضها، مع بديع صنعها، ودقة خلقها، وعجيب قدرتها، ومعجزة ملكاتها، أي لو لم يكن للموت هدف مبرر لخلقه، وحكمة بالغة لضرورته لما أذاقه الله للناس كافة، فخلقه للموت إذن فيه عظة وعبرة للناس ليعملوا صالحاً ويعملوا أنهم منتقلون من دار إلى دار حاى يستقر بهم القرار، لهذا فلا ينكر الموت والحياة والبعث والنشور إلا من قصرت بصيرته عن الدار الأخرة وهؤلاء هم الطبيعيون الذين أهملوا أفكارهم وجهلوا أقدارهم وشغلوا عن التفكير في خلقهم ومنشئهم، وشغفوا بما زين لهم في حياتهم، فاستمتعوا بالحياة الدنيا وهم عن الآخرة لاهون فضلّوا وضلّوا أولئك مأواهم جهنم وبئس المصير.

قال تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[3].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 14.
(2) سورة الأنعام، الآية: 122.
(3) سورة البقرة، الآية: 212.

وهكذا نجد أنه لو لم يكن للإنسان عاقبة ينتهي إليها وهي الدار الآخرة عن طريق الموت، لكان الإنسان أخسّ من البهائم، طالما أن حياته مليئة بالنصب والهم والحزن دون أن تكون هناك حياة أخرى تنتظره فيها السعادة والهناء. من هذا المنطلق نجد أن الموت هو طريق الحياة إلى الآخرة.

عالم البرزخ:

علمنا أن الموت أمر محقق على مدى الزمان وفي كل مكان من العالم لا يملك أي إنسان الفرار منه وأنه لا بد ملاق الناس جميعاً.

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

كما علمنا أنه من أمور الغيب لا مجال لأحد للعلم بحقيقته، وكل ما نحس به أنه واقعة نحسّ بها غيرنا عندنا تتوقف حركته ويضحى جثة هامدة حيث تفارقه الروح فلا يحس ولا يفكر ولا يعي وتنتهي إرادته فيتحول إلى مادة كسائر المواد بمعنى آخر تختفي فيه الحياة، ومع ذلك فيمكن أن يحسن بالموت وهو في سياقه يعاني سكراته، أو من تجاوزه إلى الحياة البرزخية.

والمراد بالحياة البرزخية هي الحياة التي بين الموت والآخرة فالبرزخ في المفهوم الشرعي هو ما يكون بين الموت ويوم القيامة، أي هو بين الموت الذي تنتهي به الحياة الدنيا وهي الحياة الأولى وبين البعث الذي تبتدىء به الحياة الأخرى، أي هو ما بين المادة الحسية وبين الحياة الآخرة التي هي من الأمور الغيبية، وعلى هذا فالبرزخ إذن ما بين الموت والبعث قال تعالى مشيراً إلى ذلك:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ

(1) سورة الجمعة، الآية: 8.

صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

والمراد بهذه الآية أن المحتضر عند الموت من الكافرين والعصاة المفرطين بحقوق الله عندما يجيئهم الموت ويرون ما أعد لهم من عذاب نتيجة لعملهم يودون أن يرجعوا لعلهم يعملون صالحاً، وهيهات أن يتم ذلك، إذ أمامهم برزخ، حاجز وسدّ بين الدنيا والآخرة، فيستحيل عليهم أن يتخطوه، فهم في حياة القبور وسيظلون في العذاب إلى يوم يبعثون.

وهكذا نجد أن القبر هو أول البرازخ والمرء مسؤول فيه قبر أو لم يقبر، غرق أو حرق فحيثما صار الحسم فهو قَبْرُهُ وكل ما يحدث في عالم البرزخ هو من الأمور الغيبية التي انفرد الله سبحانه وتعالى بمعرفتها وهذا يقتضينا بحث الروح وبحث الأمور المتعلقة بها والمشتملة على ما يلي:

1 ـ قبض الأرواح.

2 ـ السؤال في القبر.

3 ـ عذاب القبر.

(1) سورة المؤمنون، الآية: 99 ـ 100.

الفصل الثاني:

الروح والقبر:

في قبض الأرواح:

من المقرر شرعاً وديناً أن الإنسان مركب من جسم وروح، وأن الإيمان بوجود الروح قديم قدم العقيدة بوجود الله سبحانه وتعالى وهذا متفق عليه في الأديان السماوية[1].

---

(1) ظل الملايين من البشر يعتقدون بوجود الروح ويؤمنون بأنها قائمة في الجسد إلى أن ظهر المذهب المادي الذي انتشر منذ القرن السابع عشر حيث أخذ أرباب هذا المذهب ينكرون وجودها ويعتقدون أن العالم المنظور ما هو إلاّ مادة فحسب بما في ذلك الإنسان وأنه لا مكان للروح في هذا الوجود. ويبدو أن هذه الفكرة ترمي إلى غرض بعيد وهو الإلحاد لعدم التعاليم الإلهية والمعتقدات الدينية ومع ذلك فقد لقي هذه الأتجاه معارضة وتأسست جمعيات لمناوأة هذا المذهب المادي وأهمها جمعية المباحث الروحية في انجلترا حيث تأسست في عام 1882 وقد جمعت هذه الجمعية من التجارب الروحية ما يقع في أربعة وخمسين مجلداً وقد سمحت هذه الجمعية بأن يتلاقى العالمان العلمي والروحاني في مجال واحد، وقبل أن تتألف هذه الجمعية حمل الرأي العام، في انكلترا المجمع العلمي الانكليزي على وجوب تأليف نخبة علمية لفحص الظواهر الروحية فاستجيب للطلب وألفت لجنة من ثلاثة وثلاثين عالماً بذلوا أقصى جهدهم في التحقيق في هذا الموضوع واستغرقوا فيه مدة ثمانية عشر شهراً، ثم تقدموا بتقرير يقع في 514 صفحة ترجم إلى أكثر اللغات الحية، وأهم ما ورد فيه قولهم: «ولسنا نريد أن نثبت إمكان الوحي بالاستناد إلى اكتشافات هؤلاء العلماء في عالم ما وراء الطبيعة، فقد أثبتنا وجوده بالحس من الغرائز التي طُبعت عليها الحيوانات ومن حوادث العبقريات، ولكننا نستأنس بها في بحثنا هذا استدلالاً على أن الإنسانية قد اجتازت دور الافتتان بالماديات، وبدأت تدخل إلى عهد من الحياة تتفق فيها فتوحات الروح من طريق النبوة، وفتوحات العقل من طريق العلم فتستقيم على الجادة التي توصلها إلى كمالها المرجو لها خالصة من الشبهات الرائنة على الصدور والشكوك المحيرة للعقول» ا هـ يراجع وليم جيمس في كتابه «إرادة الاعتقاد»، وقد عرف العلماء الروح تعاريف عديدة فقال الألوسي في تفسيره روح المعالي، ج 1، ص 317.

على أنه ما من أحد يستطيع أن يسبر كنه حقيقتها وأسلوب فعاليتها وجل ما في الأمر أننا نلاحظ أثرها في جسم الإنسان فهي القوة الفعالة التي تحل في الجسم فتعطيه الحياة وتتحرك بها الجوارح وبها تقوم ملكات الإنسان بوظائفها من تفكر، وتعلم، واختيار، كما تتفاعل العواطف من حب وكراهية، هذه القوة المجردة لا تعرف ماهيتها ولا أسلوب فعاليتها، إنما خلقت وعملت بأمر الله سبحانه وتعالى، فإذا فارقت الجسد مات الإنسان وتحول إلى مادة كسائر المواد وبها يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات ومن أجلها أسجد الله للإنسان ملائكته قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾(1).

= «الروح: جوهر بسيط مجرد محدث بأمر الله تعالى وتكوينه وتأثيره إفادة الحياة للجسد» كما قال أيضاً في معرض فعاليتها وصفاتها «إنها عبارة عن جسم نوراني علوي متحرك مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، صار فيه سريان الماء في الورد.. لا يقبل التحلل والسدل والتفرق والتمزق، مفيد للجسم المحسوس الحياة وتوابعها. ما دام صالحاً لقبول الفيض لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة، ومتى حدث ذلك حصل الموت لانقطاع السريان. والروح عبارة عن ذلك الجسم» روح المعاني، ج 15 ص 154.

هذا وقد تعرضت معاجم اللغة إلى تعريف الروح فجاء في «المصباح المنير»:

الروحُ النَّفس فإذا انقطع من الحيوان فارقته الحياة. وقالت الحكماء: الروح: هو الدم ولهذا تنقطع الحياة بنزفه ـ وصلاح العبد وفساده بصلاح هذا الروح وفساده. ومذهب أهل السنة: إن الروح هو النفس الناطقة المستعدة للبيان ويفهم الخطاب ولا تفنى بفناء الجسد وأنه جوهر لا عرض ويشهد لهذا كله قوله تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ والمراد هذه الأرواح وقال الفراء: الروح هو الذي يعيش به الإنسان، لم يخبر الله تعالى به أحداً من خلقه، ولم يعطه علمه العباد، وقال: سمعت أبا الهيثم يقول الروح انما هو النفس الذي ينفسه الأنسان وهو جاد في جميع الجسد فاذا خرج لم يتنفس بعد خروجه «ويقول الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات القرآن». الروح: اسم للنَّفس وذلك لكون النَّفس بعض الروح كتسمية النوع باسم الجنس تسميه الإنسان بالحيوان وجُعل اسماً للجزء الذي به تحصل الحياة والتحرك واستجلاب المنافع واستدفاع الضار وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾.

وجاء في «اليواقيت والجواهر» ج 2، ص 137، عبارة الشعراني نقلاً لقول الجنيد:

الروح: شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً، فلا يجوز لأحد البحث عنه بأكثر من أنه موجود.

(1) سورة الحجر، الآية: 28 ـ 29.

هذه الروح إذا فارقت الجسد بأمر الله تنتهي المرحلة الأولى لحياة الإنسان هذه المرحلة التي تبدأ منذ أن نفخت الروح في المضغة وهي من بطن أمها بحيث تضحي جنيناً وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ فقال:

«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك»، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله تعالى الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها وإن احدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها[1]. هذه الروح التي تحل في جسم الإنسان وهو في بطن أمه يتوفاه الله وهو المحيي والمميت يأمر بقبض الروح عندما يشاء وفقاً لأجلها المحدود إذ قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾[3].

فلفظ الأنفس في الآيتين تعني الأرواح، وهذه في الآيتين تدل على أن أمر قبضها موكول إلى الملائكة وأن الظالمين في غمرات الموت وشدائد الحال تبسط الملائكة أيديهم لتخرج أنفسهم من أجسادهم بمنتهى الشدة والعنف بينما تخرج روح المؤمن بمنتهى السهولة. وهذا تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الكفار.

وهكذا يكون الموت بقبض الروح، وإذا كان الموت منوط بمشيئة الله

---

(1) رواه مسلم.

(2) سورة الزمر، الآية: 42.

(3) سورة الأنعام، الآية: 93.

سبحانه وتعالى ويتم بإرادته فهل هناك مكلف بهذه المهمة على وجه التخصيص؟ لا شك أنه ليس لدينا أي مشاهدة حسية على ذلك وجل ما في الأمر أننا نسلم بما أخبرنا عنه بالخبر اليقين في هذا الخصوص بما ورد في القرآن.

قال تعالى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1].

التوفي هنا والاستيفاء معنى واحد والمراد ملك الموت في هذه الآية هو عزرائيل على الصحيح وهو المكلف بقبض الأرواح بأمر الله سبحانه وتعالى خالق الموت والحياة، ولا شك أن مهمة عزرائيل هي المهمة الدائمة له في هذا العمل ويعاونه أعوان من الملائكة وهذا هو رأى الجمهور استنباطاً من مدلول في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[3].

فالوفاة تتم إذا حم القضاء وجاء الأجل وقضي الأمر توفت الإنسان رسل الله وهم ملك الموت وأعوانه حيث ينتزعون الأرواح من أجسادنا وهم لا يغرضون ولا يفرطون ولا يقصرون في هذه المهمة زيادة أو نقصاناً، إذ كل ذلك يتم بحكم الله سبحانه وتعالى ولا معقب على حكمه وبهذا نجد أن ملك الموت يقبض الأرواح والأعوان يساعدونه والله تعالى هو الآمر بقبض الروح التي به تفارق الروح الجسد ويقول الإمام الغزالي بهذا الصدد:

«إن الموت معناه تغير حال فقط، وإن الروح باقية بعد مفارقة الجسد،

---

(1) سورة السجدة، الآية: 11.

(2) سورة النساء، الآية: 97.

(3) سورة الأنعام، الآية: 61.

إما معذبة وإما منعمة، ومعنى مفارقتها الجسد، انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات الروح تستعملها، حتى أنها بالروح لتبطش باليد، وتسمع بالأذن وتبصر العين، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب هنا عن الروح، أي القلب الروحاني لا القلب الصنوبري الجسماني، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة.. إلى أن يقول: «فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقته الجسد، وما هو لها بواسطة أعضاء تتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد» هنا، السؤال الذي يطرح هل أن الروح بمفارقة الجسد تتبعه بالفناء؟ وإذا لم يكن كذلك فمتى تعود إليه؟

من المعلوم أن الروح تغادر الجسد مغادرة مؤقتة وذلك عند النوم كما أنها تفارقه مفارقة نهائية حيث يمسك الله بالروح فلا تعود إليه وهنا تقطع اتصال الروح بالجسد وإذا كان الأمر كذلك في حالة الموت فماذا يحصل للجسم والروح بعد افتراقهما؟

بالنسبة للجسد نجد أنه وعاء للروح وأن الروح سر وجوده فإذا تخلت عنه فني الجسد ويضحى كسائر الأجسام المادية يتغير ويتحلل إلى عناصره الترابية التي خلق منها. هذا التغيير والتحول يتم بعد الممات، وهو تغيير اضمحلالي على أنه مع ذلك نلاحظ أن الجسد يتغير في حال حياته إلى حال وجود الروح فيه، تتجدد الخلايا عن طريق الانقسام والانشطار إلى خلايا أخرى وهكذا يستمر هذا وتتجدد الخلايا في كل أجهزة الجسم وطبقاته بصفة منتظمة ودورية. وهذا ما يلاحظ في جسد الإنسان وشكله إذ يتغير الإنسان في شيخوخته عمّا كان عليه جسده في طفولته وشبابه، وهذا التغيير ناجم عن أن الخلايا المتجددة لا تعوض الخلايا الميتة بخلايا بقوتها وفعاليتها بل يتم التغيير والتبديل بخلايا أضعف. ولو دقق الإنسان في هذا التغيير لأدرك أن الإنسان يتجدد جسمه تجدداً يكاد يكون كاملاً شاملاً لجميع أجهزة الإنسان وأعضائه وخاصة في الخلايا الدموية حيث تستهلك هذه بخلايا جديدة تعوض عنها ومن هنا يلاحظ تغيير جلد الإنسان لوناً وشكلاً وملمساً ومن هنا أيضاً نلاحظ أن شكل الإنسان في هذا العام غير شكله في العام الماضي أو العام الذي قبله ويؤكد هذا أن صورة الإنسان في شبابه غير صورته في

كهولته فالتباين واضح.

أما بالنسبة للروح فهي ثابتة لا تتغير في كافة مراحل تغيّر جسم الإنسان أي أنها واحدة في الطفولة أو الشباب أو الشيخوخة. هذا وإذا كان الجسم يتبدل بمرور السنوات، فإن الروح في الجسم تبقى هي هي فلا تضعف ولا تتبدل وهي غير قابلة للانقسام كما أنها غير قابلة للفناء، أو النمو أو التطور شأن نمو الجسم بالغذاء إذ أن الروح لا تنطبق عليها هذه القاعدة، وبالتالي فلها استقلالها الذاتي ولا تتأثر بأي خلية من خلايا الجسم.

وهذا يعني أن الروح بمغادرتها للجسد تبقى قائمة حية ولا تتأثر بأي طريقة من طرق فناء الجسد، سواء قتل الإنسان أو أكلته السباع أو حرق أو استقر في قاع البحر، قبر أو لم يقبر، إذ بمجرد الوفاة يبدأ الجسم بالتحلل وتبدأ البكتريا والجراثيم في تحليله إلى تراب، وهو ما يشاهد فعلاً في القبور.

فالروح إذن لا تموت وإذا كان الأمر كذلك فإن حياة الروح في البرزخ أمر ثابت علمياً وقد أقرته الأديان وبهذا تكون عودة الروح إلى الجسد بعد الموت أمر ثابت، بالخبر اليقيني قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1].

فالحياة إذن مقررة وثابتة أما نوعها وطبيعتها فهذا غير معروف لدينا.

قال تعالى:

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

هذه الحياة تحدث في البرزخ وتستمر إلى يوم يبعثون، قال تعالى:

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3].

---

(1) سورة يس، الآية: 12.

(2) سورة الشورى، الآية: 9.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 100.

فالحياة إذ تعود للإنسان إنما تعود بعودة الروح إليها وعلى هذا فهل الروح تموت وتحيا أي تموت مع موت البدن ثم تعود إليه عندما تحصل المساءلة في القبر؟ أم لا يعتريها الموت؟ وإنما الموت منحصر في البدن وحده؟.

تعرض ابن قيم الجوزية إلى هذا ويحسن بنا أن ننقل وجهة نظره في هذه المسألة إذ قال: «اختلف الناس في هذا، فقالت طائفة تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت.

وقالوا: وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلاّ الله وحده قال تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(2).

قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت قالوا وقد قال تعالى عن أهل النار إنهم قالوا:

﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(3) فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن والأخرى للروح.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان، قالوا: وقد دلّت على هذه الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ولو ماتت الأرواح لا نقطع عنها النعيم والعذاب وقد قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ

---

(1) سورة الرحمٰن، الآية: 26 ـ 27.

(2) سورة القصص، الآية: 88.

(3) سورة غافر، الآية: 11.

يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾[1].

هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت.

والصواب: أي يقال: موت النفوس مفارقتها لأجسادها وخروجها منها.

فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب... حتى يردها الله في جسدها، فإن قيل فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل قد قال تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[2].

فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السمٰوات والأرض من هذا الصعق. فقيل: هم الشهداء، وهذا قول أبي هريرة وابن عباس، وسعيد بن جبير. وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وهذا قول مقاتل وغيره، وقيل: هم الذين في الجنة، من الحور العين وغيرهم، وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور، وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[3].

وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 169 ـ 170.

(2) سورة الزمر، الآية: 68.

(3) سورة الدخان، الآية: 56.

ثانية لكانت موتتين، وأما قول أهل النار ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾[1]. فتفسير هذه الآية التي في سورة البقرة وهي قوله تعالى:

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾[2].

فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات، وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها[3].

يخلص مما تقدم أن حياة الروح ثابتة بعد الوفاة وقد تأكد بما وصفه الله حياة الشهداء فقال: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[4].

هؤلاء الشهداء الذين جاهدوا وقاتلوا في سبيل الله وقتلوا يجازون على ما قدموا، وهم بعد استشهادهم مكرمون عند الله، فجعلهم أحياء بدليل أنهم يرزقون؛ أما ماهية هذه الحياة، هل هي حياة مادية أو روحية فهي من الغيبيات التي انفرد بها علم الله سبحانه وتعالى. هذا ومهما تكن ماهية هذه الحياة فقد وصفهم الله بأنهم فرحون بها مغتبطون بما هم عليه من نعم وفضل أتاهم الله به قال تعالى:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[5].

---

(1) سورة غافر، الآية: 11.

(2) سورة البقرة، الآية: 28.

(3) ابن قيم الجوزية، الروح، ص 49. دار الكتب العلمية، بيروت.

(4) سورة آل عمران، الآية: 169.

(5) سورة آل عمران، الآية: 170.

على أن هذه الحياة التي يحياها البشر سواء من كان منهم قد قتل مستشهداً في سبيل الله أم من مات موتاً طبيعياً وإن كنا لم نخبر عن طبيعة وماهية هذه الحياة بيد أنه من المسلم أن هذه الحياة ليست واحدة ممتدة بعد الموت، بل القرآن الكريم أشار إلى أن الحياة تتابع إلى عدة مراحل ابتداء من مرحلة ما بعد الموت إلى مرحلة ما بعد البعث. إذ قال تعالى مشيراً إلى ذلك بصيغة الاستفهام الاستنكاري التعجبي:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

فالحياة إذن بعد الموت ثابتة ومؤكدة بدليل النص المذكور.

السؤال في القبر:

اتفق أهل السنة والجماعة على أن سؤال الملكين للميت في قبره حق وهو عام لجميع الناس المكلفين. أما غير المكلفين كالصبيان والمجانين ومن لم تبلغهم الدعوة فلا يسألون في البرزخ لانتفاء تكليفهم في الدنيا، والدليل على ذلك حديث أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما بسنده عن البراء بن عازب، أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**» فذلك قوله تعالى:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[2].

وإلى هذا ذهب القاضي أبو بكر الباقلاني فقال:

[يجب أن يعلم أن كل ما ورد به الشرع من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير، ورد الروح إلى الميت عند السؤال، ونصب الصراط والميزان والحوض والشفاعة للعصاة المؤمنين، كل ذلك حق وصدق ويجب الإيمان

(1) سورة البقرة، الآية: 28.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 27.

والقطع به لأن جميع ذلك غير مستحيل في العقل][1].

هذا وإذا كانت الحياة ثابتة بعد الممات هل معنى هذا أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة؟ اختلف الرأي حول هذا السؤال. إذ أنكر أبو محمد بن حزم في كتابه الملل والنحل أن يحيا الميت فقال: [وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة فخطأ. وأن الآيات القرآنية بزعمه تمنع من ذلك ويعني قوله تعالى:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[2]. وقوله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[3].

قالوا: لو كان الميت يحيا في قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاثاً وأحيانا ثلاثاً، وهذا باطل وخلاف القرآن، إلا من أحياه الله تعالى آية لنبي من الأنبياء، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم؛ والذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، ومن خصه نص قوله تعالى:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

---

(1) أبو بكر بن الطيب الباقلاني، «الانصاف» ص 51، دار الهجرة بيروت ـ دمشق.

(2) سورة غافر، الآية: 11.

(3) سورة البقرة، الآية: 28.

(4) سورة البقرة، الآية: 259.

وكذلك قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾[1].

فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة... ثم يخلص إلى القول أن مخاطبته الموتى تتم وأن سماعهم لا يكون إلا لأرواحهم فقط بلا شك وأما الجسد لا حسّ له وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[2]. فنفى السمع عمن في القبور وهي الأجساد بلا شك.. ويتابع ابن حزم رأيه فيقول: ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ في خبر صحيح أو أرواح الموتى تردّ إلى أجسادهم عند المساءلة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به، وهذا ملخص رأى ابن حزم على أن ابن القيم الجوزية تصدى بالرد عليه فقال: قلت ما ذكره أبو محمد فيه حق وباطل أما قوله: من ظن أن الميت يحيا في قبره خطأ فهذا فيه إجمال إن أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبّره، وتصرفه، وتحتاج معها إلى الطعام والشراب، واللباس فهذا خطأ كما قال، والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص.

وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ليسأل، ويمتحن في قبره، فهذا حق ونفيه خطأ إلى أن يقول وأما استدلاله بقوله تعالى:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾[3]، فلا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد.. على أن قوله: ثم تعاد روحه في جسده، لا يدل على حياة مستقرة دائماً على إعادة لها إلى البدن، وتعلق به، والروح لم تزل معلقة ببدنها وإن بلى وتمزق. وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

---

(1) سورة الزمر، الآية: 42.

(2) سورة فاطر، الآية: 22.

(3) سورة غافر، الآية: 11.

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه آخر.

الرابع: تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة وقد ذكرنا من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سؤال المسلم، وهذا الرد إعادة خاصّة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق فهو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً. وأما قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾[1].

فإمساكه سبحانه التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت في وقت ما رداً عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا.

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي، وحياته غير حياة المستيقظ، فإن النوم شقيق الموت، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم ارد روحه إلى بدنه كحال النائم فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة:

أما قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[2].

فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لا تقدر

---

(1) سورة الزمر، الآية: 42.

(2) سورة فاطر، الآية: 22.

على إسماعه إسماعاً ينتفع به، كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعاً ينتفعون به. ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً البتة هذه الآية نظير قوله:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾[1].

وقد يقال نفي إسماع الصم مع نفي إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع، وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعاً بمنزلة خطاب الميت والأصم. وهذا حق ولكن لا ينفي إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان في وقت ما، فهذا غير الإسماع المنفي والله أعلم[2].

وهكذا تبين لنا إن إعادة الروح للبدن في القبر أمر ممكن وقائم على ما بينه ووضحه ابن قيم الجوزية، وباعتقادنا أن الموضوع مما يدخل في شمول الغيبيات، وبما أننا لم نشاهده كما أنه لم يكن لدينا أي تصور عن كيفيتها، ولما كان الله سبحانه وتعالى قادراً على كل شيء فليس من المستحيل أو من العسير أن يعكس الحياة في القبر فيرد الروح إلى الميت مرة أخرى على الجسم الموجود أو على ذراته حيث يستجوبه الملك فيسأله عن نبيه وعن الإسلام وعن الدين الذي مات عليه. هذا وإذا كنا ونحن في عالم الدنيا لا نستطيع تصور هذه الأمور ذلك لأنها تتعلق بقواعد ونظم تختلف عن أسس معرفتنا وقواعدها من حس أو تفكير أو رؤية مما هو معروف ومألوف في عالمنا المرئي أو المسموع، لهذا فإنه لا بد تبعاً لإيماننا، من التصديق بهذه الأمور طالما قد ورد فيها الخبر اليقيني عن القرآن الكريم أو الأحاديث الصحيحة المتواترة. وإلى هذا أشار الإمام الغزالي فقال: إن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت. أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل، وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي

(1) سورة النمل، الآية: 80.

(2) ابن قيم الجوزية، المرجع السابق، ص 60 وما بعدها.

أهم عليك. وإن كنت آمنت به وجوزت أنه يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت؟[1].

هذا وقد قال الحافظ في «الفتح» عارضاً رأي من قال: إن السؤال يقع على الروح فقط من غير عودة إلى الجسد، كما عرض رأي من خالفهم إذ قالوا: تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه كما أثبت في الحديث، ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن من ذلك اختصاص، ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تتفرق أجزاؤه، لأن الله قادر أن يعيد الحياة إلى جزء من الجسد، ويقع عليه السؤال، كما هو قادر على أن يجمع أجزاءه. والحامل للقائلين: بأن السؤال يقع على الروح فقط إن الميت قد يشاهد في قبره حال المساءلة لا أثر فيه، من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره، ولا سعة، وكذلك غير المقبور كالمصلوب. وجوابهم: أن ذلك غير ممتنع في القدرة، بل له نظير في العادة وهو النائم، فإنه يجد لذة وألماً، لا يدركه جليسه، بل اليقظان قد يدرك ألماً ولذة لما يسمعه، أو يفكر فيه، ولا يدرك ذلك جليسه، وإنما أتى الغلط من قياس الغائب على الشاهد، وأحوال ما بعد الموت على ما قبله، والظاهر أن الله تعالى صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك وستره عنهم إبقاءً عليهم، لئلا يتدافنوا وليست الجوارح الدنيوية قادرة على إدارك أمور الملكوت، إلاّ من شاء الله.

وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور كقوله: «إنه ليسمع خفق نعالهم»، وقوله: «تختلف أضلاعه لضمه القبر»، وقوله: «فيقعدانه» وكل ذلك من صفات الأجساد[2].

كما ذهب هذا المذهب «الإيجي» إذ قال:

«إحياء الموتى في قبورهم ومسألة منكر ونكير لهم، وعذاب القبر للكافر والفاسق كلها حق عندنا واتفق عليه سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والأكثر بعده»[3].

---

(1) أبو حامد الغزالي - إحياء علوم الدين، ج 4 ص 500.

(2) نقلاً عن السيد سابق - العقائد الإسلامية ص 239.

(3) عبد الرحمٰن بن أحمد الأيجي - المواقف في علم الكلام - ص 382 - عالم الكتب - بيروت.

وخلاصة القول في هذه المسألة ما قاله شيخ الإسلام إذ نقل رأيه ابن قيم الجوزية فيما يلي:

«قال شيخ الإسلام[1] الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عودة الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون فقالوا: السؤال للروح بلا بدن وهذا ما قاله ابن مرة، وابن حزم، وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة ترده، ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص»[2].

عذاب القبر:

المقصود بعذاب القبر أو نعيمه هو ما يتم في فترة البرزخ وهي مرحلة من مراحل الجزاء سواء كان بالثواب أو بالعقاب، هذا العذاب أو النعيم الذي يتم قبل يوم القيامة تدل عليه الآية الكريمة، قال تعالى مشيراً إلى عرض العذاب غدواً وعشياً على آل فرعون جزاء سيئات ما عملوا:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[3].

فسر البيضاوي هذه الآية بقوله: «فإن عرضهم على النار إحراقهم بها من قولهم عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به، وذلك لأرواحهم كما روى ابن مسعود إن أرواحهم... تعرض على النار بكرة وعشياً إلى يوم القيامة وذكر الوقتين يحتمل التخصيص والتأبيد وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي هذا ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة قيل لهم:

---

(1) المراد به الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله رضي الله عنه.

(2) ابن قيم الجوزية، المرجع السابق، ص 72.

(3) سورة غافر، الآية: 45 ـ 46.

﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم[1].

من هذا تبين لنا أن هناك عذابين عذاب القبر وعذاب يوم القيامة وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك فقد روى عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «تعوذوا من عذاب القبر فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر».

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة».

هذا الحديث يفيد إلى التنعيم لمن هو من أهل الجنة والتعذيب لمن هو من أهل النار.

وقال تعالى:

﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾[3].

هاتان الآيتان تدلان على أن العذاب متحقق وقت الإماتة وهو وقت ممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية بمعنى أنه يدخل في شمول هذا الوقت عذاب القبر لأنه يبدأ من ساعة الإماتة. فالظالمون إذ يغشاهم الموت وهم يجزون العذاب الشديد لا يملكون أن يخرجوا أنفسهم منه. وفي جميع

---

(1) أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص 473 مطبعة البابي الحلبي - 1344.

(2) سورة محمد، الآية: 27.

(3) سورة الأنعام، الآية: 93.

الأحوال أن الدلالة تفيد أن العذاب واقع قبل يوم القيامة أي ما بين الموت والنشور لهذا، فإن إنكار العذاب غير وارد لما ثبت وقوعه بالدليل القاطع مما يقتضي الإيمان به. هذا في جميع الأحوال إن عذاب القبر من المسائل الغيبية وقد اختلف العلماء فبعضهم قال إن كل ما يثبت بالخبر اليقيني المتواتر يوجب الإيمان به على الرغم من أنه لا يمكن مشاهدته، كما أنه لا مجال للعقل للخوض فيه لا سيما وأن الخلاف دار حول وقوعه على الروح أم على البدن أو على الروح والبدن معاً ويحسن بنا أن نستعرض الآراء حول هذا الموضوع. وقد أورد ابن القيم الجوزية بعض هذه الآراء. فقال:

سئل شيخ الإسلام[1] هل عذاب القبر على النفس والبدن؟ أو على النفس دون البدن؟ أو على البدن دون النفس، وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا؟

فقال: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتتعذب منفردة عن البدن، وتنعم متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحالة مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام، وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث، قول يقول:

إن النعيم والعذاب لا يكونان إلاّ على الروح؛ وإن البدن لا ينعم ولا يعذب، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين، ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذي يقرون بمعاد الأبدان ولكن يقولون:

لا يكون ذلك في البرزخ وإنما يكون عند القيام من القبور. لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط. ويقولون:

إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ، فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معاً؟ هذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل

---

(1) المراد به الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله رضي الله عنه.

الكلام والحديث وغيرهم، وهو اختيار ابن حزم، وابن مرة، فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر، ويقر بالقيامة، ويثبت معاد الأبدان والأرواح، ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها.

الثالث: أنه على البدن فقط.

وهناك من يقول بثبوت عذاب القبر ويجعل الروح هي الحياة، أما إنكار عذاب الأبدان مطلقاً وعذاب الروح مطلقاً قول شاذ. كما أن القول بأن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذّب وإنما الروح هي الحياة وقد قال بهذا الرأي طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية كالقاضي أبي بكر وغيره كما ينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وهذا القول شاذ بل باطل. على أنه قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة، أن الروح تبقى بعد فراق الأبدان وأنها منعمة أو معذبة كذلك من الأقوال الشاذة من يقول:

إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى كما ينكر عذاب القبر ونعيمه بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن وأن البدن لا ينعم ولا يعذّب وهذا بلا شك قول باطل.

هذا ولتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى[1].

أما بالنسبة لعلماء العصر الحاضر فقد اختلف الرأي حول نعيم القبر

(1) ابن قيم الجوزية، المرجع السابق، ص 72 - 73.

وعذابه أيضاً وظهر ذلك جلياً في ندوة لواء الإسلام التي انعقدت بمصر (47) وقد انطلق النقاش حول الحديث الذي روي عن الرسول ﷺ إذ قال: **«القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»**.

حيث أثير السؤال هل أن هذا الحديث في «الصحاح» من السنة؟ وما شاهده من القرآن وقد أجاب على هذا السؤال الأستاذ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر فقال: معنى الحديث صحيح وله شاهد من القرآن قوله تعالى:

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[1] ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى عذابين عذاب يوم القيامة، والعذاب الذي يعرضون عليه غدواً وعشياً، وظاهر أنه عذاب القبر، وقد روي أن النبي ﷺ «مر بقبرين يعذّبان، فقال: يعذّبان وما يعذّبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرز في كل قبر واحد، فقالوا: يا رسول الله لم صنعت هذا فقال: لعلّ أن يخفف عنهما ما لم ييبسا» رواه البخاري. وقال الأستاذ عبد الوهاب خلاف: كذلك يدل على عذاب القبر ما ورد من خطاب النبي ﷺ لأهل القليب ما وعدكم ربكم حقاً؟ لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فقال له بعض الصحابة: هل يسمعون يا رسول الله؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

وقد قرأت في تفسير قوله تعالى:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا﴾[2].

إن العلماء اختلفوا في حياة الشهداء، أهي حياة حسية جسمية أم حياة روحية، فالذين اختاروا أنها حياة روحية قرروا أن الجسم بعد أن تفارقه الروح لا تكون فيه حياة، لأن سر الحياة هو الروح كما قال تعالى:

---

(1) مجلة لواء الإسلام العدد الثاني السنة السابعة شهر شوال سنة 1372، ص 112.

(2) سورة آل عمران، الآية: 169.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1]

وما دام الله أمسك روح الشخص وقضى عليه بالموت فجسمه في قبره ليس فيه حياة، وأن هذا الرأي هو الذي يظهر أنه الصواب، وأن جميع النصوص الواردة في عذاب القبر كنايات أو تعبيرات مجازية لأن العذاب يكون للروح، إذ الجسم فقد الإحساس.

ثم يثار سؤال كيف تعذب الروح وكيف يحس الميت بالعذاب والنعيم إذا فقد الجسم الحياة؟ وقد أجيب على هذا السؤال بأن العذاب يكون للروح والإشارة للجسم باعتباره كان محلاً للروح من قبل. وأن العذاب أو النعيم للروح أو الجسم إنما هو فيما قبل البعث والنشور، أما بعد البعث والنشور فالعذاب للأجسام لا للأرواح فقط، وإلاّ ما كان لاستنكار المشركين للبعث في قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2]. ثم علق الأستاد خلاف على سؤال القبر هل هو حق فقال: أنا مؤمن بوجود عذاب في القبر وسؤال فيه أما حقيقة العذاب والسؤال، فأمر غيبي لم يفسره لنا الله، ولم يوضحه لنا الرسول ويجب علينا الإيمان بالسؤال والعذاب. وإن لم نعرف حقيقته. كما طرح في الندوة من قبل البعض، أن هذه المسائل التي تكون بعد الموت هي من السمعيات أي لم تثبت إلاّ بالسمع. وقد قال الأستاذ محمد أبو زهرة في شأنها ما يلي.

«السمعيات المتصلة بالعقيدة لا تثبت إلاّ بالقرآن أو الحديث المتواتر، شأن كل مسائل العقيدة؛ فلا يجب الإيمان فيها إلاّ بقرآن قطعي الدلالة، أو بحديث متواتر قطعي الثبوت. وليس حديث عذاب القبر من الأحاديث المتواترة؛ ونحن نؤمن بكل كا جاء به القرآن، بكل ما جاء به القرآن، وكل ما جاءت به السنة المتواترة» وقال أيضاً في هذا الصدد:

«وأوامر الدين قسمان: أوامر اعتقادية وأخرى تكليفية عملية، فأما

(1) سورة الزمر، الآية: 42.

(2) سورة الرعد، الآية: 5.

الأوامر التكليفية فطريق معرفتها القرآن الكريم، سواء أكان قطعي الدلالة، أم لم يكن، والسنة النبوية سواء أكانت متواترة أو مشهورة، أو كانت خبر آحاد؛ بل إن الإمام أحمد كان يأخذ في الأحكام العملية بالحديث الضعيف ما لم يثبت أنه مكذوب على رسول الله ﷺ، وجمهور الفقهاء يأخذون بالمراسلات من الأحاديث أي غير المتصلة السند؛ فأحكام البيع والشراء والزكاة والصلاة والحج ونحوها من الأحكام العملية التكليفية تثبت بالدليل القطعي وبالدليل الظني. أما الأوامر الاعتقادية فلا يجب الإيمان فيها إلاّ بما ثبت بالدليل القطعي الذي لا شبهة فيه، وهو ما يثبت بالقرآن الذي يكون قطعي الدلالة، وما يثبت بالسنة المتواترة، أما الأحاديث الآحاد فلاحتمال الكذب فيها وإن كان احتمالاً غير راجح، ولا دليل عليه، فإنه يجب العمل بها في التكليفات العملية ولا يجب الإيمان بها في الاعتقادات؛ ولكن جاءت أحاديث رويت في صحاح السنة في عذاب القبر ونحوه فنأخذ بهذه الأحاديث ولا نكذبها، ولكن لا نعتبرها جزءاً من العقيدة يكفر من لا يؤمن بها، لا نردها لأنه ليس لدينا دليل على كذبها، فمن قبيل الاحتياط نستمسك بها، ونأخذها على العين والرأس ولا نردها، وفي الوقت نفسه لا نعتبرها جزءاً من الاعتقاد الذي يجب الإيمان به ويكفر جاحده».

وعلق الأستاذ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر فقال: لا يقول أحد إن منكر عذاب القبر كافر، بدليل أن المعتزلة ينكرونه، ولم يقل أحد إنهم كفار.

انتهـــاء الكـــون

الباب الخامس

الفصل الأول:

النفخ في الصور والبعث:

علمنا فيما سبق مفهوم يوم القيامة واليوم الآخر ومدلوله، وأنه يوم ينتهي فيه الكون فتتبدل الأرض والسماوات، وتنتهي الحياة فيه دلالة على قيام يوم القيامة أو دنو وقوعها، إذ إن الحياة مهما طال أمدها. ومهما مرت بحضارات، أو اندثرت أجيال وقامت أجيال أخرى لاحقة، على اختلاف أجناسها وألوانها وقدراتها ومفاهيمها، فإنها لا بد منتهية، سواء تطورت أو لم تتطور، قصرت حياتها، أم امتدت إلى آلاف القرون، كما أن الطاقات الكونية على اختلاف قدراتها وماهيتها، محكوم عليها بالفناء، سواء بالقوانين الطبيعية أو بالقوانين الإلٰهية. تلك حقائق فرضها الله تبعاً لعلمه وقضائه وقدره وإن الدلائل على ذلك كثيرة وثابتة عقلاً وديناً، فالبشر الذي يعيش على وجه الأرض إنما يعيش بفضل الضوء والحرارة المستمدة من الشمس بمقدار مناسب دقيق أحكم الله سبحانه مقداره وأبعاده، وسرعته، تبعاً لقوانين الكم والكيف في الحركة والحرارة والتوازن والجاذبية، فإذا اختل التوازن الحركي بين الشمس والأرض والقمر أو زادت الحرارة أو فقد الضوء مصدره، فلا بد أن تختفي الحياة في هذا الكون لا سيما وأن الشمس ليس لها مصدر خارجي آخر يمدها بالحرارة والضوء. كما أن السرعة الضابطة لحركة الأرض والشمس والقمر لا يمكن أن تتقدم بموجبها واحدة عن الأخرى.

قال تعالى:

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ

يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[1].

كما أن القانون الآخر بعلم الديناميكا الحرارية الذي يحكم كثيراً من الظواهر الكونية ينبئنا أن الكون لا بد إلى نهاية واحدة عن طريق انخفاض الحرارة وتضاؤل إشعاعها بحيث تجعل الحياة على الأرض مستحيلة بمعنى أن الفناء محقق تبعاً لهذه القاعدة كيفما كانت صورته أو شكله قال تعالى:

﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾[2].

هذا الفناء المقرر بأمر الله سبحانه وتعالى تسبقه دلائل وأشراط تعتبر قرائن على دنو وقوع يوم القيامة وقد سبق أن ذكرنا هذه الدلائل أما بالنسبة للأرض فقد أشار الله تعالى أيضاً على وقوع يوم القيامة قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ﴾[3].

هذه الأمارات من قبل الله سبحانه وتعالى فيها الدلالات الكافية على دنو يوم الآخرة أو وقعه ومع ذلك فلا يملك أحد تحديد يوم الآخرة مهما أوتي من علم كما أنه لا يملك أحد أيضاً تبديل ما في الكون أو تغيير شكله أو التحكم في قوانينه على الرغم مما وصل إليه العلم من شطر الذرة واستخدام الطاقة الكهربائية والالكترونية، فالإنسان الذي غزا الفضاء وهبط على سطح القمر وأقام المحطات الفضائية وأرسل المراكب إلى الكواكب، واستفاد من السماء والأرض وسخرها لنفسه بقدرة الله سبحانه بقي عاجزاً أمام أحداث الكون وأمام تنبؤات غيبية فلا يملك مثلاً أن يحدد ميقات يوم

---

(1) سورة يس، الآية: 39 ـ 40.

(2) سورة القصص، الآية: 88.

(3) سورة يونس، الآية: 24.

القيامة أو يوم البعث لهذا بقي جاهلاً في هذه الناحية يتساءل متى تقوم الساعة وبماذا تبدأ بدايتها؟ هذا السؤال شغل فكر الإنسان منذ أن عرف ربه وآمن به ويؤيد هذا التساؤل ما قاله سبحانه وتعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

في هذه الآية يتم السؤال عن زمن اليوم الآخر واستقراره، فالجواب يأتي من الله سبحانه وتعالى بأنه لا يكشف خفاء علمها وأنه لا يطلع على حدوثها أحداً مهما كانت صفته ملاكاً أو نبياً أو رسولاً، وذلك لهولها، إذ يبقى الناس خائفين، وهذا ما يدفعهم إلى إصلاح أمرهم وتقويم سلوكهم وإعداد أنفسهم ليوم الحساب، فهم إذ يظلون خائفين يرقبون اليوم الآخر وهو لا يأتيهم إلا بغتة. حيث تتكور الشمس وتنكدر النجوم ويخسف القمر وتنفطر السماء وتدك الجبال دكة واحدة حيث تتوقف قوانين التوازن والجاذبية وقوانين الحركة والحرارة إيذاناً بانتهاء كل شيء وقد وصف الله سبحانه وتعالى أثر ذلك في الأرض والسماء فقال تعالى:

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[4].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 187.

(2) سورة التكوير، الآية: 1 ـ 2.

(3) سورة القيامة، الآية: 7 ـ 9.

(4) سورة الانشقاق، الآية: 1.

وقوله تعالى:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[4].

فالمرحلة الأولى إذن ليوم القيامة هي تبدل الأرض والسموات وتسيير البجال.

ونسفها بأمر الله سبحانه حيث لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً. وهكذا أسند الله سبحانه وتعالى إلى الأرض أحداثاً عديدة منها الرجفة والزلزلة والرج. والمدّ والدّك والبروز والتخلي. كل هذه الأحداث تهيئة ليوم البعث وهي المرحلة الثانية قال تعالى واصفاً حال الناس في هذا اليوم:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾[5].

---

(1) سورة الرحمٰن، الآية: 37 ـ 38.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 104.

(3) سورة الحاقة، الآية: 14.

(4) سورة طه، الآية: 105 ـ 107.

(5) سورة النازعات، الآية: 6 ـ 8.

فالرجفة هزة عنيفة تنطلق تصيب من تصيب ويبقى الناس فيها خائفين مرتجفين كل هذه الإشارات والأمارات دلائل على مجيء وعد الله وتحقق حدوثه بإنهاء العالم وحدوث البعث.

قال تعالى:

﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[1].

هذه الحوادث دليل على انتهاء الكون وهو اليوم الذي يتم فيه البعث حيث تحشر الأجساد والأرواح بعد أن ينفخ في الصور فما هي حقيقة هذا النفخ؟

النفخ في الصور:

النفخ في الصور تصرّف يقيد الأبدان بقيام حدث عظيم يتصف بالهول الشديد الذي يصيب العالم، وهو في الوقت ذاته إعلان عن وقوع الحدث وقد ورد ذكره في القرآن في عشرة مواضع يستشهد الله به على ما يحصل في الكون أو ما يعتري البشر.

نتيجة للنفخ في الصور الذي يفيد معنى النقر وهو صوت شديد قال تعالى:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[2].

وقد أورد الله لفظ النفخ في الصور[3] متكرراً في القرآن بما يفيد وقوع

---

(1) سورة الكهف، الآية: 98 ـ 99.

(2) سورة المدثر، الآية: 8 ـ 9.

(3) الصور في اللغة هو البوق أو القرن ينفخ فيه ومما يؤيد أن الصور بمعنى القرن. ما ورد في القرآن في سورة المدثر ﴿فإذا نقر في الناقور فذلك يوم عسير﴾ وجاء في لسان العرب النقر: «أن يضع لسانه فوق ثناياه مما يلي الحنك ثم ينقر.. وقد نقر الدابة نقراً وهو صوت يزعجه أي تنفر به الدواب والخيل وقد كنى عن الحرب والناقور تحدث صوتاً يشبه النقر على أن صاحب اللسان ينقل عن المفسرين فيقول: «والناقور الصور الذي ينقر فيه الملك أي ينفخ، وقوله تعالى: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ قيل: الناقور الصور الذي ينفخ فيه للحشر، أي ينفخ في الصور».

حوادث متعددة في هذا النفخ، نحو قوله تعالى:

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[5].

وقوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[6].

وقوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[7].

وقوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾[8].

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 73.

(2) سورة الكهف، الآية: 99.

(3) سورة طه، الآية: 102.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 101.

(5) سورة يس، الآية: 51.

(6) سورة النمل، الآية: 87.

(7) سورة الزمر، الآية: 68.

(8) سورة ق، الآية: 20.

وقوله تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[2].

من تدقيق هذه الآيات نجد أنها جاءت إشارة إلى أن النفخ إعلان على قيام أحداث معينة كما أنه يوم الوعيد حيث يحشر المجرمين زرقاً، كما أنه في هذا اليوم حيث ينفخ في الصور يحشر الناس، ولا أنساب بينهم ولا يتساءلون عن ذلك بسبب الهول والفزع الذي يصيب الناس بحيث يصعق كل من في السمٰوات والأرض، إلا ما شاء الله.

وهكذا نجد أنه بعد أن تقوم الساعة ويتحقق يوم الآخرة الذي يتم نتيجة للنفخ في الصور، تحقق المرحلة بالنفخة الأولى، حيث ينتهي نظام الحياة القائم في الكون فينتهي معه كل شيء قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[3].

ففي نفخة الصعق، وهي النفخة الأولى ينتهي كل شيء، ثم تأتي النفخة الثانية وهي نفخة البعث.

قال تعالى:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[4].

---

(1) سورة الحاقة، الآية: 13.

(2) سورة النبأ، الآية: 18.

(3) سورة الحج، الآية: 1 ـ 2.

(4) سورة يس، الآية: 49.

وقال تعالى:

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[1].

ففي النفخة الثانية إذن يبعث الله سبحانه وتعالى الحياة في الناس فيخرجهم من قبورهم ويقسم المجرمون ما لبثوا إلا ساعة.

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[3].

فالنفخة الثانية إذن هي نفخة للبعث فيأتي الناس أفواجاً لمحاسبتهم وتطبيق الثواب والعقاب تبعاً لوضع كل إنسان قال تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[4].

هذه النفخة الثانية أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[5]

(1) سورة يس، الآية: 53.

(2) سورة الروم، الآية: 55.

(3) سورة يس، الآية: 51 ـ 52.

(4) سورة النبأ، الآية: 17 ـ 18.

(5) سورة الزمر، الآية: 68.

فحصول النفختين إذن محقق بصراحة النص قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾[1].

قال ابن عباس: الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية.

وفي جميع الأحوال سواء في النفخة الأولى أو النفخة الثانية فإن الله سبحانه وتعالى لم يطلع عليها أحداً كما أنه لا يتسنى لأحد رؤيتها أو معرفة شكلها أو كيفية حدوثها، فهي من الأمور الغيبية التي لا مجال للعقل أن يتصورها، كما أنه لا يمكن قياسها بالنسبة لما فيها من الأهوال، على القنبلة الذرية أو الهيدروجينية، لأن هذه مهما تكن بالغة الخطورة فهي ليست بذات أثر على أرواح الأموات، أو على الملائكة، في حين أنه يوم النفخ يصعق كل من في السمٰوات والأرض، ويدخل في شمول ذلك أرواح الأحياء والأموات بحيث يهلك كل شيء ولا يبقى إلا وجهه الكريم.

هذه الأمور إذن هي من الأمور الغيبية يقتضي التسليم بها وتصديقها لأنها من مقتضيات العقيدة التي يجب قبولها دون الدخول في خيالات أو تصورات لا طائل لها وهكذا خلصنا إلى أن النفخ الثاني إنما هو حدث لحصول البعث.

البعث[2] والرد على منكريه:

البعث المقصود هنا هو إعادة الأجسام بعد فنائها وإعادة الروح إليها بعد إمساكها، وهو مصدر جاء من بعثه بعثاً بمعنى أحياه ويتم هذا البعث في اليوم الموعود وهذا الإحياء يتم بقدرة الله سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ

(1) سورة النازعات، الآية: 6 ـ 7.

(2) بعث يبعث بعثاً من باب فتح: بعثه أرسله، وبعثه من نومه أيقظه وبعث الموتى: أحياهم، واسم مفعول مبعوث وجمعه مبعوثون. ويوم البعث هو يوم القيامة مجمع اللغة العربية معجم القرآن الكريم، ج 1، ص 108.

ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2].

فالإنسان الذي خلقه الله وأماته قادر على أن يبعثه يوم القيامة، أما كيف يبعث وعلى أي هيئة ومتى يبعث بعين أجزائه نفساً فهو في علم الله ومع ذلك الإشارة الواردة من الله سبحانه وتعالى تفيد أن الإعادة والجمع بعين الأجزاء بالنسبة للعظام قال تعالى:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[3].

قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ * قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾[4].

فالله سبحانه وتعالى كما خلق البشر قدار على بعثه لا يعجزه شيء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

قال تعالى مخاطباً البشر ومبيناً بساطة بعثهم:

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[5].

من هذه النصوص القاطعة الواردة في القرآن يتبين لنا أن حياتنا في

(1) سورة الروم، الآية: 27.
(2) سورة الأحقاف، الآية: 33.
(3) سورة القيامة، الآية: 3 ـ 4.
(4) سورة يس، الآية: 78 ـ 79.
(5) سورة لقمان، الآية: 28.

الدنيا هي حياة مؤقتة لا تنتهي بالموت إنما فيها إعادة حيث يعيد الله سبحانه الأرواح إلى الأجساد وهذا ثابت، مما يقتضي الإيمان به لأنه من أصول العقيدة الإسلامية التي تقتضي التسليم بما جاء فيها، فضلاً عن أن أدلة البعث واضحة لا تقبل الشك، حيث، خاطب الله المترددين والشاكين، فناداهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعصورهم بأن ينظروا إلى أصل خلقهم حيث خلقهم من تراب من أماتهم، ومن كان قادراً على الخلق والإماتة فهو قادر على الأحياء والإعادة، فمن ينظر إلى مراحل خلقه وأصله أنه خلق من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم ينظر كيف يُقَرّ في الرحم إلى أجل مسمى، ثم يخرج طفلاً ثم يبلغ أشده ثم يتوفاه الله. أو ينظر إلى الأرض كيف يحييها الله وأنه بمجرد إنزال الماء عليها تهتز وتربو وتنبت من كل صنف بهيج. لا شك أنها قدرة الله القادر على كل شيء يحيى ويميت ويبعث من في القبور، أنها أدلة قاطعة على قدرته تعالى.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[1].

وهكذا نخلص إلى أن الله سبحانه وتعالى القادر على خلق السمٰوات

---

(1) سورة الحج، الآية: 5 ـ 7.

والأرض وما بينهما وهو لا يزال يخلق ويرزق فهو يقضي ويقدر ويحيي ويميت وهو على كل شيء قدير فهو قادر على البعث ولا يسوغ عقلاً أن ينسب العجز إلى الله كما يتوهم المنكرون ما دام هو الذي خلق أولاً فلا وجه لإنكارهم البعث إذ من بدأ الخلق ليس بعاجز عن أن يعيده وما إنكارهم للبعث وهو الخلق الثاني إلاّ خلط وليسَ من خلق جديد قال تعالى:

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

فإنكار البعث إذن لا يصدر إلا عن جاهل مكابر مترف كافر بلقاء الله.

البعث حق لا يسوغ إنكاره:

البعث يدخل في شمول العقيدة الإسلامية التي يفرض علينا الدين الإسلامي أن نؤمن بها، إذ كل ما تحتويه العقيدة الإسلامية حقائق ثابتة بنفسها، وهي ذات وجود واقعي لا شك فيه. وقد أتتنا من باب الإخبار الذي هو يقين لا يقبل النسخ، وبما أنه وارد في العقيدة لهذا وجب الإيمان بالبعث الذي هو واجب على كل مكلف، إذ إن الحقائق لا تكون دائماً حسية في هذه الدنيا. بل قد تكون فيما وراء الحس أي ما وراء هذا العالم، ومع ذلك وإن لم يلمسنا الله سبحانه حقيقتها المادية في هذه الدنيا فإنه يقتضي الإيمان بها طالما ورد الخبر اليقيني عنها من الله سبحانه وتعالى. إذ الحقائق الدينية لا تكون دائماً حسية بل قد يكون الغرض منها تربية خلقية ترمي إلى تهذيب النفوس وتقويمها في العمل السلوك، من هذه الأمور الإيمان بألوهية رب العالمين وصفاته وبالوحي، وبالبعث أنها حقائق ثابتة لها قيمتها في توجيه حياة الإنسان لهذا أوجب الدين الإسلامي الإيمان بها دون أي مجاملة أو تبديل أو تعديل أو تحوير لأنها مسلمات لا تقبل النقاش والجدل.

إذا كان هذا بالنسبة للألوهية وكذلك الأمر بالنسبة للوحي كما مرّ معنا سابقاً أنه حقيقة يقينية ثابتة وواقعية وجهت الإنسان إلى التماس طريق الهداية، والابتعاد عن الهوى والنزوات لهذا حض الدين الإسلامي الناس

---

(1) سورة ق، الآية: 15.

على الإيمان به والتصديق بكل ما جاء به الوحي.

أما البعث والدار والآخرة فهي حقائق غيبية يترتب على معرفتها تقويم سلوك الناس جميعاً، إذ يعرف كل إنسان أنه سيبعث يوم الآخرة ويحاسب على أعماله من خير أو شر، بالثواب أو العقاب ليعلم أنه لن يترك سدى بل إنه نتيجة المحاسبة يعرض على الجنة أو النار. لهذا فقد اهتم القرآن الكريم باليوم الآخر الذي هو الموئل والملاذ والمقر الذي يتم فيه المساءلة عن سلوك الإنسان تجاه جميع أفعاله وتصرفاته من خير أو شر من هذا المنطلق جاء القرآن الكريم بالأدلة والبراهين ليقيم الحجة على منكري البعث، على أن منكري البعث مرد إنكارهم يرجع في مفهومهم إلى الحالات التالية:

1 ـ غرابة البعث:

اعتمد منكرو البعث في إنكارهم له أنه من المستبعد حدوثه لما فيه من غرابة، لأنه لم يعهد مثله في الحياة الدنيا لأحد أن قام من قبره وأنه تبعاً للأحاسيس المادية لا يعقل أن يعود الجسم بعد أن أنحل واعتراه الفناء إلى الحياة وقد أورد القرآن على لسان هؤلاء أن المنكرين لآيات عدة فقال:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 49.

(2) سورة السجدة، الآية: 10.

(3) سورة ق، الآية: 3.

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾[1].

هذا وقد أورد القرآن الكريم آيات تجاه المنكرين للبعث لعلة غرابته، فضرب لهم الأمثال الحسية في أنفسهم وفي الحياة الدنيا، استناداً إلى أن الله لا يعجزه شيء وأن بعث الإنسان يوم القيامة إنما هو بمثابة يقظته في الدنيا بعد منامه وهذا التشبه تقريب لأذهان الناس.

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

وقال تعالى راداً أيضاً على تساؤل المنكرين للبعث:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ

---

(1) سورة سبأ، الآية: 7 ـ 8.

(2) سورة الزمر، الآية: 42.

(3) سورة الإسراء، الآية: 49 ـ 51.

وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۞ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

2 ـ إنكار البعث بزعم عدم الفائدة:

ينكر أرباب هذا الرأي وهم من الدهريين البعث بمقولة أن الكون وجد أصلاً وبطبيعته مشتملاً على جميع العوامل التي تؤدي إلى تفاعله ذاتياً وبدون أي مؤثر خارجي، وأنه بطبيعته مهيأ للتزاوج والتوالد والتفاعل الذاتي ومع ذلك فهم يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا العالم إذ خلقه وتركه لمصيره وتفاعله الذاتي وإنما لا يتدخل في إنهائه لأن أجل كل شيء في الحياة تابع لانتهاء طاقته وتبعاً لصلاحيتها للبقاء واستمرارها الحيوي، بحيث إذ انتهى هذا التفاعل انتهت معه وتحقق الفناء تبعاً لذلك. فأصحاب هذا الرأي أشار إليهم الله سبحانه وتعالى فقال على لسانهم:

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾[2].

وقال تعالى مشيراً إلى إنكارهم البعث:

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[3].

هؤلاء الدهريون إذ ينكرون وجود مؤثر خارجي، يرون أن الفناء يتم نتيجة للتفاعل بحكم الزمن، لهذا لا يجدون مبرراً لوجود البعث، طالما أنه ليس هنالك مؤثر خارجي يحقق الفناء وتبعاً لهذا ينكرون البعث كما ينكرون الحكمة في وجود البعث وبالتالي ينتفي عندهم أن البعث حقيقة ثابتة لا بد منها. على أن القرآن الكريم يتصدى لهذا المفهوم الخاطىء ويرد على أصحابه مخاطباً الفطرة الإنسانية ومحيطاً بالفكرة الباطلة فيعبر عنها بالحجة

(1) سورة المؤمنون، الآية: 79 ـ 85.

(2) سورة الجاثية، الآية: 24.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 37.

والبرهان تبعاً للبدهيات المعقولة وعلى كافة المستويات فهو لا يخص بالرد مستوى معيناً من العقول، إنما يخاطب المترفين على لسانهم يقول تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

هؤلاء المترفون هم المنكرون للبعث، وهم مصدر الفساد، يسيرون في اتجاه هواهم حرصاً على مكانتهم وغناهم فيمنعون في ضلالهم وفسقهم متذرعين في عنادهم ومكابرتهم بما وجدوا عليه آباءهم وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى نهاية هؤلاء فقال:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3].

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 33 ـ 38.

(2) سورة الإسراء، الآية: 16.

(3) سورة الزخرف، الآية: 23 ـ 24.

وقال تعالى مبيناً إصرار المترفين على إنكار البعث.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ * وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[1].

وقد رد الله على هؤلاء المنكرين للبعث ببرهان عقلي وحجة واقعة إذ أشار سبحانه أنه لم يخلق هذا الكون عبثاً ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ إنما خلق الكون بالحق وجعل كل إنسان مساءلاً بما كسبت يداه فقال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

هذا شأن المنكرين للبعث لقد اتخذوا إلههم هواهم وضلوا عن سبيل الله فأنى لهم الهداية.

وقال تعالى:

(1) سورة الواقعة، الآية: 44 ـ 50.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 16 ـ 17.

(3) سورة الجاثية، الآية: 22.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وهكذا نجد أن البعث حق وأنه من مقتضيات العقيدة وقد أوجده الله لحكمة بالغة خلق السمٰوات والأرض وما بينهما مسخر للإنسان، وتبعاً لذلك كلفه باتباع أوامره واجتناب نواهيه مما يتعين أن تكون هناك مساءلة عن ذلك وبالتالي فلا بد من البعث لتتحقق الغاية وهي المجازاة على الأعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[2].

هؤلاء المنكرون للبعث يتنافى تفكيرهم وسلوكهم العقائدي مع المنطق وهم جهلاء عن الحقيقة، إذ ليس من المعقول أن يخلق الله سبحانه الناس ويوكلهم إلى أنفسهم في تصرفاتهم تبعاً لاختيارهم دون الرجوع إلى مالكهم لمساءلتهم، وإلا لكان خلقهم عبثاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقد وصفهم الله بالجهل.

قال تعالى:

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3].

3 ـ المكابرة في إنكار البعث:

إن البعث ظاهرة إلٰهية تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى، فالقادر على خلق العالم من العدم وخلق الإنسان من تراب، قادر على إعادته وبعثه، فإذا أنكر المنكرون ذلك فإن إنكارهم مكابرة ومعاندة، فلو تفكروا في خلق

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 23.

(2) سورة النجم، الآية: 31.

(3) سورة الجاثية، الآية: 24.

السمٰوات والأرض وفي أنفسهم لوصلوا إلى يقين على أن الله قادر على بعث الناس وإعادتهم كما خلقهم أول مرة قال تعالى على لسان المنكرين:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾[1].

هذا وتتمثل معاندة المنكرين للبعث في قسمهم بأن الله لا يبعث من يموت وقد جاء رد الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

واصفاً هؤلاء المنكرين بقوله:

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾[3].

على أن المنكرين إذ بقوا مصرين على تعنتهم في إنكارهم للبعث فقد صور الله سبحانه وصفهم وحالهم وندمهم وحيرتهم وهم ناكسو رؤوسهم يرجون الله ـ بعد أن رأوا العذاب يوم القيامة ـ أن يرجعهم ليعملوا صالحاً. ولكن أنى لهم ذلك قال تعالى:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[4].

الحشر:

المراد بالحشر هو الجمع وهي واقعة تتم بعد البعث حيث تحشر

---

(1) سورة التغابن، الآية: 7.

(2) سورة النحل، الآية: 38.

(3) سورة النحل، الآية: 22.

(4) سورة السجدة، الآية: 12.

الخلائق لعرض الحساب قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾[1] والحشر يتم من قبل الله سبحانه وتعالى لحكمة أرادها.

قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[2].

هذا والحشر عام فهو للمتقين، وقد يفيد معنى الحساب.

قال تعالى في حشر المتقين:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[3].

كما أن الحشر يكون للكافرين والمشركين حيث يحشرون وما يعبدون.

وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾[4].

إلى جانب هذا المعنى للحشر فهو قد يفيد معنى السوق قال تعالى:

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾[5].

وقال تعالى:

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[6].

أي نسوقهم على وجوههم يوم القيامة إلى النار[7].

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 22.

(2) سورة الحجر، الآية: 25.

(3) سورة مريم، الآية: 85.

(4) سورة يونس، الآية: 28.

(5) سورة الصافات، الآية: 28.

(6) سورة الإسراء، الآية: 97.

(7) حسين الدامغاني ـ «الوجوه والنظائر» ص 134 ـ دار العلم للملايين.

أما كيفية الحشر، فالله لم يكشف عنها بل بقيت في عالم الغيب، كما أن زمانه لم يحدد فلا يعرف أحد متى الحشر، وجل ما في الأمر أنه يتم بعد بعث الخلائق وإخراجهم من قبورهم أي أن الحشر يتم يوم القيامة بعد بعثهم. قال تعالى مشيراً إلى ذلك بأن المبعوثين من قبورهم إذ حشروا شعروا كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾[1].

ولا شك أن الحشر موقف مهيب فيه من الهول والرهبة والله به عليم إذ يقف فيه الناس وهم يموجون خائفين بحيث تراهم سكارى، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، هذا الموقف الشديد ترافقه أحداث مريعة، فتشقق الأرض وتسير الجبال وتسوى الأرض وهذا دليل على خطورة هذا اليوم وقد صور الله ما يحدث في هذا اليوم من أحداث مخيفة ومرعبة ليكون عظة للناس حيث يستعدون له بما يتزودون به من الأعمال الصالحة قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[3].

هذا الحشر كما قلنا سابقاً هو عام أي يتناول الإنس والجن والملائكة ولعل مرد ذلك أن حشر الإنس والجن، لأنهم مساءلون نتيجة لتكليفهم أما حشر الملائكة فلأنهم ملكفون أيضاً بوظائف يقومون بها وفق سنة الله في خلقه. لهذا كان من البديهي أن يذهل الناس يوم الحشر لما يصيبهم من فزع، تبعاً لأوضاعهم وأحوالهم وأعمالهم لأنهم يحشرون ليروا أعمالهم من خير أو شر.

---

(1) سورة يونس، الآية: 45.

(2) سورة ق، الآية: 44.

(3) سورة الكهف، الآية: 47.

قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[1].

أما الصالحون والصديقون فهم الذين صدقوا الله في الدنيا فيظلهم الله يوم القيامة بظله وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظلّه. إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفقه يمينه، ورجل ذكر الله ففاضت عيناه»[2].

أما الضالون المضلون المجرمون فيحشرون يوم القيامة زرفاً ويساقون إلى جهنم مكبين على وجوههم عمياً وبكماً وصماً. قال تعالى في شأنهم:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[3].

---

(1) سورة الزلزلة، الآية: 6.

(2) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) سورة الإسراء، الآية: 97.

الفصل الثاني:

الحساب والشفاعة:

المراد بالحساب في المعنى المقصود شرعاً هو مساءلة الله المرء على أعماله يوم القيامة ليجازي عليها من خير أو شر تبعاً لصفتها. فالحساب أثر من آثار العدالة الإلٰهية وهو من صفاته الكمالية، إذ من عدالته سبحانه وتعالى أن لا يسوى بين المؤمن والكافر والتقي والفاجر، والمحسن والمسيء والصالح والطالح، فضلاً عن أنه من عدالته سبحانه وتعالى يسائل أحداً ألاّ بعد أن أرسل رسله بالبينات، وأنزل الكتاب نوراً للهدى، فاهتدى المهتدون وكفر آخرون. فمن اهتدوا وعملوا صالحاً وقدموا تضحيات وحاربوا الهوى، وكافحوا الشر والإثم، وجاهدوا في سبيل الله فأولئك هم المفلحون، فليس من العدالة إذن أن يتساوى هؤلاء مع المجرمين الكافرين الذين استحبوا العمى على الهدى فعاثوا فساداً وصدوا عن سبيل الله، واتبعوا هواهم وظلوا في غيهم يعمهون إذ ليس من الحكمة المنطقي أن يكون مصير هؤلاء جميعاً واحداً إذ في هذا خروج عن سنة الله في خلقه وتعالى الله أن لا يكون عادلاً وقد أشار إلى ذلك بقوله:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

فالحساب إذن هو مقرر من الله سبحانه وتعالى يقوم به بعيداً عن الجور

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 21 ـ 22.

لا يمكن أن يجعل أي تسوية بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين الكافرين أو المفسدين في الأرض، أو يجعل المتقين كالفجار أو المحسنين كالمسيئين قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾(2).

هذه المحاسبة هل لها قانون خاص أو بمعنى أدق هل هي خاضعة لقوانين خاصة أم أن الأمر كيفي بمعنى أدق ما هي طبيعة المحاسبة؟

لا شك أن عدالة الله لا تقابلها أي عدالة مهما كانت إذ عدالة تطبيق القانون الوضعي لا تقارن مطلقاً مع عدالة الله خالق الكون مما يقتضي التفريق بين محاسبة القانون ومحاسبة الله، وباعتقادي أن الله سبحانه وتعالى أقام قواعد في المحاسبة تحكمها حكمته ورحمته وتقديراته فهي من الأمور المقررة كمبدأ عام في المحاسبة وهي: المبدأ الأول: هو عدم الرحمة والمغفرة لمن أشرك في الله.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾(3).

المبدأ الثاني: في المساءلة والمحاسبة هو الاعتراف بالذنب وطلب الاستغفار بتحقيق المغفرة إذ يجد الله غفوراً رحيماً قال تعالى:

---

(1) سورة ص، الآية: 27 ـ 28.

(2) سورة النجم، الآية: 31.

(3) سورة النساء، الآية: 48.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(1).

المبدأ الثالث: التوبة قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(2) وقال تعالى:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(3).

المبدأ الرابع: الجهالة في عمل السوء: وهو ما يقابل حسن النية وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾(4).

المبدأ الخامس: الضرورة، قال تعالى:

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(5).

المبدأ السادس: العمد: قال تعالى:

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾(6).

أي تعمدتم فعل السوء إذ المقابل للعمد هو السهو. فما يقع سهواً غير مقصود إليه لا يؤاخذ الله به. هذا نجد إلى جانب هذه المبادىء تحقيقاً

---

(1) سورة النساء، الآية: 110.
(2) سورة الأعراف، الآية: 153.
(3) سورة المائدة، الآية: 39.
(4) سورة النساء، الآية: 17.
(5) سورة البقرة، الآية: 173.
(6) سورة البقرة، الآية: 225.

للعدالة من خلال تطبيقها الأخذ بمبدأ تفريد العقوبة ومراعاة الظروف الشخصية للإنسان المذنب، فلا يسوغ أن يتساوى اثنان في الحساب ولذنب واحد اقترفاه، وقد اختلفت ظروف كل واحد عن الآخر كما اختلفت قوة تفكيرهما أو عقلهما فمن يذنب وهو بتمام عقله غير من يذنب وهو ضعيف الملكات العقلية، ومن يذنب ويتوب غير من يذنب ويصرّ على اقتراف الذنب مستمراً وراغباً فيه، ومن يذنب وهو جاهل غير من يذنب وهو عالم أي أن الجاهل لا يعامل معاملة العالم. وهكذا فإن محاسبة الله سبحانه تتحقق فيها العدالة وهي عدالة تتسم بالرحمة ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى أخذ على عاتقه مبدأ الغفران تبعاً لاعتبارات خاصة يعلمها وفي حدود المبادىء التي ذكرنا على ما نعتقد، قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

واعتقد أن الغفران يشمل من آمن بربه وشهد بوحدانيته وربوبيته، أما الذين كفروا به وأشركوا فيقيني أنه لامغفرة لهم، إنما يحاسبون على ذنوبهم بلا مغفرة وينالون جزاءهم بعدل دون رحمة.

كيفية الحساب وأدلته وأثره في نفوس الناس:

تتم المحاسبة بعد حشر الناس إذ بعد أن تخرج الأرض أثقالها. فالمحاسبة تجري تبعاً لأعمال الناس، إذ يرونها كما أنه تبعاً لماهيتها من خير أو شر تتم المحاسبة قال تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2]

---

(1) سورة الزمر، الآية: 53.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 1 ـ 8.

والمراد بأخبارها أن تشهد على كل عبد بما عمل على ظهرها. فالمحاسبة تتم تبعاً لأعمال الإنسان التي تنشر ويجدها فلا يستطيع نكرانها إذ تشهد عليها أعضاؤهم وحواسهم قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

فالمحاسبة إذن تعتمد أدلة ثابتة على الرغم من أن الله سبحانه ليس بحاجة ليقيم الدليل على صحة محاسبته وعدالتها، فإن الله إذن يعلم السر وأخفى.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

وإذا كان الأمر كذلك والله ليس بحاجة إلى شهادة أحد فإنه سبحانه

---

(1) سورة النور، الآية: 24.

(2) سورة فصلت، الآية: 19 ـ 22.

(3) سورة النمل، الآية: 25.

(4) سورة الأنعام، الآية: 60.

وتعالى يضع الإنسان أما نفسه فتكون شاهدة عليه فيرى الناس أعمالهم.

قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1].

فالمحاسبة هنا تعني إنزال العقاب أو الثواب تبعاً لماهية العمل بمعنى المساءلة إن خيراً فخير أو شر فشر. فأدلة المحاسبة على ما ذكرناه هي أدلة شخصية يقدمها المذنب نفسه وهي لا تقبل التأويل لأنها صورة صادقة تقدمها نفسه وهي موثقة لا تثريب عليها لأنه قام بنقلها ملائكة كرام أحصوها وسجلوها على الإنسان في الدنيا وهم مكلفون بذلك بأمر الله سبحانه وتعالى فهم بذلك لا يغادرون كبيرة ولا صغيرة قال تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2].

في ضوء ما ذكر فلا يملك أحد أن ينكر أو يتنصل من أفعاله وتصرفاته، لأنها محصية عليه، وتشهد بما قاله، وعند إنكاره تتكلم أيديه وأرجله بما يكسب من أفعال قال تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3].

هذه الشهادة أصدق دليل لأنها دليل الإنسان على نفسه وهو دليل مزدوج يضم إقرار المرء على نفسه كما يضم شهادة أعضائه وجوارحه على ما اقترف من ذنب فهي إذن شهادة يأتيها الباطل وهي تعكس الصور المحفوظة والمدونة على الإنسان بكتاب لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا سجلها

(1) سورة الزلزلة، الآية: 6 ـ 8.

(2) سورة الإسراء، الآية: 13 ـ 14.

(3) سورة يس، الآية: 65.

فلا سبيل إذن إلى إنكار ما فيه ويتسلم المرء هذا الكتاب بيمينه يوم القيامة إذا كان من أصحاب اليمين وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، كما ويتسلمه المرء بشماله أو من وراء ظهره إذا كان من أصحاب الشمال في الدنيا، وهم كفروا وعملوا السيئات، وهكذا لا يجد يوم القيامة أمام هذه الأدلة من مفرّ فيشهد على نفسه ويعترف بذنبه.

قال تعالى:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾(1).

هذا تسليم المرء كتابه بيمينه أو بشماله قرينة قاطعة على نوع المحاسبة يسيرة أم عسيرة قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾(2).

هذا بالنسبة لأدلة المحاسبة ومقتضياتها، أما بالنسبة لإجراءاتها وطبيعتها فمحاسبة الله سريعة لا مماطلة فيها ولا تسويف حكمه قاطع نافذ في خلقه، لا تثريب عليه، عادل لا ظلم فيه، وهو الحكم جل جلاله قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(3)، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(4)، ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ﴾(5).

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 130.

(2) سورة الانشقاق، الآية: 7.

(3) سورة الرعد، الآية: 41.

(4) سورة غافر، الآية: 17.

(5) سورة إبراهيم، الآية: 51.

ومع ذلك فإن العدالة إذ تعني إعطاء كل ذي حق حقه وملاحظة الظروف الشخصية والموضوعية لكل واقعة أو حدث فإن الله سبحانه وتعالى قد أقام مبادىء في المحاسبة فقد خص نفسه بالمغفرة والرحمة وحف الناس بحلمه ومغفرته لكل من سلك طريقه بذكر الله وتسبيحه والتوبة والمغفرة.

قال تعالى مقراً هذا المبدأ العام ومخاطباً عباده فيه:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

وعلى هذا نجد حساباً برحمة ومغفرة وهو حساب المؤمنين، وحساباً بلا مغفرة وبلا رحمة وهو حساب المشركين والكافرين فالمؤمنون ترك لهم باب الرحمة والمغفرة مفتوحاً لمن يعبد الله ويذكره ويقدم العمل الصالح قال تعالى:

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾[3].

هذا ولعل الحكمة في فتح باب الرحمة أمام عباده لقبول توبة التائبين ومنح الرحمة والمغفرة لهم إنما هو للتراجع عن الشر والعدول عن طريق الضلال، فمن تاب وأصلح وأظهر الندم على ما فعل تاب الله عليه، هذا بالنسبة لحقوق الله، أما بالنسبة لحقوق العباد فالمرء المعتدي والمدين بالحقوق يبقى مسؤولاً أمام الدائن إلا إذا أعفى وأصفح الدائن وتنازل عن حقوقه فأجره في هذه الحالة على الله. ولا شك أن هذا تشجيع لحض الناس على التسامح لإقامة التوادد والتحابب بينهم. فإذا صفح الدائن عن حقه وسمح به فإن الله سبحانه وتعالى أكثر تسامحاً ورحمة ففي هذه الحالة يعفو

(1) سورة الزمر، الآية: 53.

(2) سورة المزمل، الآية: 20.

(3) سورة فاطر، الآية: 10.

ويغفر طالما قد تاب المسيء وأناب أو سمح الدائن عنه أو تنازل عن حقه بإبراء إسقاط وإبراء استيفاء وفي جميع الأحوال نجد أن حساب الله دائماً حساباً برحمة، أما عن رحمته فهي رحمة بلا حساب كما أن المحاسبة في الأصل من جنس العمل بها يتكشف حال الناس فالمؤمنون تراهم في المحاسبة وجوههم مبيضة. قال تعالى في أثر المحاسبة على نفوس عامة:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

وقال تعالى في وصف أوضاع المحاسبين يوم القيامة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾[4].

وهكذا نجد أن المحاسبة يوم القيامة يخسر فيها المبطلون ويفوز فيها المؤمنون، وهذا مبدأ عام يطبق على الفرد أو على الأمة فكل شيء محصي ومسجل بحيث يدعى المرء أو الأمة إلى كتابها لترى ولتجزى بما كانت تعمله قال تعالى:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 106 ـ 107.

(2) سورة الحاقة، الآية: 19 ـ 20.

(3) سورة القيامة، الآية: 22 ـ 23.

(4) سورة عبس، الآية: 38 ـ 39.

﴿تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[1].

هذه المحاسبة الأممية تكشف عن الذين يكفرون بالله ويستكبرون وينكرون حقيقة الحساب ويستهزئون به، فإذا بهم يوم محاسبتهم تنكشف لهم سيئاتهم وتحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[2].

من هذه الآيات التي عرضناها والتي تعبر عن عدالة الله سبحانه وتعالى الكاملة نجد أن الله سبحانه في قضائه يوم الحساب يؤاخذ الناس بما عملوا وهم على علم به، فهو لا يفاجئهم بشيء أو يدينهم بشيء لم ينذرهم به، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، إذ أنه سبحانه قد أرسل مبشرين ومنذرين، كما نبه في كتابه إلى يوم الحساب الذي يستقر فيه المرء ويتعين موقعه فيه تبعاً لأعماله من خير أو شر، وبهذا فقد كشف الله عن بصيرة الإنسان ليتبع ما أمر الله به كي يلقى جزاءه يوم القيامة لماهية عمله. وهو على علم بنتائجه قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3].

وقال:

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[4].

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 28 ـ 31.
(2) سورة الجاثية، الآية: 34.
(3) سورة ق، الآية: 23.
(4) سورة ق، الآية: 21.

فيوم الحساب أي يسوقها إلى نتيجة عملها وكذا شاهد يشهد عليها، وقد سبق أن أزال سبحانه وتعالى الغفلة عن الإنسان وكشف عنه غطاءه أي أزال عن الإنسان غفلته في الدنيا ليدرك أعماله ويتنبه إليها كي يكون على بينة من أمره.

هذا وقد أورد الله آيات عديدة في القرآن تعبر عن أثر المحاسبة في نفوس الناس وندم الإنسان على أفعاله: إذ يقف الظالم يوم القيامة مؤنباً نفسه عاضاً على يديه. قال تعالى مصوراً حال هذا الظالم:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾(1).

وقال تعالى:

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾(2).

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على ندم المذنبين يوم الحساب والذي يبلغ بهم حد القنوط.

وهذا يلخص الرسول ﷺ ماهية الحساب وشمولها يوم القيامة فيقول:

«لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم عمل به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه»(3).

هذه المحاسبة التي يتولاها الله سبحانه وتعالى لا تعني المناقشة والجدل والرد إذ لا يستطيع أي إنسان أن يتنصل من أي قول أو عمل قام به، لأن كل شيء مسجل عليه لهذا لا يملك المناقشة حول ما فعل.

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 27 ـ 29.

(2) سورة النبأ، الآية: 40.

(3) روى عن أبي الرزة الأسلمي رضي الله عنه. رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قال تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2].

فإذا كانت الوقائع من أقوال أو أفعال مسجلة بهذه الدقة فمن البديهي أن تكون المحاسبة شأنها ووفقاً لها من حيث الدقة بحيث يحاسب المرء عن كل عمل مارسه بالفعل أو نواه وأصر عليه، قال تعالى مشيراً إلى دقة الحساب:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[3].

أما عن نوع هذا الميزان وكيفية الوزن فيه فهي من الأمور الغيبية التي تقتضي عدم الخوض فيها، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى أشار إلى الميزان ليدرك الإنسان الأشياء بعقله تبعاً لملكاته ويدرك معنى المحاسبة، ذلك لأن الله سبحانه ليس بحاجة أن يضع الأعمال في الميزان ويزنها فهو عليم بها إنما اقتضت حكمته سبحانه أن يجسد الأمور والوقائع لتنطق بذاتها وتقيم الحجة على أصحابها.

إذ العبرة برجحان العمل الصالح أو نقصانه.

قال تعالى:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[4].

---

(1) سورة الانفطار، الآية: 10 ـ 12.

(2) سورة ق، الآية: 18.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 47.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 102 ـ 103.

وهكذا وجدنا مفهوم المحاسبة واضحاً. أما غايتها فهو إطلاع الله عباده على أعمالهم وإعلامهم أنهم يوم الحشر محاسبون عليها، وأن ما قدموه في دنياهم من أقوال وأفعال وتصرفات وسلوك يجدونه حاضراً كتاباً منشوراً.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1].

أما الحكمة من هذه المحاسبة فهي حض الناس على القيام بالإعمال الخيرة والتصرفات الشرعية من عبادات ومعاملات في نطاق الإيمان بالعقيدة الإسلامية التي تدعو لخير البشرية جمعاء ترغيباً ليجدوا الجزاء الأوفى بما يمدهم الله فيه حقاً والتزاماً لوفاء النعم التي أنعم الله بها على عباده، وليعلموا أنهم لن يتركوا سدى؛ وهي في الوقت ذاته أداة ترهيب تبعد الناس عن أعمال الشر والإضرار بالغير، طالما أن المرء يعلم في هذه الدنيا أنه محاسب يوم القيامة على عقيدته وتصرفاته وأقواله وأفعاله فهي إذن إنذار للإنسان ليعلم أن كل ما يبديه أو يخفيه يحاسبه به الله وأن هذه المحاسبة وعد من الله حق وأن المحاسبة كشف للأعمال قال تعالى:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[2].

وهذا يقتضي أن لا ينسى الإنسان يوم الحساب وأنه إذا ضل عن سبيل الله فله عذاب شديد قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[3].

الشفاعة:

الشفاعة: تفيد الانضمام إلى آخر له وسائلاً عنه وأكثر ما تستعمل في الانضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ما هو أدنى منه. ومنه الشفاعة في القيامة قال تعالى:

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 14.

(2) سورة ص، الآية: 53.

(3) سورة ص، الآية: 26.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾[2][3].

ما الشفاعة إذن هي سؤال من شخص لآخر يشفع له، وهي وسيلة من وسائل الرحمة ودفع الضر وطلب المغفرة عن الخطيئة، والشفاعة يمكن أن تكون في الدنيا بين الأحياء من حيّ إلى حي أو من الحيّ للميت كما تكون في الآخرة وهي الأصل يخصها الله لمن ارتضاه من عباده شافعاً أو مشفوعاً فيه، وصورتها الدعاء بطلب الخير والمغفرة فهي إذن تدخل في باب الغفران قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[4].

وهذه الآية هي مبدأ عام في الشفاعة تفيد عدم قبولها أو قبول المغفرة لمن أشرك بالله لأن هذه المعصية وهي الكفر والإشراك ليس لها شفيع مطلقاً، أما مفهوم الآية بأن الله سبحانه يغفر لمن يشاء فإن هذه المغفرة محصورة في نطاق عباده دون الكفرة والمشركين.

هذا والشفاعة مظهر من مظاهر تكريم الله لعباده المخولين بهذه المكرمة تكريماً لرسله وأنبيائه وبعض الصالحين، فالشفاعة إذن فضل ومكرمة يمنحها الله لمن يشاء من عباده إكراماً لهم على أن تكون موجهة من قبل من ارتضاه وقبله وهي تتمثل في شفاعات كثيرة أهمها وأقدسها شفاعة محمد ﷺ وهي الشفاعة العظمى، إذ إن الله وعده بها مقاماً محموداً قال تعالى:

---

(1) سورة مريم، الآية: 87.

(2) سورة طه، الآية: 109.

(3) الأصفهاني - «المفردات»، ص 263.

(4) سورة النساء، الآية: 116.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[1].

والمقام المحمود المقصود في هذه الآية هو المنزلة الظاهرة التي تخوله هذه الشفاعة في أهل المحشر وهي شفاعة عامة، وفي أمته خاصة، هذا المقام المرموق والمحمود للرسول ﷺ، إنما هو مقام الشفاعة في الناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم[2].

هذا وللشفاعة عامة شروط من حيث صدورها وقبولها نجملها فيما يلي:

1 ـ وجوب تحقق الإيمان بوحدة الألوهية والربوبية لله تعالى لمن يشفع له فلا شفاعة للكفرة أو المشركين، قال تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[3].

2 ـ وجوب توافر الإذن من الله سبحانه وتعالى لمن يشفع.

قال تعالى:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[5].

(1) سورة الإسراء، الآية: 79.
(2) ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية من سورة الإسراء.
(3) سورة غافر، الآية: 18.
(4) سورة البقرة، الآية: 255.
(5) سورة النجم، الآية: 26.

3 ـ أن تكون الشفاعة ممن كان له منزلة عند الله وارتضاه لهذا الفضل والتكريم حتى تقبل شفاعته قال تعالى:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.(1)

4 ـ توافر عنصر الاختيار والمشيئة والتقدير لإرادة الله وحده فالشفاعة ليست أمراً اختيارياً يملكه الشفيع إنما منوطة بأمر الله فإن شاء قبلها أو شاء رفضها قال تعالى:

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾(2).

هذا وإذا كانت الشفاعة مقبولة ممن ارتضاهم الله أن يكونوا شفعاء، لا يعني هذا أن يبتعد الإنسان عن القيام بالتزاماته تجاه ربه منحرفاً عن السلوك الواجب الاتباع ومعتمداً على الشفاعة، لأن الإسلام يتطلب من المرء أن يقوم بالتزاماته شخصياً فالإسلام على هذا الأساس لا يقبل الإنابة في العقائد والعبادات بمعنى أنه لا يسوغ لأحد أن يؤمن بالله عوضاً عن غيره أو يعبد الله ويؤدي العبادات وكالة عن غيره إلاّ في الحالة المرضية وفي نطاق ضيق جداً كالحجة البدلية، لهذا أقام الإسلام الجزاء على أساس شخصية المساءلة وشخصية العضوية فلا ينوب أحد عن أحد في المساءلة أو العقوبة لهذا يجب على الإنسان أو يعمل مبتغياً فضل الله وثوابه وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال لابنته فاطمة:

«اعلمي يا فاطمة فإني لا أغني عنك من الله شيئاً».

وقال تعالى في هذا الخصوص:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ

(1) سورة يونس، الآية: 18.

(2) سورة مريم، الآية: 86 ـ 87.

* عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[1].

وهكذا نجد تبعاً لهذه المبادىء أنه لا يسوغ الانحراف عن طريق الهداية خروجاً عن طاعة الله إمعاناً في الفساد اعتماداً على تسخير شفاعة الصلحاء أو توسيطهم في طلب المغفرة قال تعالى:

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا * وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا * وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ * وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾[3].

هذا وفي جميع الأحوال فإن قبول الشفاعة أو ردها إنما هو من الأمور الغيبية التي خص الله بها نفسه، وهي منوطة بأمره ومشيئته تبعاً لعلمه وحكمته فيما خلق وقرر إذ يغفر لمن يشاء وهو على كل شيء قدير.

أما مقتضيات هذه الشافعة في حال طلبها وقبولها، فهي تهدف إلى ما يلي:

---

(1) سورة المدثر، الآية: 38 ـ 48.

(2) سورة النساء، الآية: 123 ـ 125.

(3) سورة النجم، الآية: 38 ـ 41.

1 ـ التخفيف من هول الموقف يوم القيامة والتعجيل بالحساب.

2 ـ إدخال طائفة من المؤمنين المشفع فيهم بغير حساب. وهذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ.

3 ـ رفع الدرجات في الجنة لبعض أهلها تبعاً لمنزلتهم.

4 ـ العفو عمن استوجبوا النار من المؤمنين تشفع فيهم فإذا قبلت الشفاعة عفى عنهم فلا يدخلون النار مطلقاً.

5 ـ إخراج بعض المذنبين من المؤمنين من النار تبعاً لقبول الشفاعة فيهم باعتبارهم من أهل الإيمان وذلك قبل تعذيبهم.

الفصل الثالث

الجنة والنار

الجنة[1]:

من الثابت وفقاً لما ورد في القرآن الكريم من آيات عديدة أن الجنة والنار هي المرحلة الأخيرة للبشر فالجنة هي الثواب الأكبر والمقصود بها هنا هي الدار التي أعدها الله للمتقين يوم الآخرة ثواباً لهم بما وعدهم به إذ يكافأون فيها بالنعيم المقيم جزاء على إيمانهم وعملهم الصالح وصدقهم فيما عاهدوا الله عليه وما قدموه في دنياهم لآخرتهم فتكون مأوى لهم. وقد أطلق القرآن على الجنة أسماء عدة منها: جنة المأوى، وجنة عدن، ودار الخلود، والفردوس، ودار السلام، ودار المقامة، وجنات النعيم، والمقام الأمين.

وأن الجنة قد وصفها الله وصفاً مادياً حقيقة مادية حسية واقعة ليست بتصوير خيالي، فالنعيم فيها حقيقي روحي ومادي معاً وهي وإن كانت مما تدخل في شول الغيبيات بيد أنه لا يجوز إنكارها، ومن أنكرها كان منكراً للبعث ولعودة الروح للأجساد، لا سيما وأن الله إشار إلى وضعها المادي وأنه لا يدخلها إلا من التزم بحدود الله واتبع ما أمر الله به من جلائل الأعمال، وبما التزم به من عقائد وعبادات، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ

---

(1) الجنة: أصل الجنّ ستر الشيء عن الحاسة وقد تسمى الأشجار الساترة جنة وسميت الجنة إما تشبيهاً بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون، وإما لسترة نعمها عنا المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: «إنما قال جنات بلفظ الجمع لكون الجنات سبعاً جنة الفردوس وعدن وجنة النعيم ودار الخلد، وجنة المأوى ودار السلام وعليين»، الأصفهاني ـ «المفردات» ص 98.

لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(1).

وقال تعالى مبشراً لهؤلاء المؤمنين بما وعدهم به:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(2).

فالجنة إذن هي جزاء لما وعد الله به المؤمنين فهي نعيم مقيم لها أثرها البعيد على النفوس بما يعكس الراحة والاطمئنان، إذ لا يسمع فيها لغو ولا تأثيم وهذا يظهر جلياً على وجوه أهلها. قال تعالى واصفاً ذلك:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾(3).

وقال تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(4).

---

(1) سورة التوبة، الآية: 111 ـ 112.

(2) سورة البقرة، الآية: 25.

(3) سورة الغاشية، الآية: 8 ـ 16.

(4) سورة القيامة، الآية: 22 ـ 23.

فأصحاب الخير والأعمال الصالحة وهم المتقون المؤمنون الصادقون، هم من أصحاب اليمين الذين ارتضاهم الله وأنعم عليهم.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(2).

وقال تعالى في وصف السعادة في الجنة وما فيها من أحداث ووقائع مادية من خيرات ونعم يتلمس ويتنعم بها أصحاب اليمين:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾(3).

وهكذا فإن نعم الجنة لا تعد ولا تحصى وفيها ما لا عين رأت، ولا خطر على بال بشر، وكل ما وصفها الله لنا إنما هو وصف ليقربها لمستوى عقولنا وفهمنا للنعيم في الدنيا وما يتمناه الإنسان من السعادة التي هي غاية مبتغاه وتبعاً لمعايير الدنيا في السرور. وقد ورد عن رسول الله ﷺ ما أعده الله لبعاده الصالحين. فقال:

«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرأوا إن شئتم».

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(4).

---

(1) سورة التوبة، الآية: 72.

(2) سورة آل عمران، الآية: 15.

(3) سورة الواقعة، الآية: 27 ـ 34.

(4) رواه البخاري عن أبي هريرة والآية: 17. من سورة السجدة.

النار(1):

المقصود بالنار هنا أنها السعير وهي دار السعير مثوى الكافرين والمشركين والمتكبرين عن طاعة الله وعبادته وهي جزاء على المعصية يتناسب معها تبعاً للأفعال والتصرفات والسلوك المنافية لحدود الله وشرعه، فالنار إذن عقوبة وهي عقوبة مادية حسية وليست بعقوبة معنوية وهي ليست من باب العذاب الروحي والنفسي فقط بل هي عذاب يمس العصاة مساً مادياً وروحياً. وهي ذات مراتب ودرجات يتحدد موقع العصاة فيها حسب ماهية المعاصي والجرائم المرتكبة.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(2).

وقال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾(3).

والنار أورد لها القرآن الكريم أسماء عديدة منها: الهاوية، أي المكان المنخفض الذي لا رجعة منه لمن لم يسقط فيه.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾(4).

ومن أسمائها السعير قال تعالى:

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾(5).

---

(1) والنار تقال للهيب الذي يبدو للحاسة قال: ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾ وللحرارة المجردة ولنار جهنم المذكورة في قوله: ﴿النار وعدها الله الذين كفروا﴾ ـ وقودها الناس والحجارة ـ نار الله الموقدة، الأصفهاني، المرجع السابق، ص 805.

(2) سورة النساء، الآية: 145.

(3) سورة هود، الآية: 106.

(4) سورة القارعة، الآية: 8 ـ 11.

(5) سورة الملك، الآية: 5.

كما وسميت النار (سقر).

قال تعالى:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1].

وتسمى أيضاً (لظى) قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾[2].

فهي إذن للذين انصرفوا عن الآخرة وبالغوا في حب الدنيا وافتتنوا بها وبحب المال منصرفين عن طاعة الله. وتسمى النار أيضاً (الحطمة) قال تعالى:

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾[3].

في أهوال النار:

وصف الله تعالى أهوال النار وهي الجحيم وصفاً تنخلع له القلوب وتذهل له العقول، وترجف له النفوس، وهو وصف مقصود لتحقيق الردع عن المعاصي لاتباع أوامر الله واجتناب نواهيه اتقاءً لعذاب النار.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[4].

---

(1) سورة المدثر، الآية: 26 ـ 30.

(2) سورة المعارج، الآية: 15 ـ 18.

(3) سورة الهمزة، الآية: 4 ـ 9.

(4) سورة التحريم، الآية: 6.

هذا وقد وصف الله حقيقة النار وصفاً ماديا بما يقربها إلى أذهاننا لنتفهم هولها وشدة عذابها تبعاً لمعايير عقولنا ومفهومنا لمدلول النار في الدنيا علماً أنه لا تناسب بين نار الدنيا ونار الآخرة. كما وصف الله أهلها وما هم عليه من عذاب ووصف لنا طعامهم وشرابهم وصفاً مادياً تشيب له النواصي وترتعد له النفوس.

قال تعالى:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾[1].

وقال تعالى في وصف عذاب الظالمين والمجرمين:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2].

أما في ماهية عذاب الكافرين وطريقته وشكله قال تعالى:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[3].

هذا ويصف الله بدقة الحالة النفسية والجسدية لأهل النار فيصورها

(1) سورة الصافات، الآية: 62 ـ 67.

(2) سورة الكهف، الآية: 29.

(3) سورة الحج، الآية: 19 ـ 22.

تصويراً دقيقاً حسياً مبيناً أنهم محضونون بالنار ومظلون بها وهم يائسون من الخلاص فلا هم أموات فيستريحون ولا أحياء فيأملون بل إنهم معذبون باستمرار دون راحة، فكلما نضجت جلودهم بدلت بجلود غيرها ويستمر الحال على هذا ويتمنى المجرمون لو يفتدون أبناءهم وأقرباءهم ومن في الأرض لينجوهم من العذاب ولكن أنى لهم ذلك.

قال تعالى:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[4].

---

(1) سورة الزمر، الآية: 16.
(2) سورة الأعلى، الآية: 11 ـ 13.
(3) سورة النساء، الآية: 56.
(4) سورة المعارج، الآية: 11 ـ 15.

الحوار بين أهل الجنة وأهل النار:

إنه على الرغم من عدم علمنا ما بين الجنة والنار من مسافة لأن هذا من علم الغيب الذي تفرد به الله لوحده، بيد أنه سبحانه أعطانا صورة واضحة عن التخاطب والحوار بين أهل الجنة والنار مبيناً حالتهم وما هم عليه إذ نادى أصحاب الجنة مستفسرين عن حال أهل النار الشاكين فيما وعدهم الله به قال تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾[1].

هذه الحالة من العذاب والشقاء تدعو أصحاب النار التماس المعونة من أهل الجنة ليفيضوا عليهم مما رزقهم الله فيردون عليهم أن هذه النعمة محرمة على الذين كفروا وجحدوا بآيات الله وأعرضوا عن ذكره.

قال تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾[2].

ولعل مبعث الحوار اختلاف المراكز الوضعية بين أهل الجنة وأهل النار، وذلك أن أهل الجنة نورهم يسعى بين أيديهم فهم في نعيم مقيم خالدين في الجنة نتيجة إيمانهم بالله وما قدموه من عمل صالح، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ففازوا فوزاً كبيراً.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 44 - 45.

(2) سورة الأعراف، الآية: 50 - 51.

أما المنافقون فهم تبعاً لمركزهم الوضعي في الظلمة لا يبصرون مواقع أقدامهم، فينادون المؤمنين ليقتبسوا من نورهم ليستضيئوا به، فيخاطبهم المؤمنون قائلين لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، ولكن هيهات أن يتم لهم ما يرغبون وقد ضرب الله بينهم سوراً ضخماً باطنه فيه الرحمة من طرف أهل الجنة، وجانبه الآخر مما يلي المنافقين فيه العذاب، ويدور الحوار مستمراً بين الطرفين تبعاً لأعمالهم وما كانوا قد قدموه لآخرتهم. قال تعالى مصوراً هذا الحوار:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

هذا الحوار إذ يتم بين أهل النار وأهل الجنة ومع ذلك فهو من شؤون الآخرة إذ لم يطلعنا الله سبحانه وتعالى على كيفيته ووسيلته ويبدو أن الحواس في الآخرة قد تختلف قدرتها وقوتها ومداها عن حواسنا في الدنيا حتى يتحقق هذا الحوار والتخاطب لأن نشأتنا في الآخرة تختلف عما نحن عليه في الدنيا من حيث الخلق والأطوار بدليل قوله تعالى:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وهكذا نجد أن الحوار والتخاطب بين أهل النار وأهل الجنة ثابت

---

(1) سورة الحديد، الآية: 12 ـ 15.

(2) سورة الواقعة، الآية: 60 ـ 61.

بالنصوص القرآنية أما وسيلته فهل هي وسيلة نفسية أم خطية أم جسدية؟ فالظاهر أن الحوار يشبه الحوار في الدنيا ووسيلته النطق بالكلام إذ الآيات تفيد المناداة، والحوار القولي لا بالمخاطبة عن طريق الرسائل، وهذا هو الأرجح بدليل قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار. . .﴾ وبدليل قوله تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات﴾ الآيات. . .

وعلى كل حال إن الحوار والتخاطب مرده إلى حكمة يريدها الله في خلقه وهي التعاظم في الدنيا والتزود حتماً بالأعمال الصالحة قبل فوات الأوان في يوم لا ينفع الناس مال أو بنون إلا من أتى بقلب سليم فيجدون عندئذٍ ما وعدهم الله حقاً.

الخلود[1]:

الجنة والنار حدثان عظيمان مخلوقتان بإرادة الله سبحانه وتعالى وهما وسيلتان فالجنة وسيلة للنعيم والثواب وهي خالدة لا تفنى والنار كذلك وسيلة للعذاب والشقاء وهي خالدة لا تفنى كما وهما جزاء وفاقاً لأعمال الإنسان من خير أو شر فأهل الجنة للجنة وأهل النار للنار وهم خالدون فيها لا يدركهم الموت كما لا يلحقهم الفناء فأبدية التخليد في الجنة للمتقين، أما أبدية التخليد في النار فهي للمشركين والكافرين، أما المؤمنون العصاة فإن عذابهم مهما طال فيسغفر الله لهم ويدخلهم الجنة. قال تعالى في إسناد الخلود في الجنة والنار:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞

(1) خلد: الخلود هو تبري الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم وللأثافي خوالد وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها. يقال: خلد يخلد خلوداً قال تعالى: ﴿لعلكم تخلدون﴾ والخلد اسم الجزء الذي يبقى من الإنسان على حالته فلا يستحيل ما دام الإنسان حياً استحالة سائر أجزائه وأصل الخلد الذي يبقى مدة طويلة ومنه قيل: رجل مخلد لمن أبطأ عنه الشيب، ودابة مخلدة هي التي تبقى ثناياها حتى تخرج رباعيتها، ثم استعير للمبقى دائماً. والخلود في الجنة بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها قال تعالى: ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ـ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، الأصفهاني، «المفردات»، ص 154.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾[1].

وقال تعالى ي ثبوت الخلود لأهل النار في النار: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾[2].

وقال تعالى في بيان خلود الأشقياء في النار وخلود الأتقياء في الجنة:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ * وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ * يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[3].

ويرى البعض أن هذه الآيات دليل على فناء الجنة والنار بأهليها[4] ومهما يكن من أمر الخلود سواء كان نسبياً أم دائماً فإن هذا مرده إلى إرادة الله سبحانه ومشيئته وهي وإن تكن من الأمور الغيبية بيد أن النصوص القرآنية معظمها تشير إلى معنى الخلود الأبدي أما الاستثناء الوارد في الآيتين المذكورتين أعلاه بقوله تعالى: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ بالنسبة للخالدين في النار أو الخالدين في الجنة فإن المراد به «إن جميع الأشقياء خالدون في النار إلا

(1) سورة الكهف، الآية: 107 ـ 108.

(2) سورة الزخرف، الآية: 74 ـ 75.

(3) سورة هود، الآية: 103 ـ 108.

(4) أحمد بن المظفر المختار الرازي ـ كتاب «حجج القرآن» ص 76.

من شاء الله منهم أن لا يخلدوا فيها وهم العصاة من أهل الإيمان والتوحيد. وجميع أهل السعادة خالدون في الجنة إلا من شاء الله منهم أن يتعذب في النار إلى أمد قبل ذلك، وهم أولئك الذين عمرت حياتهم بالمعاصي والأوزار من المؤمنين ولم تكتب لهم الشفاعة أولاً وإنما لم يأت الاستثناء بصيغة: إلا ما شاء ربك كما كان يقتضي ظاهر الاستثناء، لأن المراد من المستثنى منه العدد المجرد لا الأشخاص بأعيانهم حتى يراعي فيهم العقل»[1].

أما مرد الخلود سواء لأهل الجنة أو أهل النار علمه سبحانه وتعالى مسبقاً لكلا الفريقين بإصراره على ما هو عليه فأهل الجنة مصرون على إيمانهم وطاعتهم وأعمالهم الصالحة مهما امتد بهم الزمن وكذلك أهل النار مصرون على كفرهم وشركهم مهما امتدت أعمارهم وطال بهم الزمن فالنية والأعمال مكشوفة من قبل الله سبحانه وتعالى وقد أشار الله سبحانه إلى نفسية هذين الفريقين وما سيعملونه حتى لو عادوا ثانية إلى الدنيا قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[2].

(1) البوطي، المرجع السابق، ص 362.

(2) سورة الأنعام، الآية: 27 ـ 28.

خاتمة

نخلص في ختام بحثنا في موضوع العقيدة الإسلامية أن سلوك الإنسان في جميع أفعاله وتصرفاته يعكس عقيدته، وهي صورة صادقة عن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره، فإذا كان إيمان الإنسان صحيحاً وسليماً كان عنصراً فعالاً في بناء المجتمع، ولهذا نستطيع القول إن عقيدة التوحيد هي أساس الحياة ووسيلتها وغايتها. ومن هذا المنطلق خلق الله الإنسان سيد مخلوقاته مستخلفاً في الأرض مفضلاً على كثير ممن خلق، وبعث في البشر أنبياء ورسلاً بحقائق عقائدية غاية في المحبة والعدل والإنصاف والخير، مزودين بالشريعة الغراء المنزلة من عنده، بغية تحقيق ثمرها من الفضائل الإنسانية العليا التي هي الرابطة في تحقيق السلوك الأمثل بينهم من خير وعدل، وحق ومحبة، وتعاون وتضامن إنها المثل العليا في تحقيق السلوك الخيّر للإنسان والمجتمع قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

لهذا أمر الله عباده لتحقيق هذه المثل بالعبادة التي هي الرائد لتحقيق الحياة الطيبة في البشر قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾[2].

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 24 ـ 25.

(2) سورة النحل، الآية: 97.

هذا كما أن الله سبحانه وتعالى بمشيئته في قضائه وقدره تبعاً لحكمته ترك للإنسان اختياراً يحققه بإرادته التي هي محور تصرفاته وأفعاله وسلوكه ليكون مسؤولاً تبعاً لهذا الاختيار من خير أو شر فوعده بالثواب والعقاب جزاء وفاقاً فيستقر في الجنة أو في النار نتيجة محاسبته في اليوم الآخر.

وهكذا نجد أن العقيدة الإسلامية تحقق الارتقاء المادي والروحي ويجد الإنسان بها سعادته النفسية والاجتماعية بحيث تكن دائماً دافعاً لهدايته سواء السبيل.

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

فالعقيدة الإسلامية إذن هي روح التربية الإسلامية وهي القوى الدافعة لصقل النفوس وتزكيتها وتطهيرها من الحسد والحقد والكبرياء والأنانية كما وتحصنها من الفسق والفجور والفحش ما ظهر منه وما بطن، ومن الظلم والقسوة، فهي إذن السبيل إلى الرحمة والإخلاص والعدل والإنصاف، تدرأ الشر وتحقق الخير. من هذا المنطلق ساد الإسلام بمبادئه وعدله وشرعه، ووطن نفسه لقيادة البشر ورقي الأمم، وتطهير الأرض من الشرك والكفر والفساد والظلم، إذ بفضله تحقق الفتح والظفر على أمم الشرك والكفر، وبفضله تحقق العلم والعمل، وإقامة الحضارة الإنسانية التي عم خيرها البشرية جمعاء.

فتحققت به إنسانية الإنسان.

إنها شريعة الله تخرج الناس من الظلمات إلى النور.

«انتهى بعون الله»

---

(1) سورة البقرة، الآية: 257.

(2) سورة الحج، الآية: 54.

فهرس المحتويات